أفرام عيسى يوسف

تاريخ بلاد الرافدين

ترجمة: فخري العباسي

دار الحوار

الكتاب: تاريخ بلاد الرافدين

المؤلف: أفرام عيسى يوسف

المترجم: فخري العباس

الطبعة الأولى: 2016/3

حقوق الطبع محفوظة © دار الحوار للنشر والتوزيع

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الفرنسي:

Les figures illustres de la Mésopotamie

****

ISBN :978-9933-523-53-4

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

الطبعة العربية محفوظة لدار الحوار للنشر والتوزيع حقوق

يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى دون أذن خطي مسبق من دار الحوار للنشر والتوزيع.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the written permission of Dar Al Hiwar Publishing Company.

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com

ص. ب 1018 اللاذقية، سورية.

هاتف وفاكس: 339 422 41 963+

البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com

info@daralhiwar.com

أفرام يوسف

تاريخ بلاد الرافدين

جلجامش- سرجون- نارام سين- آشور ناصر بال-
سنحاريب- نبوخذ نصر

ترجمة: فخري العباسي

دار الحوار

المقدمة

أطلق المؤرّخون اليونانيون على بلاد الرافدين عبارة البلد الواقع بين النهرين، أي دجلة والفرات. ولدتُ على هذه الأرض الرحبة التي هي أرض العراق الحالي. وما أنا إلا ابن جبال الشمال والقرى الأولى، مشاهد ومراقب السفن المسترسلة على النهرين، إنّها بلاد الزهور المنتشرة في وديانها ومروجها. حلمت بأني ابن أور وآشور ونينوى وبابل.

اكتشفتُ حضارة بلاد الرافدين أثناء دراستي الجامعية، تلك الحضارة التي تمثل إحدى أقدم وأسطع حضارات العالم، بثروتها وعظمتها المشهودتين.

حاولتُ من خلال محاضراتي ودروسي، حثَّ الآخرين على المشاركة في الإعجاب بعظمائها وبرجال أديانها وكتابها وفنّانيها وتجارها وحِرفيِّيها.

لقد برزت الحضارة وتطورت بشكل مبكّر في بلاد سومر وأكّاد، تلك المنطقة الواقعة في بلاد ما بين النهرين السفلى بين بغداد والخليج، وتم ذلك قبل أن تزهو بلاد اليونان وروما. وكانت هذه المنطقة التي شكلت أرضاً من الطمي، قاحلة أحياناً ولكنها خصبة وقاسية ومكوية بإشعاعات الشمس الساطعة، قد احتوت على مدن عديدة ثابتة وأخرى طارئة بسبب حركة النهرين وفيضاناتهما.

تميّز أبناء الرافدين بإبداعاتهم المختلفة، فكانوا أول من اخترع العجلة وفنون إرواء المدن، وتنظيم الدولة بمعناه الواسع وإنشاء الأنظمة

الإداريـة الأولى. وكـانوا السـباقين في إدراج الإنسـان داخـل صـفحات التاريخ باختراعهم الكتابة قبل حوالي 3300 قبل الميلاد. وهم الذين طوّروا بكفاءة التقنيات، والفنون، والتجارة. لقد سنّوا وطبقـوا القـوانين والشرائع الأولى، ودوّنوا مبكراً الأساطير والصـلوات والأشـعار البطوليـة والغنائية. إنّهم مبتكرو علوم الفلك، والتنجيم والطب.

"سادت" حضارة بلاد الرافدين هذه حوالي ثلاثة آلاف سنة، وفقاً للمصطلح الذي أطلقه عليها عالم الآثار الفرنسي المشـهور أندريـه بـارو André Parrot. واحتفظت هـذه الحضـارة بغـيرةٍ ثابتـة علـى طـرق أفكارهـا، وأخلاقياتهـا، وعاداتهـا المختلفـة حتـى وصـول الإمبراطـور الفارسي قورش سنة 539 قبل الميلاد، وخاصة عنـد وصـول إسـكندر المقدوني الكبير بعد قرنين من هذه الفترة. اسـتطاعت هـذه الحضـارة، على الرغم من احتلال الفرس والإغريق، أن تبقى وتصمد حتـى بدايـة القرن الأول الميلادي.

تركـت بصـماتها علـى منـاطق الشـرق الأدنـى كافـة، ووصـلت إشـعاعاتها الأولى إلى الغـرب عـن طريـق الثقافـة اليونانيـة، والكتـاب المقدس.

تؤكد التقاليد السومرية أن النظام الملكـي يمثـل سـلطة هبطـت مـن السماء إلى الأرض، بناء على مبادرة الآلهة التي منحت الرجال السلطة لرعاية البلد، إنّه النظام الوحيد والممكن للإدارة. وهكذا تشكل السلطة الملكية والعرش والصولجان جزءاً من "مي" التي تمتلكها الآلهة، إنّهـا كلمة رئيسة يمكننا ترجمتها: بالقدرات، والقـوانين، ومبـادئ تكـوين الحضارة السومرية ثم الرافدية.

لم يكن الملـك إلهـاً، كفرعـون مصـر، ولكنـه وسـيط بـين الألوهيـة والإنسـان وهـو راعـي شـعبه الـذي يعـتني بـه ويوصـله إلى الطريـق الصحيحة. وفق هذا المنظور، كان على الملك العمل على تأمين سـعادة هذا الشعب ورفاهيته، وحمايته من أعدائه.

كان السومريون أو ذوو "الرؤوس السوداء" يخضعون لعاهلهم الذي اختارته الآلهة، يتفادون أن تتحكم الفوضى في المدن ـ الدُّوَل حيث كانوا يتقاسمون أراضيها ويُقيمون فيها ممالكهم المتعددة.

تغيّر حجم تلك الممالك ومفهوم الملكية على مرّ السنين. وها هي الأمور تتغير تماماً، إذ جاء الملك سرجون الأكّادي حوالي عام 2335 قبل الميلاد، من مدينة أكّاد الواقعة في الشمال الغربي من سومر، فوحَّد بلاد الرافدين السفلى وأنشأ أول إمبراطورية واسعة شملت كامل بلاد الرافدين واستمرت تقريباً حتى عام 2193. ثم ظهرت دولة جديدة أخرى، هي إمبراطورية أُور الثالثة السومرية، لتستعيد نظام الحكم الإمبراطوري وتسيطر على بلاد سومر وبابل وعلى جزءٍ من زغروس وعيلام. اختفت هذه الإمبراطورية وزالت فجأة عام 2004.

على الرغم من سقوط تلك الإمبراطوريتَين، استمرت العادات والأعراف والتقاليد السومرية والأكّادية، وشهدت توسعاً وانتشاراً على بلاد آشور وبابل، إذ أراد ملوكها وحكامها المحافظة على تلك التقاليد الدينية والأدبية والاجتماعية الراسخة، وأصبحت جزءاً من حياة شعوبها. في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، انطلق الملوك الآشوريون والكلدانيون الذين تخلصوا من وصاية حكم الميتانيين القاطنين مناطق بلاد الرافدين العليا ومن الكيشيين الذين قدِموا من جبال زاغروس، ومن تدخل الآراميين المنحدرين من مناطق شمال الصحراء السورية، ليطبقوا ويمارسوا سياسة الفتوحات والتوسع الجغرافي، فحكموا إمبراطورية اتّسعت رقعتها الجغرافية شيئاً فشيئاً وامتدت مساحتها على كامل مناطق الشرقَين الأوسط والأدنى.

أعاد مُنقِّبو الآثار والعلماء والمؤرخون الذين عملوا منذ قرن ونصف بحماس شديد، الحياة إلى الماضي الباهر لبلاد الرافدين واكتشفوا أجزاء عديدة من الفخاريات الزخرفية والنقوش المنحوتة والأعمال الفنية،

وفكّوا رموز الآلاف من الألواح الطينية المغطاة بالكتابات المسمارية، وقرؤوا الوثائق المحفوظة، ونصوص الأشعار البطولية والغنائية.

وإذا كانت بعض الأعمال المنحوتة لهؤلاء الملوك تعرض صوراً للذين أمروا نحّاتي عصرهم بأن ينحتوها لهم، فقد نُحتَت صُوَرُهم أيضاً على الأختام والمسلات والنقوش البارزة. ومع ذلك، لا نملك ما يكفي لمعرفة ملامح وجوه معظم الملوك، التي شوّهها أعداؤهم المنتصرون أو التي ضاعت تحت ضباب التاريخ.

كيف يمكن معرفة هؤلاء الرجال البعيدين عن زمننا، "أبناء أزمنتهم وأزمنة آبائهم"، كما يوجه المؤرخ الفرنسي المعاصر جاك لوغوف Jacques Le Goff السؤال للجميع؟ لقد ورث هؤلاء الرجال ممالكهم من آبائهم ولكنهم بشجاعتهم وبسالتهم وتقواهم رسموا مصيرهم بأيديهم وتقدموا نحو الأمام، وساهموا في تشييد حضارة كبرى عبر التاريخ الطويل.

واليوم أجد نفسي متباهياً، وأفكر بمشاعر الزهو والاعتزاز ببلاد الرافدين البعيدة عني والقريبة مني في آن معاً. بلادي، بلاد الأبطال وبلاد الملوك الذين حملوا أسلحة العالم القديم ودروعه. في ذلك الزمن، كانت تتموج سنابل القمح والشعير، وتتدفّق الجعّة والزيت والعسل بغزارة في ربوعها العامرة، وتعزف الريح ألحانها على أوتار قيثارتها الممتدة على أزمنتها الجميلة. حينذاك، كانت مغامرات الإنسان ونباتات القصب، وسعف النخيل كمِثل الثيران والسنابل، تتحاذى مع الحلم والواقع والمأساة.

أرغبُ اليوم في تقديم إسهامي المتواضع هذا هدية للتعرف على بلاد الرافدين الأصيلة والاستحمام في نهريها الرّحْبَين، والتوجُّه صوبَ فجر أزمنتها.

القسم الأول

سومر وأكّاد وبابل

ما زلتُ أحلم حتى هذا اليوم بسومر أرض البدايات، وأفكرُ بصباحها المشرق وبرجالها الشغوفين بالحياة والمعرفة، الذين طوروا التقنيات والفنون والريّ. لقد أبدع رجال سومر فن الخزف والعجلة والمحراث والشراع. اخترعوا بوجه خاص الكتابة التي وضعوا نظامها في نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد، ليعبّروا من خلالها عن احتياجاتهم وشعورهم بلغتهم وعواطفهم إزاءها.

عاش السومريون في المنطقة الجنوبيّة من بلاد الرافدين، حيث يستقر الغرين والصلصال في جِوار الصحراء والسَّهب.

ونظموا بالقرب من نهر الفرات وبجانب قنواته، المدن المشيدة بأمر آلهتهم حسب اعتقادهم، مثل كيش الواقعة شمال البلاد، ومدينة نيبور وأوما في الوسط، وأوروك ولكش وجيرسو وأور وأريدو في الجنوب. كوّنت هذه المدن مراكز سياسية وأماكن

تبادُل وتجارة. أسَّسوا هناك حضارة خصبة، تشهد على تفوقهم الفكري والاجتماعي.

تعرضت للضياع في ليلِ الأزمنة الغابرة. ولكن، كما قال الكاتب البرتغالي الكبير خوزيه ساراماغو José Sarramago: " عندما بدأ الناس في الكتابة، توقفت تلك الأزمنة الغابرة عن إغراقهم في الظلمات..." 1

توجهتُ كي أكتشِف سومر وأكّاد وبابل، ونورها السرمدي وألوانها اللازوردية وأبطالها وملوكها المسلحين بالرماح البرّاقة، كي أتعرَّف ممالكهم وأنغامهم الموسيقية.

ما الطريق التي ينبغي أن أقتفيها للوصول إلى تلك البلاد التي كانت في الماضي شبيهة بالجنة على الأرض. لكن كم يبدو لي ذلك الزمن بعيداً؟

هل كنتُ قادراً على الانغمار في ذلك العالم المشحون بالمغامرات والفتوحات والعنف والاكتشافات، لكنه كان، إلى ذلك، ينطوي على العدالة والرأفة والحماسة ورجفة النشوة؟ ألَا إنّ كل شيء يتحدّث، بفضل طول الزمن، إلى القلب والحواس، وبفضله تصِلنا الأصداء البشرية وقوى الكون !

هوامش القسم الأول:

1- خوزيه ساراماغو (José Sarramago)، حصار لشبونة (Le siège de Lisbonne)

11

الفصل الأول

جلجامش، ملك أوروك

وصل جلجامش، البطل السومري الأول، الذي قاتل الغول المتوحش وانتصر على الثور المرعب، إلى نهاية العالم وإلى الجزيرة التي لا تعرف الغسق. حلم دون جدوى بأن يُصبح إنساناً خالداً. تُرى، هل كان هذا البطل موجوداً؟ هل هو ملك أسطوري وحسب، يعود شأنه إلى أقدم عمل روائي وأسطوري عرفه العالم. إنّه بطل مُلتحٍ عملاق، نراه في تمثال منحوت من المرمر في متحف اللوفر بين يديه شِبلٌ(1)، يضمُّه إلى صدره. هل هو بطل أدبي اخترعته مأساة البشر الذاهبين نحو الموت المحتم؟

تشير الدلائل كافةً إلى أن جلجامش كان في الواقع رجلاً تاريخياً وملكاً فريداً. كما تدلّ اللائحة الملكية السومرية (2)، المدونة سنة 2650 قبل الميلاد، أنه قد حكم مائة وستة عشرين سنة في مدينة أوروك التاريخية، تلك المدينة الهامة الواقعة في جنوب العراق (الوركاء). لم يعثُر علماء الآثار على قصره في أثناء تنقيبهم عن الآثار في تلك المنطقة.

لقد حرر ناسخون سومريون ينتمون إلى الحاشية الملكية لسلالة أور الثالثة (2112 – 2004 قبل الميلاد) تعود أصولهم إلى أوروك، خمس قصص روائية أسطورية. تطرق قسم منها إلى المغامرات المذهلة

لهذا الملك. إنّها قصص مليئة بشخصيات إلهية وشيطانية، وأبطال باهرين، وأناس هجين نصفهم بشر ونصفهم عقرب، وبحيوانات وحشية وحدائق مهولة، وكنوز.

دُوِّنَت قصة جلجامش وملحمته الشعرية، بنسختها البابلية الأولى منذ الربع الأول من الألفية الثانية قبل الميلاد، وانتشرت في كامل مناطق الشرق القديم.

جُمِعت قصص المغامرات هذه في بابل ما بين سنة (1300 – 1200) قبل الميلاد، على شكل قصيدة غنية مليئة بالروح والأسلوب الغنائي الجميل، حرّرها باللغة الأكّادية أديبٌ ماهر حمل اسم "سين لوكونيني".

كما اكتشف علماء الآثار المعاصرون في نينوى، عاصمة الإمبراطورية الآشورية، نسخة عن تلك الملحمة محررة على 11 لوحاً، عُثِر عليها بين أنقاض مكتبة الملك آشور بانيبال (668– 627 قبل الميلاد). أما اللوح الثاني عشر فكتبه آخر، يروي قصة نزول جلجامش إلى الجحيم.

لقيت هذه الرائعة الأدبية رواجاً واسعاً في الشرق، ونال بطلها جلجامش شهرة كبيرة.

الحياة المدنية

تنقلنا الملحمة، كساعي بريد فخور إلى أزمنة بعيدة غير محددة. حكم جلجامش، ذلك العملاق المنتمي إلى سلالة تخيلية، في قلب مدينة أوروك. كان ابن الملك "لوكالابانـدا" والإلهة "نينسون"، ثلثاه إلهيَّان والثلث الآخر بشريّ. وكان هذا الملك المتغطرس والرهيب أشبهَ بثور هائج، يتمتع بسلطة طاغية، يستخدم الرجال لإنشاء سور المدينة، بينما يقضي ليالي أعراسه مع الزوجات الشابات.

خلقت الآلهة استجابة لالتماس سكان مدينة أوروك، الذين ضجروا من إفراطه في المتعة، شخصية هائلة البدن، مكسوة بشعر كثيف، عضلاتها متينة، ألا وهي شخصية أنكيدو، الذي كان يحيا في البراري متعايشاً مع الحيوانات المتوحشة، حيث كان يرتعي العشب مثلها ويرتوي من مياه ينبوعها.

إلا أن أنكيدو عملاق الغابات هذا تلقّن ملذّات الحب على يد بغي أتت إليه من مدينة أوروك. كان هذا الحب الحُرّ الرقيق الطليق، والغذاء الإلهيّ، مرغوباً في بلاد سومر. هكذا تعلم أنكيدو طريقة الأكل والشرب واللبس، منتقلاً من الحياة الوحشية إلى الحياة المدنية.

في الواقع، كان التقدم والرقي يشكلان فكرة أساسية، نمت وتطوّرت في بلاد الرافدين.

وأدى ذلك إلى أن تتخلى الحيوانات عنه، لأنه لم يعد ينتمي إلى نسق حياتها كما كانت عليه الحال في السابق.

لقد قادت البغي الماهرة أنكيدو إلى المدينة، حيث اكتشف الخبز والجعّة والملابس والموسيقى. واطلع على قوى الروح من خلال جسده.

أثناء المُنازلة بينه وبين جلجامش، واجه أنكيدو ذو الأخلاق البسيطة والعادلة والبريئة سطوةَ جلجامش الذي تجاوز الحدود. بعد عراكهما الطويل، كان على الملك جلجامش أن يتنازل عن عنجهيته. وهكذا ولدت بينهما صداقة يطبعها الإعجاب المتبادل، صداقة بين شخصين متقاربين، لكنهما مختلفان في الوقت نفسه، صداقة أتتِ الملكَ بعد انتظار طويل.

الوجود يعني الحُبّ. وكانت هذه أول مرة يشعر فيها جلجامش بمشاعر المحبة الحقيقية تنمو في داخله. وجّه عندئذ طاقته نحو أهداف أخرى، فبدل أن يُمارِس سلوك الطاغي إزاء رعاياه ويُفرِط في حياة العشق والغرام، ها هو يحقق هدفه ويقوم بإنجاح حياته في مسيرة جديدة مع صديقه أنكيدو، ودائمة مع الزمن.

"هل تساوي الحياة دون مجد أكثر من الموت؟ ذلك هو السؤال الذي طرحته مسرحية أدبية سومرية تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، معروفة باسم *"نزهة أبطال الأزمنة الغابرة"*.

هذا ما أراده جلجامش لنفسه، عندما سعى لكسب سمعة خالدة.

الرحلة البعيدة

مضى جلجامش برفقة أنكيدو كي يُحارب حارس غابة الأرز المتوحش، العملاق حمبابا Humbaba الذي يقذف ناراً، فيقطع رأسه، ويعود بعدئذٍ إلى مدينة أوروك كمِثل بطل منتظر، شاحناً معه شجرة ضخمة تُستخدم في البناء. ويجرؤ على رفض حظوات الحب التي تقدمها له الإلهة عشتار، فتنتقم منه، وتُرسِل ضدَّه وضدَّ صديقه أنكيدو "الثور- السمائي" الضخم الذي بدأ بتدمير أوروك. لكنّ الملك جلجامش تمكّن من القضاء على هذا الثور. فاحتفلت المدينة بأكملها بانتصاراته.

ألقت الآلهة التي أصابها الكدر من مقتل حمبابا، باللائمة على أنكيدو، وحكمت عليه بالموت. أَوَلم يستسلم للتكبُّر ونكران الجميل؟ يسقط أنكيدو العملاق الحسن مريضاً، فيلعن البغي التي أوصلته إلى مجتمع البشر الذي أصابه بشروره. ثم ينطفئ ويعود إلى الصلصال والصمت.

وهكذا، بكى على أنكيدو قدماء مدينة أوروك وشبابها والطبيعة بأكملها: الدّبَبة والضباع، والفهود، والنمور، والجبال، والطرق، ونهر الفرات النقي، ناح الجميع بمرارة.

"كيف أسكتُ؟" صرخ جلجامش الهائج، من صدى هذا الحادث الرهيب الذي دفعه إلى التمرُّد.

عاش جلجامش مع "أخيه" أنكيدو عيشَ قصَبتين مزركشتين ضمن بستان القصب، وها هي العاصفة تهب وتعمل على تفريقهما الواحدة عن الأخرى. لقد عاش في عالم اللامبالاة والطيش وها هو اليوم يجد

نفسه وجهاً لوجه أمام فاجعة وفاة صديقه، فيُدرك أن أجلَه وشيك أيضاً. ولعلّه أدرك في هذا جانباً من مأساة الحياة.

ترنّح جلجامش واستوعب الجانب الهزلي والعبثي لعلاقات الصداقة التي لا تترك آثاراً تزيد أو تقل عن الآثار التي تتركها قطرات زخة المطر. يُقلقه الوجود المجهول وانتظار الموت.

ما العمل؟ قرر الملك أن يواجه التحدّي الذي فرضه القدر عليه. عندئذ تخلّى عن ملابسه الفاخرة، وعن هوية المِلك، وخرج من المدينة. هام على وجهه في الصحراء، كساؤه جلد أسد. كان شاردَ الذهن، أشعثَ الشعر. راح يفكّر بالأخطاء المشؤومة التي ارتكبها. سأل نفسه، لماذا لا أتوجه لرؤية أوتا ـ نابيشتي Uta-Napishti، ملك المدينة الملوكية شورو باك Shuruppak، الشخص الوحيد الذي نجا من الطوفان، يسكن في ما وراء أرض البشر ويعرف سر الحياة الخالدة؟

جعل جلجامش المُصادفةَ طريقاً، وباشر رحلة صوب الشرق المليء بالمكائد. وصل في النهاية إلى الجبلَين التوأمَين اللذَين يحرسهما "الرجال ـ العقارب". أجبر أحدَهم على أن يدَعه يعبر بوّابة الجبلَين. مشى في المعبر الضيق المُظلِم غير قادر على أن يرى شيئاً لا أمامه ولا خلفه.

توجّه جلجامش صوب المجهول. وصل مندهشاً إلى حديقة بديعة كانت أشجارها تُشِعّ من ضوء النهار دون أن تحترق وهي تنحني تحت ثقل ثمارها، إنّها جواهر متعددة الألوان، منها الزرقاء والبنفسجية كأنّها حبّات عناقيد العنب الجميلة.

بدأ يسمع البحر غير البعيد يزمجر أمواجاً. اقترب جلجامش من الشاطئ. رأى صاحبة الخمارة سيدوري Siduri، فطلب منها أن تدلّه على الطريق المؤدي إلى أوتا نابيشتي Uta-Napishti الحكيم.

كان عليه أن يُجاوِز، بمساعدة المُعدِّي "أور–شانابي" Ur-Shanabi، البحر الذي ما استطاع إنسان أن يعبره، أو يخوض غمار مياهه، مياه الموت. المجاديف التي تدفع السفينة غير كافية. كان

عليه أن يخترع شِراعاً لذلك. وأخيراً وصل المسافر الكئيب الذي لم يكن كِساؤه سوى قطع من الجلود الممزقة والمتسخة إلى تخوم العالم حيث تسطع الشمس الأبدية. وتقدم جلجامش نحو الأمام للقاء "أوتا ـ نابيشتي" Uta-Napishti. كان يأمل أن يشرح له هذا الرجل الحكيم سرَّ مصيره!

دعاه أوتا ـ نابيشتي بطل الطوفان، آخرُ ممثل لزمن غابر، إلى أن يُهدِّئ من روعه وأن يستسلم للمصير المحتوم، ويقبل الموت الذي هو قَدر البشر جميعاً. "لا بدَّ أن تنكسر الإنسانية انكسارَ قصبة السكر."

هذا ما قررته الآلهة الكبرى:

"لقد فرضت علينا (الآلهة) الموت، كما فرضت علينا الحياة، تاركة (لنا) جهل اللحظة التي يأتي الموت فيها."(3)

عندئذ روى له الرجل الحكيم أوتا ـ نابيشتي Uta-Napishti قصة الطوفان. وأعلمه بقرار رئيس الآلهة إنليل Enlil الذي منحه وزوجتَه الحياةَ الخالدة. لم يكن ملك أوروك لِيأمل بأن يحصل، هو أيضاً، على هذا الامتياز الفريد ويعود إلى بلده.

على أن زوجة البطل الحكيم، أشفقت على جلجامش وطلبت من زوجها قبل مغادرته، بأن يكشف سِرّ البقاء على حياة الشباب الدائم. وكان الأمر يتعلق بنبتة الحياة، النبتة السحرية التي تنبت في قاع البحر، ويمكن للشخص الذي يمتلك هذه النبتة أن يعود إلى صِباه.

غطس جلجامش في أعماق المياه واستولى على هذه النبتة كأنه يستولي على لؤلؤة ثمينة. غير أن أفعى واجهته وهو يسير على طريق العودة وسرقتها منه عندما كان يسبح في ماء البحر.

يستبدّ بالملك الشجاع يأس جديد، إذ لا مجال أمامه للهروب من المصير المحتوم، الموت. لم يكتشِف جلجامش، على الرغم من وصوله إلى نهاية العالم، أكثر من أنّه بشرٌ فانٍ. فما كان منه وهو يستسلم

لقدره برفقة البحار "أور- شانابي" Ur-Shanabi إلا أن يعود بسرعة فائقة إلى نقطة البداية. جاوزَ بوابات أوروك، المدينة التي كانت وما تزال ملاذَه الأول والأخير، فهي مدينة الحنان والهناء التي فيها تكتمل الدورة.

انتهت ملحمة جلجامش نهاية مأساوية، بعد أن حاول بطلها أن يُواجِه قدَره، ويخرج من شروط ضعفه الإنساني ويتخلّص من الموت. إلا أنه لم يجد من سبيلٍ إلى تغيير النظام الكوني.

جلجامش يرسم معنى حياته من خلال أعماله

استقر جلجامش ثانية في مدينته الطيبة أوروك فنحت ونصب مسلّة تروي قصص أعماله البطولية. وعرض أسوار مدينة أوروك الرائعة على البحّار "أور-شانابي" Ur-Shanabi الذي جلبه معه إلى عاصمته. (ويمكن رؤية آثارها).

يقول جلجامش:

"اِصعَد يا أور- شانابي
وتنزه فوق أسوار أوروك!
تمعّن في هذا الرُّكن،
وتفحَّص هذه الأساسات وقواعدها المتينة
أو ليس (كل هذا) من الآجُرّ المشويّ؟
وهلا وضع الحكماء السبعة بنفسهم أساساتها؟
المدينة تمتد إلى ثلاث مائة هكتار،
ومثلها الحدائق
ومثلها أيضاً الأراضي الخصبة،

إنّها حارة معبد عشتار.
اِلْق بنظرك على الألف هكتار هذه،
إنّهَا اتّساعُ مدينة أوروك... 4
كيف قضى جلجامش باقي حياته في مدينة أوروك؟
لقد شيَّد مدينته وجملّها. اختبر فيها لوناً من الحرية التي أتاحت له رسمَ حياتِه ومَنْحها معنىً من خلال ما أنتج خياله المبدع من أعمال، ومن صياغة معنى وجوده. فهل برع المِلِكُ في أدائه ؟ لقد تدرَّج في اكتِّشاف مطامحه الحقيقية، واختبر نفسه عبر مراحل حياته، مُضفيًا عليها لونَ عبقريته الشخصية. فخرج مولوداً جديداً من أعماق البحر، ولم يعد يشكل نصف إله ونصف إنسان، بل صار رجلاً حكيماً متمكّناً من *"السيطرة على نفسه"*، بحسب مقولة الشاعر المشهور "غوته"، الجميلة.

هل غدا، في أيّامه الأخيرة، فريسة القلق من حتمية الموت ؟ هل أبحر في أعماق ذاته الإبحار الحقيقي؟ هناك حيث لا أهمية للمسافة والزمن، وحيث يتوافق السلام والتناغم مع العالم وقواه السامية. هل حلم بحديقة الأحجار الكريمة الرائعة، وبرجل البحر أور–شانابي Ur-Shanabi وجزيرته السعيدة، أو بخمارة سيدوري التي التقى بها على شاطئ البحر؟ قالت له تلك المرأة الحكيمة: لن تعثر أبداً على الحياة الخالدة. دعته إلى أن ينظّم نفسه، ويبني ذاته، ويرتب لها وجوداً مليئاً غنيَّ الأعمال. إنّما العمل وحدَه يُلائم الإنسان الذي ينبغي أن يعيش الأبدية في كل لحظة من حياته، ويستخلص منها ماهية الحياة والسعادة.

تقول له سيدوري:
"أمّا أنت،
فاملأ جوفك، وكُن سعيداً،
نهاراً كما في الليل.

عليك أن تعيش دوماً
كما تعيش في العيد.
ارقص وتسلّى، ليل نهار.
اِرتدِ الملابس النظيفة، واغتسل واسْتحمَّ.
انظر: بحنان إلى صغيرك الذي يُمسِك يدك.
واجلب السعادة إلى زوجتك وهي تعانقك.
هذا هو نصيب البشر. (5)

قصيدة سومرية

هاكم قصيدة سومرية معروفة باسم *"موت جلجامش"*، موضوعها وفاة ملك أوروك الذي حلم، وهو يعاني من سكرة الموت، أن الآلهة اطّلعت على أعماله البطولية وعلى استحقاقاته، فمنحته دور قاضي الموتى، وقدّمت له في العالم السُّفلي، الحياة الخالدة التي طالما رغب فيها.

لقد اشتُهر جلجامش ونال التكريم بوصفه معبوداً منذ الألفيتين الثانية والأولَى قبل الميلاد.

الذاكرة هي وحدَها العنصر الخليق بأن يجعل الزمن سامياً. إن ملحمة جلجامش ملك أوروك، الذي عبرَ ذِكره آلاف السنين بفضل أعماله البطولية وأفعاله المأثورة، وبفضل سحر الكتابة ومعنى رموزها المنقوشة على ألواح الطين.

لا تعود حكمة هذه الملحمة إلى بلاد الرافدين وحسب، بل تنتمي إلى العالم أجمع. إذ ألهمت، بوصفها مصدراً للأساطير الكبرى، العديد من فصول العهد القديم من الكتاب المقدس، كقصة الطوفان، وسِفر الجامعة على سبيل المثال. كما ألهمت قصص الإغريق القديمة، وأعمال هرقل، والصداقة بين آشيل وباتروكل المذكورة في "إلياذة"

هوميروس المشهورة. وقد تأصّلت الحضارة الغربية باستقائها من ماضي الشرق القديم. ومن ثمّ أوحت ملحمة جلجامش المترجمة إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية، بكثير من القصص والروايات والمسرحيات والموشحات الدينية وأوبراً الروك. بالإضافة إلى أنّ جلجامش يشكل أوّل ابتكار للتفكير الفلسفي، ولا سيّما عندما يوجه لنفسه وللآخرين الأسئلة الكبرى حول الإنسان ومصيره. لقد تغيّر العالم، ولكن قلب البطل والإنسان بقي كسابق عهده مُتعطّشاً للمغامرات والمجد وميّالاً إلى الصراع، وإلى الأمل الكبير.

في الواقع، مصير الإنسان وقدره، هو الإنسان نفسه.

هوامش الفصل الأول :

1-اليوم، في متحف اللوفر، خورسآباد (Khorsabad)، القرن الثامن قبل الميلاد.

2-اللائحة الملكية السومرية، التي تُحصي السلالات، مدونة حوالي سنة 1850 قبل الميلاد.

3-جان بتيرو (Jean Bttéro)، **ملحمة جلجامش** L'épopée de Gilgamesh، دار غاليمارد، 1992، ص 182.

4- المرجع السابق، ص 204.

5-نفسه، ص 258

الفصل الثاني

إيباناتوم (Eannatum) ملك لكش

في فجر التاريخ، تبوّأ ملك قوي عرش مدينة لكش (اسمها اليوم تل الهيبا)، البلد الواقع جنوب سومر، هو الملك إياناتوم الذي حكم (حوالي 2454 – 2425 قبل الميلاد) وحمل لقب لوغال Lugal (الرجل الكبير). هذا الملك ابن أكورغال Akurgal وحفيد أور–نانشيه Ur-Nanshé، المشيِّد الكبير ومؤسس السلالة الأولى لمدينة لكش حوالي سنة 2520، السلالة التي هيمنت على هذه الدولة قُرابة قرنين من الزمن. وقد ترك لنا حوالي خمس عشرة كتابة رسمية.

تشير المراجع إلى أن إياناتوم منح نفسَه أباً، هو إله العاصفة والحرب نين – جيرسو Nin-grisu، وهو يُمثله على الأرض. ويُروى أنَّ الملك رضع حليب الإلهة نين – هورساغ Nin-hursag.

ذاع صيت الملك نتيجة نزاعٍ محلي، النزاع الذي عُرفَ بفضل مِسلّة النسور المشهورة. توجد هذه المسلة التي عُثِر عليهَا، أثناء التنقيبات الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر، مكسورةً إلى عدة قطع في منطقة تلو (جيرسو) الواقعة جنوب العراق، وهي اليوم محفوظة في متحف اللوفر. إنّها واحدة من أقدمِ الشهادات على النزاعات الحاصلة بين قوات متحاربة ومجهزة تجهيزاً جيداً.

ثمّة مشكلة حدودية هامة منذ فترة طويلة، أدت إلى خصامٍ مسلح بين "المدينتين ـ الدولتين" أوما Umma في الشمال (حالياً

جوها) الواقعة على أحد أذرع المنظومة النهرية، ولكش في الشرق المجاورة لها على مسافة حوالي ثلاثين كيلومتراً. نشب هذا النزاع على قطعة أرض معروفة باسم "كو إدينا Gu-edina" كانت تعبرها عدة قنوات تؤمن الوصول إلى اليابسة وإلى الماء.

كانت مدينة أوما الواقعة في أعلى سهل بلاد الرافدين، مرويّة ومزروعة جيداً وتتحكم بضخ مياه القنوات المتفرّعة على مجرى نهر الفرات إذ قطعت المياه مرارًا عن مدينة لكش الواقعة في الأسفل.

غير أن قادة مدينة أوما احتلوا كوادينا، في عهد الملك أور – نانشيه والملك أكوركال.

ما لبث الملك لكش إياناتوم، الباسل والقوي بحماس شديد، أن استأنف المعارك التي كان أسلافه قد شنّوها على العدو:

"أنا إياناتوم، كمِثل ريح عاصفة رهيبة،
أنشر العاصفة."

مِسلّة النسور

أظهر الملك إياناتوم التحدي تجاه ملك أوما وانتهى به الأمر إلى استعادة الأراضي المتنازع عليها، أراضي كو إيدينا. عندئذ نصب مسلةً فوق مكان المواجهة، بلغ ارتفاعها متراً وثمانين سنتمتراً، واجهتاها منحوتتان. تُمجِّد المسلّة مآثره السامية، وانتصاره على مدينة أوما وحاكمها.

لم يتمكن الزمن من محو آثار تلك المسلة المتكوِّنة من حجر الكلس ولا آثار ذلك الانتصار الحاسم. قاومت ذكراها فعل السنين لأنها منحوتة على الحجر الصلب. ويكفي المرء أن يلقي نظرة عميقة على إحدى واجهتي هذا الأثر، كي يظهر كل شيء أمامه وتستعيد الأحداث وهجها، وتتحرك جوانبها.

تعرض مسلة الملك إياناتوم، وهو يرتدي قبعة على شكل خوذة مصطنعة بشعره المُسترسل، يلبس جزته الصوفية الكثيفة، الموضوعة على أحد جنبَيه. وتُبرز اياناتم مُتقدّماً على رأس جيوشها المتناسقة في تسعة أنساق، في كل منها سبعة أرتال.

يمكن رؤية الجنود الذين يرتدون خُوذاً جلديّة ومسلحين برماح طويلة ومحميين بدروع كبيرة مستطيلة الشكل وهم يبرزون أكتافهم ويتقدمون بحركة متوازنة. فيشنون المعركة، ولا يمكن لأي شيء أن يوقف حماستهم، التي تظهر عبر حمولتهم الثقيلة وتلاحمهم والرماح الطويلة وهي ترتعد وتتلامس في ضوضاء الحرب. وهكذا تنتهي بالانتصار، وسعادة النصر وبهجته بادية على الوجوه. تجد مُحاربي مدينة لكش يتحرّكون ويدوسون بأقدامهم على قوات مدينة أوما التي سقطت على الأرض. وعندئذ تحلق النسور الساغبة في السماء وتستعد كي تساهم وتأخذ حصتها من الحفلة التي تلت الانتصار وتلتهم أجسام القوات المغلوبة.

يظهر الملك إياناتوم، على الجانب السفلي من المسلة، وهو يركب على عربة ويمرّ رافعاً أسلحته وملوحاً بها دلالة على الظفر، ويليه رجاله عراة الصدور وهم يحملون الرماح وفؤوسهم مثبتة على أكتافهم. تبدو عربته المجهزة بالعجلات المتينة وهي تطلق أصوات صريرها لكي تنقله إلى عالم المجد وإلى ذاكرة القرون القادمة.

ويعرض القسم الثالث المنحوت في الأسفل، أجساد جنود لكش المكدسة، التي يجري العمل على تكفينها بأدب ودفنها باحترام. ويقوم رجل على اليمين، يسكب الزيت المقدس.

وتبرز المسلة، على واجهة أخرى الإله الخاص لمدينة لكش، نين – جيرسو Nin-girsu، بوجهه القاسي ومظهره المتحكم، وصدره العاري وذراعيه الضخمين. يظهر هذا الإله في المسلة، يلبس سروالاً

مجهزاً بالفتائل الصوفية المتدلية وبقبعة من الشعر المستعار المتدلي وبلحيته المتموجة. يُمسِك الإله بيده اليسرى شبكة مسدودة بقوة نسر أسدي الرأس. هذا النسر رمز الإله. وفي تلك الشبكة يظهر جنود مدينة أوما وهم متراكمون بعد أن تجرؤوا على مقاومته عندما هبط على موقع اشتباك الجيشين. تعرض المسلة يد الإله اليمنى وهي تمسك بقوة كتلة صخرية يستخدمها للقضاء على أعدائه الأسرى.

أمر إياناتوم بكتابة نص بلغ عدد سطوره 465 سطراً على تلك المسلة، باللغة السومرية وبالحروف المسمارية، لكنها تعرض جزئياً إلى التشويه، و تروي الكتابة مختلف مراحل الحرب منذ البداية ولغاية انتصار الملك، الذي تمكن من حطم دولة أوما.

فيقول ملك لكِش :

"كان أمير أوما، يريد في كل مرة مع قواته (...) أن يستولي على كوأدينا، المنطقة المفضلة (للإله) لنين – جريسو فقضى (هذا الأخير) عليه. ضرب (الملك) إياناتوم أوما وقام بتقطيع أوصال 3600 جثة بسرعة... واقتحم إياناتوم حدود أوما و(نصب) في المكان نفسه مسلة. ليعمل (رجل أوما) على عدم تحريكها من مكانها. إذا اجتاز الحدود، فلتسقط على أوما، شبكة إينليل الكبيرة، إينيل ملك السماء والأرض الذي أدى قسم اليمين باسمه." 1

قدم إياناتوم، الأمير الحكيم والمنتصر الذي لم يعد قادراً على احتواء فرحته، قدم قرباناً على شكل حمامتين إلى أوتو Utu، إله الشمس. وتم رفع تلة بين أراضي المملكتين لتثبيت الحدود بينهما.

وتتطرق الكتابة أخيراً إلى القسم الذي أداه الملك أمام الآلهة وعقد اتفاقية مع أوما، فترك لسكانها إمكانية الزراعة في كوإدينا التي تخضع إلى لكش، مقابل دفع ضريبة له.

انتصارات أخرى لإياناتوم

حاز إياناتوم على انتصارات أخرى. وتبين كتابة منقوشة على صخرة جبسية تم العثور عليها في موقع تيلو (جيرسو) بأنه قد سيطر على بلاد الرافدين الجنوبية، ومنها أوما وأوروك وأور الوسطى وكيش. ويبدو بأنه ربما وصل إلى منطقة ماري (Mari) الواقعة على نهر الفرات الأوسط، في سوبارتو (آشور). وكان قد شن، في الشرق حملات منتصرة ضد بلاد عيلام (Elam)، بفضل حماية إلهه. وقد تمكن هذا الملك الفاتح الذي كان يقاتل كالأسد، من جعل مدينة لكش التي كانت في السابق باهتة، "مدينة ـ دولة" تميزت بقوتها لفترة طويلة.

كما تم العثور من قبل علماء الآثار الأمريكان، بالإضافة إلى المسلة هذه، على مبنيين ثقافيين، بدون أي شك، شيدهما إياناتوم، وهما معبد إيكا Ibga المكرس إلى الإلهة إينانا Inana ومبنى مهدى إلى الإله نين جيرسو Nin-girsu.

لم ينته النزاع مع دولة أوما، وها هو يندلع مرة ثانية عندما استعاد " أهل أوما" قدرتهم السابقة.

للأسف الشديد، الصراعات على الحدود لم ولن تتوقف أبداً على امتداد الأزمنة السابقة منها والحاضرة.

هوامش الفصل الثاني:

1 مقطع من كتابة مسلة النسور، جان لوي هيو (Jean-Louis HUOT)، السومريون (Les Sumériens)، نشر دار أيرانس (Errance)، 1989، ص 237

الفصل الثالث

أوروكاجينا (Urukagina) ملك لكش

المدافع عن الضعفاء

برز وجه شهير آخر، بعد قرن من الزمن، في سماء بلاد الرافدين، ألا وهو أوروكاجينا الحكيم والإصلاحي (حوالي 2351-2342 قبل الميلاد). هل وصل هذا الملك إلى عرش دولة لكش من قبل شعبه أم أنه استولى عليه بنفسه؟

تعرضت المدينة ـ الدولة إلى الضعف نتيجة نزاعها القديم مع مدينة أوما. حكم هذا الملك لمدة تراوحت بين ثمانية إلى تسعة أعوام، وتمكن من بسط ونشر الرفاهية على امتداد مملكته الصغيرة. وكان خلال حكمه، ينشر نسيم النظام والحرية والعدالة والمساواة. وكان يشعر بأنه مسؤول عن سعادة رعاياه.

هناك ستة كتابات ملكية منقوشة على ثلاث إسطوانات تم استخراجها سنة 1878 من قبل علماء الآثار الفرنسين في منطقة تلو (جيرسو الواقعة في جنوب العراق) تبين لنا بأن أوروكاجينا الأول، ربما هو أول من قام بإعداد مجموعة من الإصلاحات الاجتماعية، " ضد التعسف في الأيام الآنفة". وكان يرغب في تأسيس نظام

اجتماعي جديد. نددد بالأخطاء المتراكمة التي ارتكبها الملوك السابقين له في الحكم.

وتمكن من إنقاذ الدولة من هيمنة أصحاب الرتب العالية ومن الجباة والمستفيدين الذين كانوا يغالون في الاستفادة من امتيازاتهم، والذين كانوا يضاعفون الضرائب والرسوم على الشعب مثل الضريبة المفروضة على جزّ الخرفان البيضاء على سبيل المثال أو على صيد الأسماك. فكانوا يحصلون على أكثر من مستحقاتهم. وبذلك كانوا ينتهكون حريات المواطنين والمزارعين والصيادين وأصحاب الحرف والمهن والتجار.

عقد الملك ميثاقاً مع "نين ـ جيرسو"، إله لكش الوصي على الدولة وتعهد له بأن "لا يسلم الضعيف والأرملة بأيدي القوي" وعلى أن يدافع عن الفقير ضد الغني وحماية الحقوق الفردية للمواطنين.

هوذا مثال على إصلاحاته الهامة:

"إذا كان منزل رجل عادي مجاوراً لمنزل رجل هام. وقال له الرجل الهام:

ـ أنا أريد أن أشتريه.

فإذا كان الرجل العادي قد قال للهام الذي أراد شراءه:

ـ ادفع لي المبلغ الذي أعتقد بأنه السعر المعقول.

وإذا لم يشتريه الرجل الهام، فلا يجوز للرجل الهام أن ينتقم من الرجل العادي." 1

يعتقد الباحث الفرنسي المتخصص في الشؤون السومرية، جان بوتيرو (Jean Bottéro) بأن أوروكاجينا كان أول حاكم تحدث عن النبيذ عندما تطرق في إحدى كتاباته إلى مخزن الذي قام ببنائه وكان يجلب إليه من "الجبل" آنية مليئة بالنبيذ.

وكان لزوجته ساساك Sasag، سلطة إدارة اقتصاد المعبد المكرس للآلهة بائو Ba'u، زوجة الإله نين جيرسو، في العاصمة الدينية جيرسو، وكانت تتصرف في مواردها تصرفاً كاملاً. وقد عثر علماء الآثار على 1200 لوحاً تابعة لإدارة هذا المعبد، إنّها كتابات رسمية، ووثائق.

على أن محاولات الإصلاح التي قام بها أوروكاجينا تعرض للأسف قسم منها إلى الفشل. فقد تم خلعه من العرش عام 2342 قبل الميلاد من قبل لوكالزاجيزي Lugalzagesi ، حاكم أوما الذي اجتاح لكش وتمكن من تسوية النزاع الدائم نهائياً مع هذه الدولة.

وتعرض كتابة دونها أحد سكان لكش، منقوشة على لوح من الصلصال، حيث يقول متألماً إن لوكالزاجيزي أضرم النار بتلة الحدود لهذه الدولة، وقام أيضاً بحرق معبد أنتاسورا Antasura فنهب الفضة منه. وكذلك نفّذ مجازر في معبد تيراس Tiras وفي مصليات إنليل وأوتو (إله الشمس)، عاملاً على هدم تلك المعابد.

وتروي هذه الكتابة قائلة:

"لقد تعرض حقل جيرسو بمزروعاته الممتدة إلى أبعد الحدود للدمار، (وقام رجل أوما) بشلع الشعير منه.

رجل أوما، كان قد دمّر لكش فارتكب خطيئة ضد نين – جيرسو.

أما أوروكاجينا ملك جيرسو فإنه لم يرتكب قط أية خطيئة.

لتقمْ "نيادابا Niadaba"الاهة لوكلزاجيزي بصبّ هذه الخطيئة على رأسه." 2

وابتهل أوروكاجينا بأن تصب لعنة آلهة لكش على رأس أمير أوما.

ويذكر العلماء بأن أوروكاجينا، ربما قد عثر أخيراً على ملجأ له وأنهى حياته في مدينة أكّاد Akkadé الواقعة في جنوب بلاد الرافدين.

هوامش الفصل الثالث :

1- ترجمة أرنو بويبيل (Arno Poebel)، ومذكورة من قبل أس أن كرامير (S.N. Kramer) في كتابه المعنون التاريخ يبدأ في سومر (L'histoire commence à Sumer)، نشر دار أرتو (Arthaud)، 1957، ص 86.

2- كتابة حول أوروكاجينا، انظر: جان لوي هيو (Jean-Louis HUOT)، السومريون، نشر دار أيرانس (Errance)، 1989، ص 241.

الفصل الرابع

لوكلزاجيزي (Lugalzagizi)

ملك لدويلات سومر

بعد أن انتهى من فتح لكش، تابع لوكالزاجيزي (حوالي سنة 2342 قبل الميلاد) في سير معاركه. كان هذا القائد ميالاً إلى التصور بأن الحظ لن يتركه في القتال. وحسب اعتقاده الشخصي فإن الإله القوي إنليل Enlil الذي كان يحمي المملكة، قد سمح له الاستيلاء على مدينة أور وأوروك.

ثم تمكن من جمع وإخضاع وتوحيد الدويلات السومرية الواقعة في جنوب بلاد الرافدين سياسياً واقتصادياً لأول مرة في تاريخها. وأبقى في مكانها الدويلات الأميرية المحلية التي احتلها. ولهذا منح لنفسه لقب "ملك أوروك والبلاد"، أي ملك سومر. وقد تم العثور على كتابات في نيبور Nippur المدينة الدينية والمركز الثقافي السومري، منقوشة على كسور خزف، يزيد عددها على ستين وعاء خزفياً من الكلس، مهداة إلى الإله إنليل. تروي لنا أعماله العظيمة ورغبته في أن يسود السلام في بلاده وأن تعمّ الرفاهية والسعادة في أرجائه.

تقول الكتابات:

"عندما أعطى الإله إينليل ملك جميع البلدان، إلى لوكالزاجيزي، ملوكية البلد... وعندما وضع كافة البلدان تحت خدمته (و) وأخضعها

لقانونه، الممتدة من المشرق إلى المغرب ومن البحر السفلي [الخليج]، ومن دجلة والفرات إلى البحر العالي [البحر الأبيض المتوسط]. وجعل الإله [إنليل] الطرق الآمنة له. وقضى إنليل على الرعب من المشرق إلى المغرب. وهكذا كان البلد يعيش بسلام والشعب يسقي أراضيه بسعادة، وكانت كافة دويلات سومر (و) أمراء كافة البلدان ينحنون أمام أوروك وأمام قانونها الأميري...

وقد أهدى لإلهه إنليل سيده المحبوب، هذه الكتابة: ليرتلْ إينليل ملك كافة البلدان، صلاتي هذه وليقدمها إلى آن An، والده المحبوب! وليزدْ الحياة لحياتي!

وليجعل كافة الشعوب تعيش في سلام! وليعمل على تنمية الشعب كنمو العشب! ليجعل المرابط السماوية عامرة! ولينظر بحنان إلى الشعب! وليعمل على عدم تمويه الحظ السعيد الذي أقره لي! ولأمكث إلى النهاية الراعي (و) الساقي الأول." 1

لكن إنليل والآلهة لم يسمعوا صلوات لوكالزاجيزي، لأنهم غيّروا القدر الذي كانوا قد منحوه له وأسدوا للآخرين العناية بالبلد. ثم جاء ملك سامي منتصر، سرجون ملك أكد لكي ينتصر في ساحات القتال على ملك أوروك وأوما القوي. هناك كتابة منقوشة في مدينة نيبور تروي المصير المأساوي الذي شاهده لوكالزاجيزي:

"اقتحم سرجون، ملك أكد وملك البلاد، مدينة أوروك، ودمر أسوارها وقاتل رجال أوروك وانتصر عليهم وقاتل لوكالزاجيزي ملك أوروك ووضعه في الأسر وجلبه إلى مدينة نيور، مكبلاً عنقه بطوق حديدي" 2

يا لوكالزاجيزي، دعني أترحَّمْ على سوء حظك العاثر، وعلى المصير الذي أصابك! ها أنت تصل إلى نيبور بوجه مملوء بالدم والعرق، وها أنت الآن معروض على باب "إيكور" معبد إينليل. تتغذى بطعام الهزيمة الوحيد، غذاء الإهانة والمرارة. لقد كانت ساعتك

قصيرة جداً، وها هي بسالتك تتعرض إلى نسيان، وانتصاراتك أصبحت بدون جدوى وتحطم حلمك. ها هي الدائرة تنقفل أمامك والليل يهبط ليغطي مملكتك، ولم يبق لك سوى الظل والأغبرة التي تنتظرك.

هوامش الفصل الرابع:

1- جان لوي هيو (Jean-Louis HUOT)، السومريون، نشر دار أيرانس (Errance)، 1989، ص 241-242

2- انظر: منشورات تايمس – لايف (Times-Life) سومر، أمستردام، 1993، ص 119.

الفصل الخامس

سرجون الأكّادي

قوس وخاتم بلاد أكّاد

يمكننا القول إن سرجون الأكدي الذي حكم ما بين (2335–2279 قبل الميلاد)، هو الملك الشرقي الذي يتنافس القائد المقدوني إسكندر الكبير، إنه الملك الأول في تاريخ المنتصرين العظام وذي القلب الكبير. لقد احتل، بنظر العديد من المؤرخين العالميين نفس الدرجة التي احتلها قيصر وشارلمان ونابليون، أولئك القادة الأوروبيين المشهورين الذين حكموا إمبراطويات واسعة.

نجح سرجون في إنشاء دولة وإمبراطورية وسلالة دامت لمدة بلغت مائة وثمانين عاماً متواصلاً. أورث للذين أتوا من بعده مبدأ الشدة والبأس، واستمرت أسطورته كبطل حضاري، خالدة إلى ختام حضارة بلاد الرافدين القديمة.

أصوله المتواضعة

تشير الدلائل إلى أن سرجون المنحدر من أصول متواضعة حكم لمدة خمسين عاماً. كما أن اسمه الحقيقي غير معروف، إذ إن سرجون الأكدي أو شارو – كين "الملك الشرعي" ما هو إلا كنية أطلقت عليه.

كان السومريون يعيشون منذ فترة طويلة في بلاد الرافدين، في منطقة كيش وبقية المناطق سومرية. وفي ذلك الزمن، تمكن سرجون الملك السامي الطموح والمليء بالحيوية والمهارة في التخطيط لبسط سلطته والهيمنة بالقوة على جميع الأراضي الرافدية وتوحيدها سياسياً. تمكن بفضل انتصاراته العسكرية المشهودة، أن يُنشئ أول إمبراطورية تميزت بامتلاكها طموحات كونية واسعة في التاريخ، ووضع حد للدويلات السومرية الصغيرة.

تسرد أسطورة سرجون المحررة من قبل أحد المدونين الآشوريين في القرن السابع قبل الميلاد، كيف ولد في أزوبيرانو Azupiranu "مدينة الزعفران" من كاهنة كبيرة، ونظراً لعدم تمتعها بحق إنجاب الأطفال، قامت بوضع طفلها هذا داخل سلة مصنوعة من أغصان نبات الصفصاف تاركة إياه طافياً فوق مياه نهر الفرات. فوصلت هذه السلة إلى مدينة كيش، تلك المدينة الفخمة الواقعة داخل سهل مزروع بأشجار النخيل الباسقة. ألم تذكر التقاليد الشائعة، بأن الملكية هبطت في لكش بعد قيام الطوفان. وقام بستاني بالتقاط الطفل وتكلف بتربيته. وأصبح فيما بعد الطفل المفضل للآلهة عشتار، آلهة الحب والحرب.

وتقص الكتابة:

"أنا سرجون، الملك القوي، ملك أكد. لقد حملتني أمي الكاهنة الكبيرة وجاءت بي إلى العالم في السر. أبي، أنا لا أعرفه. أخوة أبي، يعسكرون في الجبل. المدينة التي [ولدت فيها] هي "أزوبيرانو" الواقعة على ضفاف نهر الفرات.

لقد حملتني أمي، الكاهنة الكبيرة، وولدتني في العالم سراً. ووضعتني داخل سلة من القصب وأغلقت فتحتها بالقار، ورمتني في النهر بدون أن أتمكن من الخروج.

حملني النهر وأوصلني لغاية "أكي Aqqi"، غارف المياه تبناني كما لو كنت ابنه وقام بتربيتي، [وقام] بتعليمي مهنة البستاني التي كان يمارسها. وبينما كنت أعمل بستانياً، وقعت الآلهة عشتار مغرمة بي، وهكذا فقد مارست الملوكية لمدة ست [وخمسين سنة]." 1

تبين قائمة الملوك السومريين التي تمت صياغتها في بداية الألفية الثانية قبل الميلاد والتي تشمل على خمسة عشر لوحاً، بأن سرجون كان ابناً لأحد مزارعي النخيل. وأصبح فيما بعد ساق لدى أور – زابادا، ملك كيش.

وبعد أن حالفه الحظ، تمكن من الاستيلاء بمهارة على العرش حوالي سنة 2335 قبل الميلاد. فهل تم اختياره كوريث للعرش هذا، أم أنه تمرد على سيده أور – زابادا واستولى على مقاليد الحكم؟

الفاتح

نُصبت تماثيل ومسلات من قبل سرجون نفسه ومن قبل الملوك الذين أتوا بعده في معبد إنليل داخل مدينة نيبور. غير أنه لم يتم العثور على أية واحدة منها.

وتم مع ذلك العثور على قطع من مسلة مصنوعة من حجر الديوريت البركاني المنقوش على لوحة منحوتة (حالياً في متحف اللوفر) أثناء التنقيبات الجارية في نيبور في القرن التاسع عشر. وهي القطع التي تعرض علينا الملك المنتصر واقفاً تحت قبة التعظيم، وهو يضرب بحضور الآلهة عشتار أعداءه المغلوبين داخل شبكة، بينما تظهر جثث هؤلاء الذين اعترضوه متروكين طعماً للحيوانات والطيور المفترسة. كما تظهر هذه اللوحة عدداً من الأسرى مقيدي الأيادي خلف ظهورهم وهم يسيرون نحو مصيرهم المحتوم.

وتقدم لنا الكتابات المنقوشة على لوح صغير أعمال سرجون البطولية، ذلك الملك الجريء والتقي في نفس الوقت.

لقد تمكن هذا المحارب الذي اشتهر بقوة طالما قارنتها الكتابات بقوة الأسد والذي لم يعرف الرعشة في حياته أبداً ولا الشك ولا الضعف. وضع ثقته كاملة في الآلهة وفي حسن نجمه بصورة غير معهودة وتمكن من صناعة حلمه مثل حداد يصنع سيفه بنفسه. انتصر انتصاراً باهراً على "لوكالزاجيزي"، ملك أوروك القوي. وحطّ بقدميه على المدن السومرية الأخرى، مثل أور وأوما ولكش وهدم أسوارها وأخضعها جميعها. ووضع حدا لصراعاتها المستمرة. وهكذا ساد ملكه وحكمه على كامل البلاد.

منح سرجون لنفسه لقب ملك أكد وملك كيش وملك البلد بعد أن تمكن من توحيد بلاد الرافدين السفلى. إنه رجل مقدام يتمتع بقلب حديدي، لم يتردد في إدارة أعماله كوميض البرق الوهاج بانتصاراته الباهرة، ليس فقط على البلدان التي خضعت له صاغرة ولكن بشدة ضيائه الزاهي ونجومه الجديدة!

مؤسس الإمبراطورية الأولى في الشرق الأوسط

توفرت لسرجون وسائل عسكرية هامة، تمثلت في جيشه الدائم الحضور والقوي والمخلص لقائده الذي كان يتكون من عدد وصل إلى 5400 رجلاً. كانوا يتناولون وجبات طعامهم أمامه في كل يوم، كما هو مذكور في كتابة بهذا الصدد تم العثور عليها. لقد كانت القوات والدروع والأقواس والرماح والفؤوس والعواصف والأعاصير أدوات حظ رافقته في كل حروبه ضامنة له الانتصار تلو الانتصار ومانحة له ولجيشه الغنائم والمزيد من الأراضي.

ألم يرتاح بسلام قلب ملك أكد بثمار أعماله وفتوحاته؟ وهل دفعه طموحه إلى توسيع قدراته للانطلاق في فتوحات أخرى لأجزاء أخرى من مناطق الشرق الأدنى وإنجاز انتصارات أسمى من انتصاراته السابقة؟

تذكر لنا قصص وأساطير متنوعة بأنه سيطر على بلاد عيلام في الشرق وتقدم لغاية الخليج، وبأن جنوده قد غسلوا أسلحتهم بمياه البحر. كما أنها تشير إلى تقدمه باتجاه الشمال الغربي واستيلائه على مدينة ماري ثم على مدينة إبلا. وتطرقت ملحمة حملت اسم "ملك مقاتل" بأنه وصل إلى غابة الصنوبر (لبنان وأمانوس) ودخل إلى الأناضول. كما تروي قصة بطولية أخرى بأنه ربما اخترق البحر الغربي إلى أن وصل إلى جزيرة قبرص.

يلخص التاريخ البابلي هذه الانتصارات الباهرة:

"بخصوص سرجون ملك أكد و بإشراف سلطانة الآلهة عشتار، لم يظهر في زمانه أي منافس له ولا أي عدو. نشر بريقه على كافة البلدان واجتاز البحر وصولاً إلى المشرق. واجتاح في عامه الحادي عشر بلد المغرب إلى أن وصل إلى أقصى حده، فوضعه تحت سلطته الوحيدة ونصب فيه تماثيله وقام بتوصيل الغنائم على القوارب." 2

وهكذا نشأت الإمبراطورية الأكّادية، في قلب سهول بلاد الرافدين وانطلقت عبر التلال والهضاب. وهنا يخطر سؤال، ما هي الإمبراطورية؟ كان هذا المصطلح غير معروف لدى سكان بلاد الرافدين القديم؟ هل يدل على مجموعة من الممالك المغلوبة والأراضي المأهولة بأقوام متنوعة وخاضعة لسلطة الملك، أو يدل على دولة واسعة تُدار من عاصمة معينة؟ إن المصطلح يدل على مرحلة من مراحل التنظيم السياسي للبشرية.

قام سرجون، ملك كيش وملك "العموم"، أي ملك الأرض بأكملها، وفقا للكتابات التي ذكرته، بإدارة وقيادة إمبراطوريته بحنكة سياسية

حقيقية. فنصيب حكام أكديين مدنيين وعسكريين في المقاطعات التابعة لإمبراطوريته، وقام أيضاً بتعيين بعض القادة المحليين لإدارة مناطقهم وثبّتهم في السلطة وجعل منهم موظفين مـألوفين. وتمكـن مـن إضـعاف القوة الاقتصادية للمعابد وتأثيرها على السلطة. وقام أيضاً بإعداد رؤية خاصة وجديدة للعالم، حيـث يـتم الاعتمـاد علـى البنـى الاجتماعيـة والعسكرية والدينيـة. وهكـذا حسـب اعتقـاده، كللتـه الآلهـة بالمجـد وسطع بريق أيامه.

أكّاد، العاصمة الجديدة

تشير الدلائل المذكورة في *"قائمة الملوك السومريين"*، بـأن سـرجون ربما كان قد أسس عاصمته الجديدة "أكّاد" في مكان ما، بمنطقة بابـل وكيش وسيبا، وصممها على أن تكون مدينة خالدة مثل الماء والسـماء. شيد فيها القصور والمعابد، وكرّس ومنح معبـدها الكـبير هديـة للإلهـة عشتار، التي سهّلت وصوله إلى السلطة.

هناك قصيدة سومرية طويلة تم تحريرها في بلاد سـومر، وبـلا شـك في مدينة نيبور، في نهاية الألفيـة الثالثـة قبـل المـيلاد، وهـي قصـيدة *"لعنـة أكـد"*، تقـدم لنـا وصـفاً باهجـاً لمدينـة أكّـاد الغنيـة والحافلـة بالرفاهية والمحاطة بسـور كـبير، ويتـيح للمـرء التجـول في شوارعهـا المحاطة بالمنازل الفخمة والموسرة.

تروي القصيدة:

"في ذلك الزمن، كانت منازل أكد مليئة بالذهب وبيوتهـا السـاطعة مليئة بالفضة، وكان النحاس والقصدير وقطع اللازورد مكدساً بكميات كبيرة في مستودعاتها مثلها مثل الحبوب التي كانـت مخـازن الغـلال تفيض بها في كافة المنـاطق. وكانـت النسـاء المعمـرات يمـتلكن موهبـة تقديم النصائح للآخرين بينما كان الرجال الكبار يبرعون في الفصاحة.

وكان الشباب يبدعون في استعمال الأسلحة والأطفال يمرحون بقلوبهم السعيدة... لقد كانت أغاني المرح تشدوا في أرجاء المدينة، يرافقها العزف على القيثارة وأصوات الناي تصدح خارج المدينة مع الأغاني المصاحبة لها." 3

كانت المدينة ثرية بمعابدها وزقوراتها وقصورها المشيدة بالقرميد، ترسم لها صورة أصيلة في الميناء. تدخل السفن محملة بالمنتوجات الغريبة والثمينة مثل الذهب والنحاس والحجر البلوري واللازورد والعقيق الأحمر واللؤلؤ والعاج والخشب والتمر، الواردة من ميلوخا Melukhkha (من إيران أو وادي الهندوس) ومن ماكان (عمان) ودلمون (البحرين،) وهي ترسو بسعادة على أرصفة نهر دجلة، ناشرة عيداً من الألوان والعطور والأصوات والأضواء أمام عيون المتجولين المنبهرة.

كان سرجون الأكدي، يدير بلاطاً ساطعاً وكانت التجارة نشيطة في إمبراطوريته، ونمت الفنون في ربوعها الواسعة لتمجيد ملكها القوي.

الكاهنة الكبيرة، إين هودو أنا En-hedu-ana

أعلن سرجون نفسه "نائباً عن آنو"، إله السماء السومري وجعل من "إنانا ـ عشتار" آلهة عظمى لمدينته أكّاد، ومنح أيضاً التكريم والإجلال للإله القوي إنليل في مدينة نيبور. استغل سرجون عادة تقليدية كانت متداولة في العصر السابق له، بتعيين ابنته المولودة من زوجته تاشلولتوم، كاهنه كبرى لإله القمر السومري "نانا" في مدينة أور، بغية استمالة بركات الآلهة له والتحكم الكامل على السكان الجنوبيين. كان هذا التقليد متبعاً لمدة طويلة في تلك المنطقة. وقد اتخذت هذه الفتاة الشابة عندئذ اسماً سومرياً "إن – هودو ـ أنا" وعاشت حياة عفيفة داخل محيط المعبد وأنجزت بحماس مهمتها الممنوحة لها.

وكان اسم "إنانا ـ عشتار" ملكة السماء يسطع بين شفتيها وكرست لها ترتيلة جميلة، وألّفت أناشيد للمعابد وللأماكن المقدسة في سومر وكتبت قصائد أهدتها لها باللغة السومرية.

يمكننا أن نرى صورة "إن – هودو ـ أنا" منقوشة على قرص نذري معمول من حجر الكلس، لقد تم العثور عليه في مدينة أور وهي ترتدي ثوباً منمقاً وتشارك في احتفال لتقديم النذور إلى الإله نانا. ويمكن من قراءة كتابة منقوشة في ظهر القرص نفسه هذا (الموجود اليوم في متحف فيلاديفيا)، تذكر الألقاب الممنوحة لها: الكاهنة الكبيرة، زوجة الإله نانا وابنة سرجون.

سرجون، البطل المؤسس

كان من الصعب جداً حكم وإدارة إمبراطورية واسعة مثل إمبراطورية سرجون. وقد أبدت المدن السومرية رغبتها في الهيمنة على مصيرها وأظهرت نوعاً من عدم تحمل الخضوع إلى سيطرة أكد عليها. وحينما بلغ سرجون عمر الشيخوخة، واجه تمرداً نشب ضده.

يذكر *تاريخ الملوك القدماء*:

"من الشرق وحتى الغرب، نشب تمرد ضده وكبده ذلك الإرهاق "4

تعرض سرجون إلى حصار في عاصمته، لكنه نجح في القضاء على التمرد، وبذلك بلغ غاياته القصوى الباهرة. لقد أدت ثروته الجلية وأعماله البارزة وانتصاراته وتاريخه الملحمي، إلى أن يدخل إلى عالم الأساطير والروايات التي غمرته من كل جانب. وهكذا أصبح بطلاً ومؤسساً مثل جلجامش. وصار ختماً وقوساً ورمحاً وعلامة مشهودة لدولة أكد.

نُصبتْ تماثيل للملك سرجون بعد فترة طويلة من وفاته، في قصور بلاد ماري Mari وفي معابد بابل التي طالما حظيت بالإكرام.

وورث من بعده ابنه ريموش (2278–2270 قبل الميلاد) إمبراطورية زاهية ولكنه اضطر إلى مواجهة تمرد بعض من المدن التابعة لإمبراطوريته الواسعة مثل أور ولكش وأوما فقام بقمعها بقسوة. واستمر باقتفاء سياسة والده، لكنه تعرض للاغتيال من قبل خدمه، كما يروي ذلك نصّ تاريخي. إذ يظهر هذا الملك في مسلة معمولة من الآجر تعرضت كتابتها إلى التلف جزئياً وهو يخوض القتال طارحاً أحد أعدائه على الأرض وواضعاً قدمه على بدنه.

ثم حكم بعده أخوه، مانيشتوسو (2269–2255 قبل الميلاد)، الذي أخذ كناية "ملك كيش، ملك العالم"، وقام بحملة في الجنوب الشرقي من إيران. ويظهر هذا الملك في تماثيل معمولة بالحجم الطبيعي ومصنوعة من الحجر البلوري البركاني، وهو جالس أو واقف، مرتدياً ثوباً طويلاً منسوجاً ومزيناً بالأهداب **وبخال** صوفي. ويروي نصب رائع مصنوع من الصخر البركاني البلوري، هرمي الشكل ومغطى بكتابات رشيقة، عمليات شراء الأراضي من قبل هذا الملك في منطقة كيش، وكان يقوم بتوزيعها فيما بعد على موظفيه ذوي الرتب العالية (النصب في متحف اللوفر).

تبنى واستعمل الأكاديون الكتابة المسمارية التي أبدعها السومريون، لكن أصبحت لغتهم الأكادية، وهي إحدى اللغات السامية، اللغة الرسمية للإمبراطورية الأكّادية وبدأت بالهيمنة على مختلف المناطق. لقد استمرت هذه اللغة بنشر إشعاعاتها ما يقارب ثلاثة آلاف سنة، قدمت نصوصاً أدبية هامة، لا بد وأن تفتخر بها حضارة بلاد الرافدين.

هوامش الفصل الخامس:

1- ترجمة أر لابات (R. Labat)، أديان الشرق الأوسط الآسيوي (Les religions du Proche-Orient asiatique)، نشر دار فايارد/نويل (Fayard/Noël)، باريس 1970

2- تاريخ الملوك القدماء (La Chronique des rois anciens) في تواريخ بلاد الرافدين، جي غلاسنير (J. Glassner)، باريس، الآداب الجميلة، 1993، ص 219.

3- لعنة أكد

4- انظر: المصدر السابق أعلاه، تاريخ الملوك القدماء (La Chronique des rois anciens) في تواريخ بلاد الرافدين

الفصل السادس

نارام – سين (NARAM-SIN) الباهر

عشتُ فترة من الزمن في بغداد. ذهبتُ في يوم من الأيام إلى متحف الآثار القديمة، فدخلت في متاهة السنين الماضية والغنية لبلاد الرافدين، ولم أجد نفسي إلا وأنا واقف في إحدى القاعات أمام تمثال لرأس جميل مصنوع من البرونز وبالحجم الطبيعي. كان الأمر يتعلق بدون شك بتمثال هامة نارام – سين (2254–2218 قبل الميلاد)، ابن مانيشوتسو وحفيد سرجون. كان تمثال الهامة البرونزي مصنوعاً بطريقة فنية ومزركشاً، وكانت تبرز جلياً رقة وواقعية في تصميميه وإعداده. لكن للأسف الشديد هناك أعداء، عملوا في السابق على كسر جزء من هذا العمل الفني الجميل الذي تم العثور عليه في مدينة نينوى، إذ قاموا بكسر أنفه المعقوف وقطعوا أذنيه. وبقي محجرا العنين الواسعتين، المكسوتان في السابق بالأحجار الكريمة، تراقبان المعارك، فارغتين وعجيبتين. بدا لي هذا العمل البرونزي الذي حافظ على آثار التأكسد والذي لا تزال روح ذلك الملك القوي عالقة به، وكأنه يعبر عن سلطته الأكيدة وهيمنته التي طالما تأججت شعلتها في سابق الأزمنة الماضية.

كان وجه الملك ذي الملامح الذكية والنبيلة والصافية محاطاً بخصلات شعره المضفورة والمعقودة على عنقه على شكل جديلة

وبعصبة مسترسلة على جبينه وهو يلتحي بلحيته الطويلة والمجعدة. لابد وأن يكون هذا الوجه الجميل قد خضع في السابق إلى رسم دقيق وتصميم نموذجي ليبقى دوماً خالد المظهر وليحيا في نوع من الديمومة الفاتنة، إذ تفنن في صنعه حرفي أكادي ماهر. وهكذا تمكن هذا التمثال من أسر قلبي بجماله الأخاذ ولم يغادر مخيلتي أبداً.

وبحنين راقبت ضوء مادة صنعه وسألت نفسي عن الوجه الحقيقي للملك نارام – سين.

يا ملك أكّاد، ما هي الأفكار والرغبات، والمشاعر الملتهبة والأحلام الواسعة والظريفة التي وشحت عينيك، يا أيها الملك الصامت؟ ما ابتسامة الدعابة التي كانت تنزلق على شفتيك المعقوفتين قليلاً؟ ماذا حل بأولادك وزوجاتك وسفنك ومدنك التي كانت تنطلق منها المعارك ضد ملك بلاد "ماكان"؟ هل حدثت كل هذه الوقائع منذ زمن بعيد جداً؟

تملكتني رغبة لاكتشاف دقات قلب هذا الملك الكبير الذي برز تاريخه ونضج ذكره مثل فاكهة جميلة ودام على مرّ الزمن مضيئاً بأقمار حياته.

الفتوحات

قام نارام – سين المحارب الشجاع المجهز برمحه المنيع والمخطط العنيد، واثقاً بأن الآلهة اختارته وتقدم له الحماية. وبفضل عبقريته العسكرية، شن الحروب دون توقف للدفاع عن إمبراطوريته ولتوسيع حدودها. وقام بحملات متجهاً نحو الشمال الغربي، وادّعى بأنه تمكن من تدمير مدينة إبلا في سوريا. وسار باتجاه قيليقية، فوصل إلى بلاد الأناضول لغاية بلوغ منطقة ديار بكر الحالية. وسيطر على بلاد آشور ونوزي (في كردستان العراق) وشوش عاصمة عيلام وماكان (جزيرة عمان). و"ذهب إلى الأماكن التي لم يتمكن أي ملك آخر من الذهاب إليها قبله."

سجل أحد كتاب عصره فيما بعد مآثر هذا القائد قائلاً:

"فتح نيركال (إله العالم السفلي) الطريق أمام نارام – سين القوي ومنحه أرمانوم وإبلا. وقدم له أيضاً أمانوس، جبل الصنوبر (لبنان) والبحر العالي (البحر الأبيض المتوسط)." [1]

وقبل فترة، تم اكتشاف أطلال تعود إلى قلعة هامة كان الملك نارام ـ سين قد شيدها في منطقة ناكار (تل براك)، الواقعة في الشمال الشرقي من سوريا.

وهناك مسلة مصقولة داخل صخرة في مضيق داربند أيكوار الواقع على مسافة 45 كيلومتراً جنوب مدينة السليمانية، تروي انتصار الملك نارام – سين. كما تروي انتصاراته، قطعة معمولة من حجر البازلت عُثِر عليها في كردستان العراق وتعود إلى مسلة أخرى.

ولكن المسلة الأكثر شهرة، هي تلك المعمولة من الصلصال الرملي والتي كانت منصوبة في سيبار وجلبها فيما بعد إلى منطقة شوش ملك عيلامي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وهي محفوظة اليوم في متحف اللوفر في باريس. تحتفي هذه المسلة بانتصار الملك نارام – سين على اللولوبيين القادمين من زاغروس في الشرق من نهر دجلة.

وهي تظهر الملك يسير في يوم مشرق من أيام أكد نحو قمة جبل تحيطه الأشجار، وتبدو علامات الانتصار مرتسمة على قسمات وجهه، وتبرز عيناه مزخرفة من الجانب. إنه يرتدي وزرة ويحتذي نعلين في قدميه ومسلحاً بقوس وبفأس وحربة. كما تعرض هذه المسلة ملكاً مليئاً بالجرأة والحماسة تلوح عليه سيماء رجل أكبر من أيام تاريخه وهو يستعرض بدنه الضخم وقواته (ممثلة بتسعة جنود) يواجهون جيش العدو (الممثل بتسعة جنود أيضاً) وهم يتقهقرون بسرعة كبيرة أمام تقدم قواته الزاحفة، وهم يرفعون أعينهم نحوه.

ويظهر هذا الملك المجيد مرتدياً قلنسوته المجهزة بقرون بارزة، التي ترمز إلى الخصال الإلهية، وهو يتسلق بخفة عالية قمة الجبل

حيث النجوم المضيئة ترمز إلى الآلهة، متوجهاً نحو قمة بهاء عصره. كان يعيش يوماً مليئاً بالنشوة وطويلاً كسنة كاملة وها هو يتلذذ بنصره. لقد خلّد ارتقاءه في ذاكرة الرجال.

التمرد العام

تتطرق بعض الكتابات المنقوشة على البرونز إلى إنجازات نارام – سين في مدينته أكّاد إضافة إلى تسعة انتصارات حاز عليها هذا الملك الاستراتيجي الماهر خلال سنة واحدة: "عندما تمردت أربعة مناطق سوية ضدي..."، وهي المناطق العائدة للجهات الأربعة الرئيسة.

أجل، لقد نشب تمرد كبير، ضد نارام – سين، بتاريخ غير محدد تماماً، كما تذكر لنا ذلك رواية متأخرة تعود إلى العصر البابلي القديم (2004–1595 قبل الميلاد)، وتروي بأنه تمردت مقاطعة سوريا وعيلام ضد حكمه.

وفي تلك الأزمنة، قام الملك بإخضاع مدن سيبار وكيش في الشمال ونيبور وإيزين وأوما ولكش وأوروك وأور في جنوب البلاد المتمردة بالقوة ونشر السلام فيها... وحاز عندئذ على نصر ساطع بأسرع وقت ممكن. كما أنه تمكن فيما بعد من القضاء على ثورات أخرى نشبت ضده في سوريا والأناضول.

الإصلاحات

باشر نيرام – سين الذي كانت تمتلكه رغبة في تحقيق طموحات كبيرة، بإصلاح الإمبراطورية الأكّادية، دينياً وسياسياً واقتصادياً. وجعل من "المدن ـ الدولة" مقاطعات خاضعة للمركز، كما أنه اهتمّ بالزراعة اهتماماً خاصاً.

وبالرغم من منحه الأولوية إلى الإله إنليل، فإنه فضل بصورة خاصة في مدينة أكّاد عبادة الآلهة إنانا/عشتار. وقام الملك العمران، بإعادة تشييد معابد في مختلف المدن، منها أكد وسيبار، وأور حيث عين ابنته إنميناننا، كاهنة عظمى لنانا. وقام بأبهة إعادة تشييد في العاصمة الدينية نيبور معبد الإله إنليل المعظم، وعمل على توسيعه.

وكان مفهومه للملكية يختلف عن المفهوم السائد لدى أسلافه، فقد تغلب النظام الملكي على كافة الأنظمة الأخرى في عصره. لقد اتّخذ نارام – سين ملك أكد وكيش مثل سرجون الأكّادي الذي كان يدعي بأنه يتطلع إلى الحصول على الملكية الكونية، اتّخذ لنفسه لقب "ملك المناطق الأربعة (في العالم)"، لأن عاصمته أكّاد في بلاد الرافدين كانت مركز العالم بالنسبة له ولمعاصريه. وكان سكان هذه المدينة يتضرعون إلى الآلهة لكي تعترف بالخصائل الإلهية للملك نارام – سين، حامي النظام الكوني الذي اهتم بحماية المدينة وعمل على تخليصها من الخطر. قام الملك بوضع عبارة خاصة ومميزة قبل اسمه، وهي العبارة التي تميز الآلهة ولقب الآلهة (*إيلوم* باللغة الأكّادية). وارتدى القلنسوة ذات القرون البارزة التي كانت ترمز إلى الآلهة، كما يظهر ذلك في مسلة سيبار التي تم نصبها احتفاء بانتصاره على اللولوبيين، ولكنه بقي رجلاً حقيقياً وسامياً مقارنة بالآخرين. لقد تملكته الرغبة في عرض سلطته المطلقة.

كما قام نارام ـ سين أيضاً بإصلاح الكتابة المسمارية المعقدة وبسّطها وجعلها خطوطاً أكثر أناقة في الأعمال الإدارية. وباشر بإصلاح إملاء اللغة الأكّادية التي كانت مستعملة في الوثائق الرسمية والتي انتشرت فيما بعد في كافة بلدان الشرق الأوسط والأدنى كلغة للقانون والتاريخ والمعاملات. وازدهرت في عهده الثقافة والفنون الجميلة، ويشهد على ذلك الرأس البرونزي المشهور والموجود في متحف بغداد.

بلغت الإمبراطورية الأكّادية تحت رئاسة الملك نارام – سين، أوج عظمتها وامتدت لتشمل أراضٍ واسعة، وهو الامتداد الذي سبب صعوبات للملك. دافع سياسياً وعسكرياً عن حدوده وصد هجمات البرابرة الذين كانوا يتقدمون نحو سهول بلاد الرافدين بين فترة وأخرى لشن الحروب ضدها.

لعنة أكد

كيف كانت السنوات الأخيرة من الحكم الطويل للملك نارام – سين، ذاك الملك القوي والمنتصر؟ تنقصنا معرفة الأحداث لتلك الفترة؟

أصبح نارام – سين بعد وفاته، بطل القصص والروايات المتنوعة. وقد حاز على التمجيد لمدة طويلة مثل الملك سرجون، بل إن الأمر وصل إلى أن يكون موضع عبادة في المعبد، لينال حظوة إله معبود ومعصوم من الأخطاء!

وكان آخر حكام الدولة الآشورية الجديدة (721-612 قبل الميلاد) يعتبرون أنفسهم مكملين وعلى خطى الملكين الأسطوريين سرجون الأكّادى ونارام – سين الذين اختاروهما كمثال لهم واحتذوا بسيرتهما.

وبالإمكان تقديم رؤية أخرى، لا تصب في مصلحة الملك وفق الظروف السياسية والفكرية للفترة التاريخية التي حكم فيها. لقد تعرض الملك نارام – سين إلى الانتقاد بالرغم من انتصاراته الواسعة، واتُّهم بتخليه عن التقاليد المتداولة وعمل على إثارة غضب الآلهة والتسبب في نشوب أعمال التمرد والغزو، الناتجة عن تكبره وعدم خضوعه لإرادة الآلهة وتجاوزه على حدودها، مما أدى إلى سقوط أكد.

تروي قصيدة سومرية طويلة مؤثرة، نُسخت مرات عديدة، وهي قصيدة لعنة أكّاد (من المحتمل أنها كُتبت في نهاية الألفية الثالثة

ق.م.) كيف ارتكب نارام – سين خطأ وأهمل تقديم عبادة كافية للإله الكبير انليل وتخلي عن منح الأولوية المطلوب له. ولعله كان قد حاد عن الطاعة المفروضة تجاه الآلهة التي تعتمد عليها رفاهية المملكة حسب اعتقادهم.

وربما كان الملك قد سمح في مدينة نيبور لجنوده بنهب "إنكور"، معبد إنليل الذي كان قد قام بترميمه، وتحطيم أخشابه المقدسة وجلب الغنيمة إلى أكّاد. لذلك فإن الإله إنليل الذي تعرض إلى الإهانة، أرسل إلى بلاده من جبال زاغروس الغوطيين، ذاك الشعب البربي. وتصفهم كتابة قديمة "بأن هذا الشعب لا مكان له بين الشعوب المتحضرة، لأنه لا يتقبل أية سلطة عليه". وهكذا رمت الآلهة الغاضبة لعنة رهيبة على نارام – سين متهمة إياه بانتهاك المقدسات وعلى من بعده وعلى عاصمة أكد التي تعرضت إلى الإهمال:

"إيه يا أكد، ليعد صلصالك إلى الأبزو (منطقة المياه الأولية)... ولترجع حبتك إلى مكانها. لينهار القصر المشيد في أجواء الفرح وليحدث ذلك وسط القلق. وليُظهر الأشرار أصداء عويلهم في الهضبة القاحلة... لتلتقي العربات السائرة على الطريق بعشب النحيب ..."[2]

وبناء على هذه القصيدة، يبدو أن أكّاد قد تعرضت إلى هجمات شنتها عليها الأقوام الغوطية حيث هدمت أسوارها وحطمت قصرها. وتختتم القصيدة أبياتها الحزينة بكلمات ملؤها الأسى: "لقد تهدمت أكّاد، وحمداً للآلهه إنانا!"

لم تتوفر لنا أية دلائل تُسند عليها هذه القصة التي تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، ولم تظهر التنقيبات المنجزة في إيكور أو في نيبور أية علامة تشير إلى أن تدمير مدينة أكّاد يعود إلى فترة حكم نارام – سين.

ظهر نص آخر، يقص مسؤولية نارام – سين، ويروي لنا بعض الأحداث المأساوية التي حدثت خلال مدة حكمه. وقد تم تحرير هذا النص من قبل مدّون كتبه على مسلة طلب الملك بنصبها فيما بعد داخل معبد الإله نركال في منطقة كوتا أو كوتو (تل إبراهيم الواقع في الشمال من بابل)، في حالة غزو البلد من قبل البرابرة. هذا النص الجميل معروف على شكل نسخة تعود إلى الفترة الآشورية الحديثة، موضوعة في مكتبة آشور بانيبال في نينوى. ولقد تم إعادة تشكيلها وترميمها استناداً على بعض قطع متبقية من مسلة أكثر قدماً. وتبين لنا كاتب الملك واثقاً جداً من نفسه وثقته عالية بحريته، وهو يتحدى الآلهة في غمرة قوته.

وتتحدث هكذا:

"وهكذا قلت لنفسي: "يا ترى أي أسد استشار جواب الآلهة؟ وأي ذئب استجوب [بتاتا] العرافة؟ أريد أن أذهب مثل ناهب، كما تملي عليّ رغبتي وأتحدى الإله (؟) وسأضع مصيري في يدي." 3

وكان الاعتقاد بأن التقصير في طاعة إرادة الإله لابد وأن يؤدي إلى العقاب وإلى بؤس شديد ينتاب الملك وشعبه: كالتمرد والغزوات والجوع والرائحة النتنة والموت. ذلك هو ما يحدث في مثل هذه الحالة.

يتطرق نارام – سين إلى حملاته الثلاث الأولى التي شنها ضد الغزاة، اللولوبيين (القادمين من منطقة زاغروس) وخاصة ضد الغوطيين. وقد أدت هذه الحملات الرهيبة إلى فقدان حياة الألوف من جنوده. حشد الملك في السنة الأولى عدداً بلغ 12000 جندياً، ولم يعد منهم جندي واحد حي، كما أنه عبأ 50000 جندياً في السنة الثانية وكذلك 60700 في السنة الثالثة. ومع ذلك بقي النصر بعيداً. ها هو الملك اليائس يعترف بعجزه ويقول:

"أصابني عندئذ يأس كبير، وبؤس وحزن،
كنت أتألم وأتأوه وأتحدث مع نفسي:
ماذا سأترك لوريث عرشي،
أنا، الملك الذي لم يتمكن من إنقاذ بلده،
وأنا، الراعي الذي لم يتمكن من إنقاذ شعبه؟" 4

قدّم نارام – سين وهو حزين، قرابين إلى "إيا"، إله المياه العذبة والحكمة. وشن عندئذ بشجاعة بطولية حملته الرابعة لإنقاذ بلده من البرابرة:

"بدأت الفؤوس تسيل بالدم...
هرب من بينهم (الأعداء) اثنا عشر مقاتلاً، للتخلص مني،
وانطلقت بسرعة لملاحقتهم،
هؤلاء المقاتلين، تمكنت من القبض عليهم،
هؤلاء المقاتلين، أخذتهم أسرى." 5

أخيراً، أنقذت الآلهة الملك بفضل تدخلها، فصد أعداءه وأخضعهم لإرادته. هل كان عليه أن يحكم بالموت عليهم؟ استشار الملك عندئذ رأي وسيط الإله، فجاوبه بأن يترك الأمر للآلهة لكي تعاقب الأسرى، وأطاع ما قال له.

أخذ نارام – سين، الغني بتجربته الطويلة، الدروس لكي يتفادى ورثته الملوك والحكام في المستقبل أن يرتكبوا نفس الأخطاء التي ارتكبها هو في الماضي. وقدم لهم نصائحه بنبرة تقية ومتواضعة ورشيدة. يدعوهم لكي يعيشوا الحاضر ويستفيدوا من الحياة ويبحثوا عن السلام:

"أنت، مهما كنت حاكماً أو أميراً أو أي كائن ما،
أنت الذي اختارك الإله للممارسة الملكية،
قمت لأجلك بصنع لوح من العاج، وكتبت هذه المسلة (...)
استشر هذه المسلة، أو ليقرأ عليك قارئ ما تقول هذه المسلة (...)
إذا أردت أن تكون أساساتك ثابتة،

وأن تمارس الحب في أحضان زوجتك،
ضع ثقتك في أسوارك،
واملاء خندقك بالماء،
وأدخل صناديقك وحبوبك وفضتك وأثاثك،
داخل مدينتك المحصنة،
احزم الأسلحة ولا تتركها في الملجأ،
احتفظ ببسالتك وأمّن سلامك الشخصي (...)،
ليقم المدونون العلماء بتحرير مسلتك الشخصية،
أنت الذي عرفت مسلتي، تقدر أن تنقذ نفسك،
أنت الذي باركتني، ليباركك شخص آخر من بعدك،
بدوره هو أيضاً! "[6]

ينصح نارام سين في وصيته هذه كل حاكم عندما ينوي العدو غزو بلده، ويوصيه بألا يغامر وألا يقترب منه وأن يكون صبوراً على استفزازاته. ويوصيه أيضاً بالحيطة والتواضع والرفق كجواب على الإهانات الصادرة من العدو، وأن يرسل له الهدايا كعلامة للدلالة على التحاور. يعني ممارسة الطف واللاعنف.

يبدو أن نارام – سين، ووفقاً لهذا النص الملحمي، قد اكتسب حكمة كبيرة في نهاية حياته، وكان يدير إمبراطورية واسعة لكنها هشة أيضاً.

غسق إمبراطورية أكد

حكم ملك أكّاد ابن نارام – سين، "شار – كالي – شاري" (2217–2193 قبل الميلاد)، الإمبراطورية فترة طويلة. واستمر بتجديد "إينكور"، معبد إنليل في نيبور تجديداً فاخراً، كافح ضد المتمردين وقاوم محاولات اختراق الحدود الإمبراطورية من قبل الشعوب

البربرية، اخترق من الشرق العيلاميون والغوطيون حدود البلاد ومن الغرب العموريون أيضاً. وخلفه في الحكم أكثر من أربعة حاكم.

ثم أخذت الشمس تتجه إلى غسقها، ونشبت الإضطرابات في الإمبراطورية... وانتشرت الفوضى في أركانها. وأخذت فيما بعد، *قائمة الملوك السومريين* تسأل: "من يا ترى كان ملكاً؟ ومن لم يكن ملكاً؟"

انتهى الأمر بالإمبراطورية التي هددتها الإضطرابات، بأن تتهاوى وتسقط (حوالي سنة 2155 قبل الميلاد). فهل اجتاح الغوطيون الذين جذبتهم ثروات هذا البلد الغني؟ أو استولى "أورنيجين"، ملك أوروك على أكاد العاصمة؟ وفق ما أظهرته بعض الاكتشافات الأثرية الحديثة، ربما حدث جفاف كبير في المنطقة وأدى إلى إضعافها.

"لم تعد الحقول الكبرى توفر الحبوب"، و"لم تعد الغيوم الكثيفة تمنح المطر."

تشير أكثر الدلائل الأثرية، بأن إمبراطورية أكد قد تعرضت للانهيار بعد اجتياحها من قبل الغزاة، ولكن رغم ذلك، فإن الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى سقوطها بقيت سراً مجهولاً.

لم تزلْ عاصمة أكّاد في ضباب التاريخ. فقد نهضت وترأسها حاكم تولى السلطة فيها في عصر دولة أور الثالثة (2112-2004 قبل الميلاد). وتم التأكيد على وجود المدينة تحت حكم حمورابي البابلي (1792-1750 قبل الميلاد) وفي زمن حكام الكيشيين، لكنها تعرضت للنهب والسلب على يد العيلاميين في القرن الثاني عشر.

واليوم، لم يُحدَّد موقع مدينة أكّاد تحديداً دقيقاً. للأسف، إنّ التنقيبات الأثرية لم تستمر في أعمالها لكي يتم الحصول على تحديد المكان. ورغم ذلك يبقى لنا الأمل بأن يتم اكتشافها في المستقبل والتعرف على آثارها ومعلمها.

كان قدماء بلاد الرافدين يعتقدون بأنّ كل شيء يعود دورياً إلى نقطته الأولى، كدوران السماوات والأعياد والفصول والمدن، ربما قد تستعيد أكاد يوماً ما مكانتها في الأفق الواسع، بقصورها ذات الألوان الشمسية وبمعابدها الزاهية ضوءاً! ليت صوت موسيقى تاريخها لا يصمت! ولْتغنِّ القيثارات والناي من جديد مجدَها، خلف أسوارها الأسطورية!

هوامش الفصل السادس:

1- انظر: كي راشيه (Guy Racher)، حضارات الشرق القديم (Civilisations de l'Orient ancien)، لاروس (Larousse)، 1999، ص 292

2- انظر: بروشويلير(F.Bruschweiler)، المدينة في النصوص الأدبية السومرية (La ville dans les textes littéraires sumériens)، بيتيرس (Peeters)، ص 194

3- ترجمة لابات (R.Labat) أديان الشرق الأدنى الآسيوي (Les religions du Proche-Orient asiatique)، دار فايارد ودينويل، باريس 1970

4- انظر: عامر حمداني (.Amar Hamandi)، سومر، الحضارة الأولى الكبرى (Sumer, la première grande civilisation) ، نشر فارمو (Farmot) 1977، ص 204

5- نفس المصدر السابق، ص 204-205

6- نفس المصدر السابق، ص 205-206

الفصل السابع

كوديا (Gudea)، حاكم لكش

مآثره وإنجازاته

كانت جيرسو عاصمة دولة لكش منذ الزمن السابق مدينة كبيرة، وتقع جنوب بلاد سومر، تحمل اليوم اسم "تلو"، إنّها المدينة الصحراوية والرملية بأراضيها المكتوية بإشعاعات الشمس اللاهبة.

أمام موقع هذه المدينة الحالي والمؤسف، حاولت مخيلتي الجانحة كما لو كنت عالم آثار، أن تعمل على إبراز "صور رقمية عريقة" من ذاك الماضي على شاشة عقلي، لكي تعرض لي المعابد والقصور والأحياء السكنية ذات الشوارع الضيقة، لكن دون جدوى.

عندما سقطت سلالة سرجون وحفيده نارام ـ سين الأكّادية، استعادت دولة لكش جزءاً من استقلالها المفقود. وكانت قد هيمنت لفترة طويلة على جنوب سومر بفضل الملكين إناتوم وأوروكاجينا، على الرغم من هجمات الغوطيين في بلاد الرافدين.

حكم كوديا (الأمير) دولة لكش، ما بين 2141–2122 قبل الميلاد وجاء خلفاً لوالد زوجته "أور ـ باو". فحكم كوديا لمدة 17 أو 18 سنة.

ادّعى كوديا الرجل التقي والذكي والعالم والحكيم، الذي أعار اهتماماً خاصاً لآيات الآلهة، وقال إنه ابن الآلهة "كاتومدوك". ولم

يتطرق هذا الملك في كتاباته العديدة التي تركها إلا إلى القليل من الأحداث الدبلوماسية والاجتماعية والعسكرية، كما لو كانت دولة لكش معزولة في وسط بلاد سومر ومكتفية اكتفاء ذاتياً. رغم ذلك أظهر قوته بشنّ حملة مُظفّرة ضد العيلاميين.

الملك البناء

عرفت دولة لكش تحت حكم كوديا، "الراعي الصالح"، فترة سلام ورخاء وعصر رفاهية وثقافة واسعة. لقد أظهر بأنه كان رجلاً إدارياً بارزاً.

كان كوديا مغرماً بالإنجازات المعمارية، واتته فرص كي يكرس نفسه للقيام بها. أعاد بناء الهياكل وأماكن العبادة في دولته وحرص أن تُحسِن القيام بمهمتها. واستمر، عندما توفي والد زوجته أور — باو، في رفع عاصمته جيرسو من أنقاضها بمحبة كبيرة. كانت قد تعرضت للسلب والنهب، كبقية بلاد لكش على يد لوغالزاجيزي ملك أوروك وأوما، قبل قرنين من وصوله إلى سدّة الحكم وأعاد لها رونقها المفقود.

يتوفر لنا اليوم نوعان من الأناشيد الطويلة المدونة على إسطوانات من الصلصال، يبلغ ارتفاعها حوالي ستين سنتيمتراً، إنّها محفوظة في متحف اللوفر. وتتطرق بطريقة شعرية هذه الإسطوانات التي تمثل من أروع مؤلفات الأدب السومري، إلى إعادة ترميم جزء من معبد "نين — جيرسو" والاحتفال بيوم تدشينه. وكان قد باشر أور – باو بإعادة تشييده في نهاية حكمه.

تذكر تلك الأناشيد والروايات أن "نين جيرسو" إله المدينة والوصي عليها والمحاط بالأسود النائمة، قد أوحى إلى الملك كوديا أثناء حلمه، ببناء مشروع معبد الذي حمل اسم "إي– نينو"، أو المنزل الذي يمتلك خمسين طيراً أو رموزاً للقدرة الإلهية. كان هذا المجمّع الكبير

المقدس يغطي ببريق إشعاعاته مناطق واسعة، ويمنح لدولة للكش الرخاء والوفرة. وباشر كوديا الذي سخّر نفسه لهذه المهمة الكبرى، بإنجاز عمله. فجمّع العمال وأشرف بنفسه على البناء وجلب من لبنان والبلدان البعيدة مثل "كيماش" و"ماكان" (عمان الحالية) و"ميلوخا" (وادي الهندوس) المواد الثمينة الضرورية للقيام بالبناء. ويروي قائلاً:

"قدم العيلاميون من عيلام، وحضر الشوشيون من شوش. ومن ماكان وميلوخا، جمع أهلهما الأخشاب من جبالهم... جلب كوديا كل ذلك إلى مدينة جيرسو...

فتح كوديا الكاهن الأعظم لإله "إين"، التابع لمدينة جيرسو، في جبال الأرز طريقاً لم يسبقه القيام بذلك أي شخص من قبله. قام بقطع أشجار الأرز بالفؤوس الكبيرة، ونزلت أشجار الأرز كالأفاعي العملاقة من جبل الأرز وهي تطفو على مياه النهر، انحدرت طوافات خشب الصنوبر من جبل الصنوبر...

فتح كوديا، الكاهن الأعظم في نين – جيرسو، طريقاً في مقالع الحجر، حيث لم يدخل فيه أي شخص قبله وجُلبت الحجارة منها بأحجامها الكبيرة. كما جُلبَ الكثير من المواد الثمينة إلى الحاكم، مشيّد معبد إي– نينو. واتى بالذهب أيضاً من جبل النحاس في كيماش مثل التراب. ولأجل كوديا، استُخرجَت الفضة من الجبل وأُحضِرَت كميات كبيرة من الأحجار الحمراء من ميلوخا." 1

تتطرق أسطوانة أخرى إلى الحفل الرسمي الذى أقيم لنين – جيرسو في معبده، وأشارت إلى الاحتفالات الكبرى التي جرت فيه بهذه المناسبة. لم يبق للأسف الشديد من معبد إي – نينو سوى الأنقاض.

لا شيء يدوم على هده الأرض، ولا أستطيع إلا أن أحلم برؤية ذاك الصرح الرائع كما كان عليه في زمنه وبالأمير الذي شيّده بكل اعتزاز.

استطاع سحر الفن، تخليد اسم كوديا أمير لكش ووجهه وسرّه، رغم مرور الزمن وتعاقُب العصور.

في نهاية القرن التاسع عشر، وأثناء قيام إرنست دي سارزيك Ernest de Sarzec، نائب القنصل الفرنسي بتنقيبات أثرية في منطقة تلو (جيرسو عاصمة لكش في الجنوب) استخرج حينذاك العديد من المعدات، منها التماثيل الصغيرة والمسامير والألواح والأختام الإسطوانية والأسلحة والأوعية الفخارية والمسلات. وعُثِر أيضاً على ما يقارب عشرين تمثالاً كبيراً من تحت الأرض. كانت هذه التماثيل ضخمة الحجم وتُظهر نقاءً مشهوداً في خطوطها المنحوتة، لقد كانت منقوشة بشكل بديع وبحس صادق. إنّها مصنوعة ومصقولة من حجر البراكين البلورية السوداء، التي جُلبت من بلاد "ماكان". كانت التماثيل مهداة إلى آلهة الدولة وإلى الإله نين- جيرسو كبير آلهة لكش. في الزمن السابق، كانت تزين المعابد وتمنحها روعة في مختلف زواياها. وللأسف الشديد، تم العثور على البعض منها وهي مقطوعة الرأس. كانت تمثل كوديا وهو يصلي وعيناه مفتوحتان بشكل واسع ويداه متلاحمتان بشكل متواضع، وهو واقف أو أحياناً جالس في زمنه الغابر. كما يبدو من خلال تماثيله، كان هذا الملك قصير القامة، وكان ذو العنق المتين والبدن السمين بذراعيه القويتين. يجسد القوة والحكمة والعدالة التي يتمتع بها أمير بهذا المركز الهام. اهتم براحة وتناغم بين شعبه وتآلف بين سكان مملكته والعالم المحيط به. ملكنا هذا، سواء كان حاسر الرأس أو حاملاً قبعة ملوكية، مكث يرتدي لباساً بسيطاً مزيناً بحواشٍ تتدلى على ذراعه الأيسر، تاركاً بذلك كتفه الأيمن مكشوفاً تماماً.

وبعد اكتشافها واقتنائها تم شراء تماثيل أخرى من قبل متحف اللوفر عام 1881. لم يتمكن الزمن من التأثير في حسنها المشهود.

السنة الماضية، تجولتُ خلال إحدى زياراتي لهذا المتحف، بين هذه التماثيل في القاعة المُخصّصة لها، وحاولت أن أتذكر تواريخ وأحداث هذا الأمير. ولاحظت تلك الدقة التي استعملت لصنعها ونحتها، ورأيت تأثيرات الضوء والعتمة فيها، وفي الوقت نفسه لمستُ صلابتها وصمودها وديمومتها عبر الأزمنة. كان كوديا يعيش حياة باهرة، ليس في القصور والمعابد كما كان يقضي جل وقته هناك في السابق، ولكنه الآن في متحف اللوفر الذي احتضن تماثيله، كما لو كان التاريخ قد توقف فجأة لتخليده.

لقد منحني الأمير الجالس هنا في المتحف كامل هيئته، يضع يده على صدره وتظهر جبهته الصافية وخدّاه البارزان وذقنه المربعة. وبدا لي بأن عينيه المفتوحتين بشكل واسع تحت قوس حاجبيه المجنحين المعقودين على جبهته، كانتا تنظران إليّ بهدوء حذر وإباء. تتجاوزان أفق عيني وتضيعان في الفضاء، إنه تمثال كوديا الصغير، في وضعية الجلوس.

هنا، كان كوديا يمسك بيده مسطرة وآلة مهندس المساحة (مسطرة البناء). أراه يضع يديه متقاطعتين تعبيراً عن تقواه، وكأن خارطة المعبد التي عرضها عليه في الحلم الإلهُ نين- جيرسو موضوعة فوق ركبتيه مع المسطرة. بدا لي كوديا، كما قال الكاتب الفرنسي المشهور أندريه مالرو André Malreaux2 كأنه العابد والإله والمعبد في آن معاً.

هنا في اللوفر وفي مكان أبعد قليلاً، وقع نظري على تمثال كامل مصنوع من مادة الكلسيت يظهر كوديا ممسكاً إناء متدفقاً، تسيل منه مياه مليئة بالأسماك التي تسبح باتجاه معاكس لجريان المياه، كرمز للخصوبة، وهو الإناء الذي كان قد قدمه الأمير التقي قرباناً للآلهة "جيشتينانا". يُبين هذا التمثال هيبة هادئة وتقوى كبيرة وسكينة مفرحة.

تركتُ عندئذ سيد لكش وقوة روحه الخالدة وتقواه وحيوته سابحاً في فجر عالمه الفني وعظمة حجره البلّوري الجميل.

حصل كوديا على كنية الألوهية، وحظي بعد وفاته بمراسيم العبادة والتكريم بكافة أنواعها. على أن زخارف الزينة التي بقيت من زمن حكمه، وقطع الآجر والكتابات المدونة على أدوات النذور والقرابين والتماثيل والأناشيد، لابد أن تكون كافية لكي تمنحه اسماً "خالداً" وتحافظ على هذا الاسم وتؤمن له بقاء ذكره.

كنت ومازال أذكر هذا الملك العالم والأديب يجول فوق موقع جيرسو.

اقتفى ابن كوديا، أور- نينجيرسو، مسيرة والده وخلفه في الحكم. ولم يُعثَر إلا على تمثال واحد له، التمثال المصنوع من المرمر الجبسي والمهدى إلى إلهه الشخصي، نينجيزيدا. غاب هذا الملك هو الآخر وانتهت مسيرته خلف ضباب الأفق المضطرب.

عاشت دولة لكش المستقلة أيامها الأخيرة. وضُمَّت إلى إمبراطورية واسعة أخرى، وهي إمبراطورية أور الثالثة السومرية، فتحولت إلى مجرد مقاطعة بسيطة بعد أن سطع نجمها لسنين طويلة.

هوامش الفصل السابع:

1- انظر: ميخائل رواف (Michael Roaf)، *أطلس بلاد الرافدين*، دار بريبولس (Prepols)، ص 99

2- أندريه مالرو (André Malreaux)،(، مقدمة كتاب *سومر*، نشره دار غاليمار، 1981

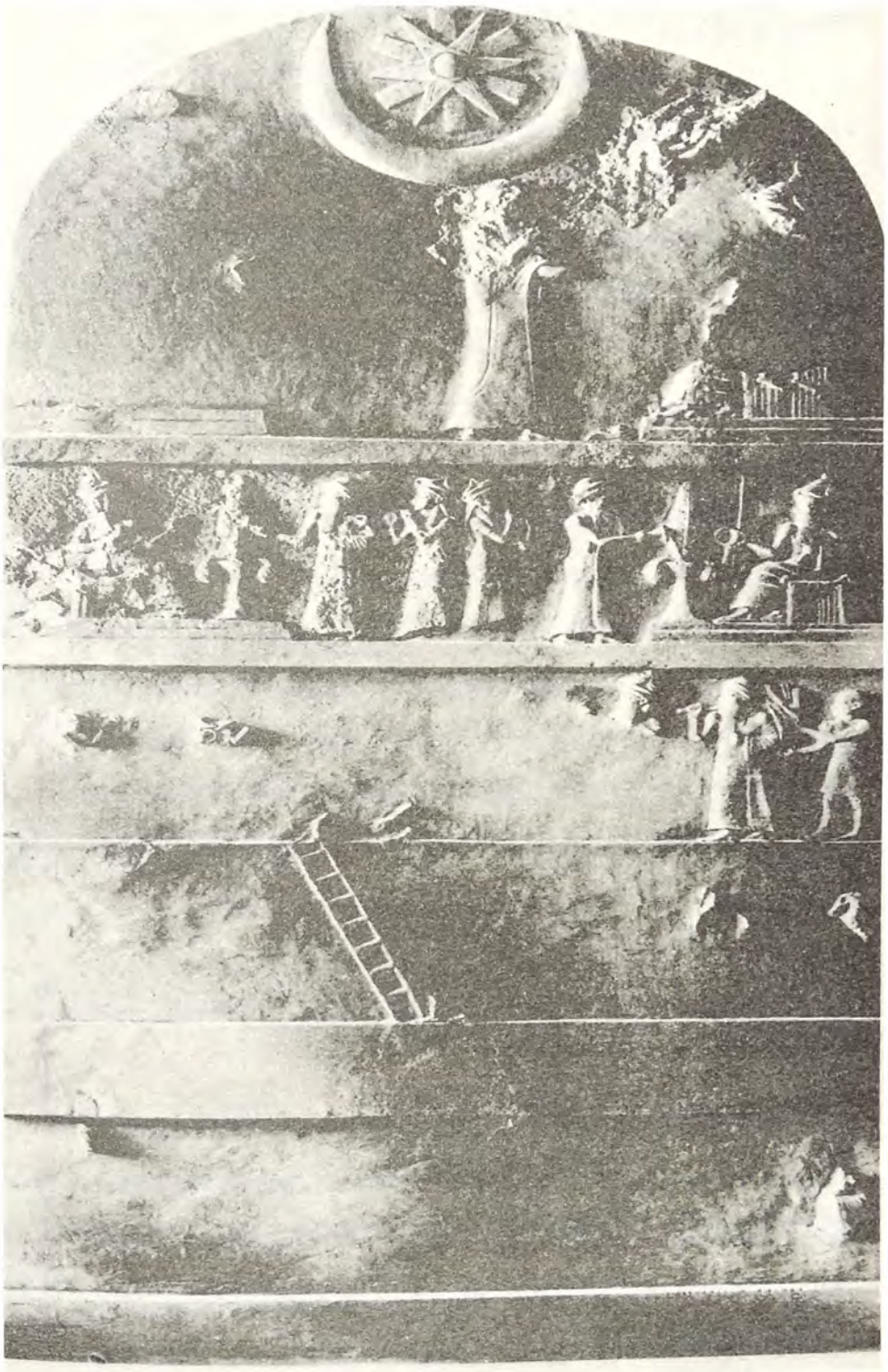

الفصل الثامن

أور – نامو (UR-NAMU) وإمبراطورية أور الثالثة

زرتُ مؤخراً وباشتياق كبير موقع مدينة أور الأثري، القريب من مدينة الناصرية في جنوب العراق. اكتشفتُ هناك روعة الزقورة المدهشة، التي تشبه نوعاً من الأهرام متعدد الطوابق والمشيدة بالآجر. وإن تعرضت إلى بتر وتقطيع بعض أوصالها، رغم ذلك ترتفع شامخة على ارتفاع حوالي عشرين متراً، تهيمن على سهل واسع رمادي قاحل المظهر. (رُمِّم قسم من زقورة أُور بين أعوام 1960و 1970).

كانت الزقورة التي بدأ الملك أور– نامو (2112–2095) بإنشائها فوق موقع معبد قديم، وأنجز بناءها ابنه المعروف باسم شولجي. كانت هذه تحتوي على عدة طوابق وتحمل، في هامتها معبد مقدس واسع. وكانت جزءاً من مجمع ديني مُخصَّص للإله "نانا"، إله القمر، ابن الإله الكبير "إنليل". وكان الدرج الرئيس للزقورة يربو على مائة درجة، يؤدي بمرونة إلى الطابق الأول للمبنى.

كانت مدينة أور القديمة التي بُنيَت في العصور القديمة على ضفاف نهر الفرات، ترتفع بأسوارها ومعابدها المضيئة بأنوار الشمس والكواكب ومواكب المؤمنين الطويلة القادمين لتقديم بواكير حصاد

مزارعهم إلى الآلهة نانا، وتزهو بقصورها المشرقة ومستودعاتها الغنية وبلياليها المرصعة بالنجوم الساطعة.

حكمت مدينة أور سلالتان سومريتان خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد، ولكن السلالة الثالثة كانت قد سطعت بكامل بريقها على أراضي بلاد النهرين.

وقفتُ، وقد تملكني حب الاستطلاع، أمام الزقورة وهي تهيمن على ضفاف الأزمنة والفتوحات والانتصارات والصرخات والمآسي.

أور- نامور، ملك سومر وأكد

تذكر التقاليد بأن إله القمر "نانا"، بعد سقوط إمبراطورية أكّاد وانتهاء فترة طويلة من الاضطرابات، اختار أور نامو ليمثله على الأرض ويحكم بلاد سومر. فأنشأ الملك عندئذ دولة أور الثالثة وحكم حوالي 17 سنة.

وتقدم لنا بعض الكتابات الرسمية ونصوص وثائقية مكتشفة من موقع جيرسو وبعض الأناشيد المكتوبة باللغة السومرية المنقوشة على ألواح الفخار، معلومات تعرض بطريقة رئيسة، صورة عن حياة أور نامو وعن انتصاراته وإصلاحاته، مثل هذا النص الذي يروي على لسانه، قائلاً:

"أنا أور نامو، الراعي، لتكن الحياة مكافأتي... لقد هبطت الملكية من السماء نحوي."

لاتتوفر لنا معلومات دقيقة عن أصل هذا الملك الذي ادّعى أنه وريث جلجامش، ملك أوروك. ربما كان حاكماً عسكرياً لمدينة أور وكان يعمل لحساب والده أو أخيه المدعو "أوتو- هيغال" (2019-2013)، الذي حكم مدينة أوروك وتمكن من طرد الغوطيين البرابرة من بلاد الرافدين.

ويبدو أنه قد استولى على الحكم بعد وفاة أوتو- هيغال وسيطر على عرش أوروك وإريدو وقام بغزو الإمارات السومرية الأخرى المتمثلة في جيرسو وأوما ونيبور، وجعل من مدينة أور عاصمته. وقام عندئذ أور- نامو السومري، مقتدياً بأعمال ملوك أكد ومستوحياً منهم الدروس، بإعادة وحدة الإمبراطورية القديمة الرافدية. وأصبح بذلك أول ملك باشر بإتباع التقاليد التي ورثها من الملك سرجون الأكادي وتبنى مثله لقب "ملك سومر وأكد". ولا بد أنه تمكن خلال الجزء الثاني من حكمه، من إزاحة دولة لكش المجاورة لدولته بعد صراعات شديدة مع الملك "نمهاني" آخر ملوك لكش، واستطاع قتله أو ربما قد وضعه تحت سلطته.

سياسة فعالة

عمل أور- نامو على حماية مدينة أور "مدينة سومر الأميرية" وشيد لها سوراً عالياً، طول ارتفاعه يساوي "ارتفاع جبل متألق"، وبنى فيها قصراً رحباً. وقام الملك الذي اشتهر بتقواه في حياته الدينية، بإعادة بناء معبد نانا وعيّن ابنته المسماة "إنيرغالانا" كاهنة للإله القمر. كما أعاد تشييد "إيكور"، معبد إينليل، إله نيبور القوي. وقام بإنشاء زقورات لتلك المعابد.

وبفضل إعادة التنظيم الإداري والاقتصادي واعتماد نظام المركزية في دولته، توصل هذا الملك إلى تأسيس نظام تمكن من خلاله، أن يكون مطّلعاً على كافة الأحداث التي كانت تجري في مملكته. جعلها الدولة العظمى في بلاد الرافدين الجنوبية. وحفر وصان قنوات الري وشجّع الزراعة وغرس أشجار النخيل التي كانت ثروة سومر وأكّاد. استخدم التمر لتغذية السكان وصناعة العجينة والدبس والنبيذ المقطر. وكان

يُستخرج من النخيل ألياف الخشب، ويصنع من جذوعها وسعوفها مادة الحياكة والنسيج المجدول.

طور أور- نامو شبكة الطرق البرية وحركة الموانئ، فاستقر الأمان وعمت الرفاهية. ترمز إلى هذا الرخاء صورة الثور وسنبلة القمح في إمبراطورية أور الثالثة التي دامت قرناً كاملاً من الزمن.

كما أنه تمكن من ضمّ أراضي جديدة واسعة إلى إمبراطوريته، لاسيما تلك التي كانت واقعة في شرق بلاد الرافدين.

أور. نامو، المشرع الكبير

كان أور- نامو شغوفاً بالنظام والمساواة والإنصاف والسلام. ووضع حداً للتعسف الذي كان يمارسه الموظفون، وكانوا يمنحون لأنفسهم أكثر مما يستحقونه من أموال الدولة، وعمل على حماية الضعفاء. تشير المعلومات بأنه من المحتمل، قد أعد مع ابنه شولجي، قانون التشريع المحرر باللغة السومرية. ولم يصلنا منه إلا 73 مادة من تشريعاته. ذكرت ديباجة افتتاحية قانونه الذي تم اكتشافه في موقع نيبور الأثري ما يلي:

"عزز أور- نامور، المحارب القوي، ملك أور وسومر وأكد، المساواة في كامل البلد، مستبعداً القدح والعنف والاشتباكات. ولم يعد اليتيم متروكا بيدي الغني، ولم يعد ممكناً تسليم الأرملة بيد الشخص القوي"1

وحدد الملك نظام الأوزان والقياسات، وأمر بصنع مقياس من النحاس وصنع أيضاً الشاق (المثقال). وأعد قواعد الاستعمال للقيام بقياس المساحة وتنظيم ثقل الأوزان.

ويقول الملك:

"قمت بتنظيم قياس الشاقل الواحد (840، 0 لتر) من الخرزة النحاسية، وحددت قيمته على 1 مانا". " 2

كان "مانا"، الذي استعمل حينذاك أساساً لمكيال الوزن، يزن حوالي 505 غرام. بينما كانت قيمة الشاقل (المثقال) الفضي تبلغ 60/ 1 من المانا.

كما أن قانون ـ أور نامو تناول أيضاً المواضيع التشريعية مثل القوانين المتعلقة بالعائلة والزواج والطلاق والملكية والرقّ والتصريحات الزائفة.

لنرى فيما يلي جزءاً من هذا القانون:

"إذا قام رجل تجاه رجل آخر،
بقطع قدمه بآلة:
عليه أن يدفع 10 شاقلاً من الفضة.
وإذا قام رجل تجاه رجل آخر،
بكسر عظمٍ ما بسلاح...
عليه أن يدفع له... 1 مين فضي." 3

كانت تُدفع غرامات لتعويض الضرر الناتج عن أعمال العنف البدنية بدلاً من فرض العقوبات البدنية على مرتكبها. وكان ذلك يشكل نوعاً جديداً من القانون الأخلاقي، وهو القانون الأكثر رأفة من قانون الغاب، أي "قانون السن بالسن والعين بالعين" المعروف، الذي استعمل لمدة طويلة لدى العبرانيين. لم يجسّد أبداً قانون الغابة العدالة، بل لم يتوافق معها، كما عبر عن ذلك فيما بعد الفيلسوف الإغريقي أرسطو (في كتابه الأخلاق إلى نيقوماخس، الجزء الخامس).

كانت اللاعدالة واللامساواة والأفعال المذنبة والشر، تعارض القوانين والنظام الاجتماعي المبني على قيم وأسس العائلة والمُلكية الخاصة. وكانت مرفوضة تلك الانتهاكات في إمبراطورية أور- نامو.

النهاية المبكرة لأور. نامو

أنجز أور ـ نامو، "الرجل القوي وملك سومر وأكد"، الذي كانت يداه الشديدتان قد رسمتا لوحة إمبراطورييه. وبغتة يأتي أجله كأي بشر آخر، إذ قاده قدره عام 2095 إلى وادي، ربما كان وادي ديالى أحد روافد نهر دجلة، واختفى في تلك المنطقة أثناء معركة خاض خلالها قتالاً عنيفاً. ولم يتم العثور على جثته وبقي متروكاً في ساحة القتال مثل "وعاء مكسور". لقد بحث القمر عنه في تلك الأمسية المأساوية لكن دون جدوى. مسحت المعركة قسمات وجهه النبيلة وأتاه الموت، لكن لم تطله يد النسيان، وكم كانت رعبته شديدة بأن يبقى ذكره خالداً.

ذكر أور. نامو

مازال ذكر أور ـ نامو قائماً، لأنه كان راعي شعبه الكبير والمصلح الاجتماعي. ومازالت الزقورة الكبيرة التي شيدها والقانون الذي سنه والأناشيد التي نشرها قائمة، تحافظ كلها على ذكره، ونستعيد من خلالها على مرّ الزمن، سيرة ملك سومر وأكد الكبير ونذكر مجده العابر مادياً وخالداً روحياً.

حمل الكثير من قرميد الآجر اسمه، وظهرت صورته على العديد من أسس المباني وعلى الوثائق المطمورة تحت الأرض، وجميعها تشير إلى الملك أور ـ نامو الشهير. وتم العثور على واحدة من صوره في مدينة نيبور داخل معبد إينليل، فتظهره وهو يرتدي ثوباً طويلاً حاملاً فوق رأسه حجراً كبيراً موضوعاً داخل سلة.

كان أور ـ نامو قد نصب في زمانه مسلة مصنوعة من الكلس. وجدها عالم الآثار الإنجليزي ليونارد وولي Léonard Woolley على شكل قطع متناثرة بالقرب من زقورة أور، أثناء إنجاز أعمال

التنقيبات الإنجليزية عام 1926. وهي محفوظة منذ ذلك التاريخ في متحف جامعة فيلادليفيا الأميركية، بعد أن تم ترميمها جزئياً. وتمنح اليوم هذه المسلة للزوار فرصة لتعرف على تفاصيل وجهه النبيل، والتي يزيد عمرها على أربعة آلاف سنة. وكأن حجر المسلة يعطل سير الزمن، فيكشف الزوار بإلقائهم نظرة عميقة عليها، كأنهم يعيشون مع أور- نامو...

هوذا الملك يظهر واقفاً تحت هلال القمر، رمز الإله نانا، وهو يرتدي ثوباً موشحاً بطيات فضفاضة. ويظهر على الجانب الثاني، وهو يرتدي قبعة بوجهه المزين بلحية مجعدة طويلة، لترمز إلى الخصوبة والشجاعة والحكمة. يسكب النبيذ والحليب والجعة للآلهة (نينكال زوجة نانا؟). التي تمد له دائرة وعصا، بما هما علامتا الملكية. وعلى اليسار، نجده أيضاً واقفاً بخشوع أمام نينكال مؤدياً لها مراسيم العبادة نفسها.

يحمل الملك على كتفه، كما هو ظاهر على القسم السفلي للمسلة، أدوات البناء الضرورية لتشييد المعبد، يظهر العمال وهم يمسكون السلال ويعرض واحد منهم سلماً متكئاً على جدارٍ عال.

تعطي هذه المسلة حارسة الذكر الخالد، دليلاً على وجود أور- نامو وتشهد على إرادته وإيمانه وعلى الطقوس التي كان يحافظ على ممارستها. وكأنشودة تمدح، مزايا الحاكم وصفاته وتقواه وإخلاصه ودوره كبناء لمعالم بلاده.

مرثية وفاة أور- نامو الحزينة تروي قصيدة يعود تحريرها إلى ما يقارب ألفي سنة قبل التاريخ، وتقص بأن الملك قد توجه بعد وفاته إلى المناطق السفلية وقدم القرابين إلى الآلهة.

تبدو وفاة الملك في نظر الشاعر، كما لو كانت عملاً غير عادل نفذه الإله "آن"، إله السماء وأب الآلهة وأب إينليل، السيد السامي للسومريين الذي يدير الملكية. ويركز المؤلف فيها على أن الالهة قد غيروا قدر الملك أثناء تقلده الحكم. فيقول هكذا:

"ضرب البؤس بلد سومر، وأخذ الموت الراعي الشاب،
رحل الراعي العادل أور نامور،
نعم، لقد رحل الراعي العادل!
وغيّر (الإله) "آن" كلامه المقدس، وصار القلب [...] لا يتحمل المواساة،
وتمكن إينليل بالخداع، من تغيير كافة الأقدار المحددة."

يتحصر أور- نامور، وهو قابع في العالم التحتي، شغفاً وحباً على أسوار مدينة أور وعلى القصر الذي شيده بدون أن يتمكن من التمتع الكافي به وعلى زوجته وابنه الذي لم يعد قادراً على أخذه على ركبتيه. ويدلي بالتذمر الذي يكسر القلب:

"أما بالنسبة لي، هوذا كيف تمت معاملتي،
لقد خدمتُ الآلهة جيداً،
وحضّرت لهم [...]،
إلى أنونانكي (آلهة المناطق السفلية)،
قمت بتأمين رفاهية عالية لهم،
وقدمت الكنوز بكثرة لمعابدهم المزينة باللازورد،
ومع ذلك، لم يقدم لي أي إله منهم النجدة ولم يخفف لي القلب...،

لقد اختفى فأل حظي إلى أبعد من السماء،
أنا الذي خدمت الآلهة ليلاً كما في النهار،
وماذا كان ثمن أتعابي؟
أنا الذي خدمت الآلهة ليلاً كما في النهار،
ها هو النهار ينتهي بدون نوم!
كما لو كان مُحذَّراً من أعالي السماء بعاصفة،
وا أسفاه! لم أعد اليوم قادراً على بلوغ
أسوار أور المحطمة المكدسة،

وكما لو كانت زوجتي قد غرقت،
ها أنا أقضي النهار غارقاً بدموعي وبالشكوى المرة،
لقد خارت قواي أنا، المحارب،
لقد امتدتْ يوماً ما يد القدر علي [...]."[4]

حاولت الآلهة القوية إنانا الابنة البكر لإله القمر سين وحاكمة أور، أن تساعد الملك أورـ نامو المنحدر أصله من مدينتها، لكن بدون جدوى. فدخلت بكل تواضع في "إيكور"، معبد إينليل في مدينة نيبور، وتقدمت أمام الإله المرعوب وهو يدور بعينيه ويقول لها:

"إن هذا الشخص الذي مات سوف لن يصعد من أجل حبك له."

ساد السلام على موقع أور وانتشر الصفاء في أجوائها. وبقيتُ واقفاً أمام الزقورة الحمراء الهائلة، إنّها أنشودة الآجر المشعة التي رفعها الملك الورع أورـ نامو هو وابنه شولجي، من الأرض نحو السماء.

وهبطت الليلة النقية المخملية بهدوء. وحلت ساعة النجوم وهيمن القمر على أطلال الموقع. ولمس الضوء الأزرق الحليبي واجهة الزقورة بنغمة ألوانه الجميلة وهو يطبع على محيطها بصمته المشرقة جاعلاً منها مكاناً خارجاً عن نطاق العالم الحقيقي.

هوامش الفصل الثامن:

1- انظر: منشورات تايمس – لايف (Times-Life) سومر، أمستردام، 1993، ص 142

2- مقدمة القانون : سيلا من الحبوب تزن مانا واحدة

3- صامويل نوا كرامير (Samuel Noah Kramer)، التاريخ يبدأ في سومر (L'histoire commence à Sumer)، نشر دار آرتو، باريس 1957، ص 92

4- دفتر الانجيل (Cahier de l'Évangile)، حكمة بلاد الرافدين (La Sagesse de la Mésopotamie)، ملحق العدد 85، شكوى أور- نامو ، ص 73-74

الفصل التاسع

شولجي (Shulgi) ملك أور الموسيقي

جاء شولجي (2094–2047 قبل الميلاد)، ليخلف والده، أور – نامو على السلطة في بلاد الرافدين، ذلك "الفتى النبيل" راعي ذوي الرؤوس السوداء، يعني السومريين.

قمتُ بقطع المسافات الطويلة لكي أجد هذا الملك العظيم ولكي أكتشف بطولته، وأحلام عظمته القافزة مثل وثبات الأسود، وتقواه المحاطة بهالة قمر، وفهمه واستيعابه لمعنى العدالة، وباختصار للاطلاع على موسيقى تاريخه العريق.

نظم الشعراء العديد من أناشيد المدح تكريماً للملك شولجي، ومجدوا أعماله الدينية وانتصاراته في الحرب وفي الصيد، وثقافته الواسعة وإدراكه لمفهوم الحقّ. وقد تم تحرير هذه الأناشيد لكل من يريد إنشادها بالاسم المتكلم أو المخاطب أو المجهول، وكان من الممكن غناؤها أو ترتيلها بمصاحبة عزف على مختلف الآلات الموسيقية.

شولجي، المشهور بالحكمة

يشير نشيد مشهور تحت اسم *"ملك الطريق"* إلى انتساب الملك شولجي إلى سلالة الآلهة والآلهات السومرية. ويعتبر الملك نفسه بكامل

رغبته أسداً، لأنّ الأسد يجسد السلطة والعدالة والقوة، وحماراً لأنّه حيوان مقدس يرمز إلى الملك وإلى سلطته، والحصان الذي يسرع خطاه بطفرة على الطريق، ويدل على عنفوان الشباب وحمية الرغبة:

"أنا ملك الأركان الأربعة (للكون)،
أنا الراعي لذوي الرؤوس السوداء،
أنا أستحق ثقة، إله كافة البلدان،
أنا ابن نينسون (آلهة الرعي)
أنا شولجي، المختار، لحب إنانا،
أنا حمار أميريّ، مُهيَّأ للطريق الطويل،
أنا حصان ذو ذيل أنيق على الطريق،
أنا حمار نبيل لسوموكان (إله الحيوانات)،
أنا الشهم في السباق..." 1

ويدعى شولجي بأنه كان كاتباً للآلهة نيسابا ويفتخر بحكمته وببطولته وقدرته السامية، و كان يتباهى بحبه للعدالة وكراهيته لأعمال الشر والأحاديث الشريرة.

ويمجد نشيد مكتوب بمناسبة إنشاء طريق بين مدينتي أور ونيبور تلك المدينة المكرسة للإله إنليل الكبير، بأس وقابلية الملك على التحمل، وأيضاً استطاعته على قطع عدة فراسخ من الطريق على الأقدام في يوم واحد بين هاتين المدينتين. وقد تم اختيار هذه المأثرة الرياضية المشهودة، لتحديد السنة السابعة من حكمه.

شولجي الشاعر والموسيقي

لا نعرف الكثير عن فترة طفولة أور – نامو، بينما نستطيع الحصول على معلومات أكثر عن طفولة ابنه شولجي، لقد حصل على تربية ممتازة وكاملة، مقارنة بعصره.

تروي أنشودة بأن الآلهة وهبت للملك شولجي ذكاء وحكمة ومنحته منذ صباه معرفة واسعة وأعطته البأس والشجاعة. ذهب الصبي الصغير إلى مدرسة الكتّاب السومرية المعروفة باسم "الأدوبا" وتمكن بفضل مهارته اليدوية، إظهار براعة فن الكتابة المسمارية.

هوذا النشيد يؤكد هذا القول:

"عندما كنت صغيراً، ذهبت إلى المدرسة وتعلمت فن الكتابة على ألواح سومر وأكد.

ولم يكن أي شخص آخر، من بين النبلاء، قادراً على الكتابة مثلي.

وفي المكان الذي كنا نذهب إليه بانتظام لتعلم فن الكتابة، أتقنت علم الطرح والجمع والحساب والمحاسبة.

ومنحتني الآلهتان الجميلتان نانيكال ونيسابا الإدراك والمعرفة الغزيرة.

إني كاتب خبير لا يهمل أي شيء.

أقفز بفضل عضلاتي مثل الفهد وأركض مثل الأحقب سريع العدو." 2

أتقن شولجي كاتب نيسابا آلهة الكتابة، كافة المعارف واهتم على امتداد حياته كلها اهتماماً كبيراً بعلم الفلك والفنون والشعر ولاسيما بالموسيقى ذي المنشأ السني.

أجل، إن الموسيقى والفنون المعمارية وفن الكتابة والمعرفة كانت جميعها تشكل العناصر الأساسية للحضارة السومرية وكانت تشكل جزءاً بما يعرف بمفهوم "مي"، تلك المجموعة المتكاملة من الحكمة أو القوانين والأنظمة والقوى الهائلة التي كانت تشمل نشاطات البشر.

كان شولجي عارفاً وماهراً بالموسيقى، قبل داوود ملك العبريين الشهير، إذ كرّس لها نفسه من كل قلبه. وكانت الآلات الموسيقية،

الوترية منها أو الإيقاعية (تيجي) والطبول (أداب)، تنشد بفرح تحت أنامله الماهرة والرشيقة

وها هو يصرح:

"أنا، شولجي ملك أور، لقد كرست نفسي للموسيقى. لا شيء يصعب عليَّ. لأني أعرف عزف [الأدوات الموسيقية] التيجي منها والآداب، سواء بالعرض أو بالعمق لأني أتقن فن الموسيقى. وعندما أثبت مُكسّرة العود التي تنعش القلب، فإنني لا أكسر أبداً قبضته. درستُ القواعد التي تعمل على زيادة وتخفيض الفاصلة فيما بينها.

أعرف القيام بتوافق أنغام القيثارة غو- وش ذات العشرة أوتار (...). وإن أعطوني، كما يحدث لموسيقار خبير، آلة لم أسمع العزف بها سابقاً، فإنني قادر على تأليف نغم صوتها حال البدء في العزف عليها. أنا قادر على العزف بها، كما لو كنت قد استعملتها سابقاً. فتنظيم الآلة وتركيب أوتارها وفك تركيبها أو تثبيتها، لا شيءَ منها مستحيل ليديّ.

لم أجعلُ الناي يصدر بمبادرة مني صوتاً مزدوجاً، كما يحدث بالنسبة للمزمار، بل إني قادر على غناء "شموشا" أو ترنيم مرثية كما فعلت ذلك مراراً". 3

يُقال إنّ شولجي، الملك التقي والمطيع للآلهة كان يكلم الناس من خلال العلامات، لأنه كان يعرف قراءة الفأل. وكانت تصدر بأمره مراسيم تقديم القرابين الخاصة بشعائر العبادة، وكانت هذه الطقوس تتم بمصاحبة الموسيقى بغية نيل نعمة الآلهة. وفي تلك المناسبة كان يُقدم عدد كبير من الخرفان مصحوبة بالدق على الطبول والعزف على آلات التيجي الموسيقية.

وكانت الموسيقى بمختلف الآلات ونغماتها وإيقاعاتها ترافق الحياة المهنية للملك وتمنح البهجة للاحتفالات الدينية ولأعياد استلام الحكم، مثلها مثل أعياد الخريف الكبرى التي كان الاحتفال بها يتم

حول مدينة نيبور، المركز الديني للإمبراطورية. وكانت المسيرات الدينية والدعاء والصلوات تشير وتحتفل بقدرة الآلهة إنليل، وكان حبور الجماهير ينعش تلك الأعياد.

إن الموسيقى تنقذ العالم من الفوضى الكونية، وتقوده إلى حالة من الارتعاش وتسير به إلى أقصى حدود المشاعر الربانية.

ليت الجميع يستمع دائماً إلى أناشيدي!

أنشأ شولجي صديق الأدب، مدارس للكتبة في أور وفي نيبور تحت رعاية آلهة الكتابة "نيسابا"، وربما هو الذي قام بتأسيس "المكتبة" الأولى.

وكان الطلاب ينسخون فيها أناشيد الأزمنة القديمة على ألواح الطين، وأناشيد المدح التي كان الملك يحررها بنفسه، وفي أغلب الأحيان كانت تتداول شفوياً من جيل إلى جيل، ثم ينقلونها كأعمال أدبية إلى الأجيال القادمة بعدهم. وهكذا يؤمنون ديمومتها ويبقى ذكر شولجي خالداً.

لنقرأ أمنية أقرّها الملك:

"ليت أناشيدي تصدح عبر كافة الأفواه، وليت الجميع يستمعون إلى أغنياتي!

وأملي بألا يتعرض إلى النسيان إطراء شهرتي ولا الكلمات التي نطق بها الإله إينكي باتجاهي، ولا تلك التي لفظتها الآلهة "جيشتين-أنا" بفرح في قلبها والتي أعلنتها من بعيد، لذلك قمت بكتابتها سطراً بعد سطر في بيت الحكمة للآلهة نيسابا، على صيغة كتابة مقدسة سماوية مثل روائع العلم الكبرى.

يجب ألا ينساها أحد قط " 4

وقد تم العثور على حوالي عشرين أنشودة من تلك الأناشيد. ربما كان الطلاب ينشدونها مثل الملك نفسه.

لم يكن شولجي ملكاً عالماً ومولعاً بالموسيقى فقط، بل إنه استمرّ في إعادة تنظيم إمبراطورية أور الثالثة التي وصلت تحت حكمه الذي امتد لمدة سبع وأربعين سنة إلى أوج عظمتها.

باشر شولجي، في داخل البلاد بإنجاز مجموعة من الإصلاحات السياسية والإدارية والاقتصادية. شيد دار لإقامة الملوك، وبنى أو رمّم عدة معابد، وجعل من مدينة نيبور مكاناً وطنياً مقدساً.

تُطلعنا بعض الوثائق الإدارية التي يعود تاريخها بشكل خاص إلى النصف الثاني من حكمه، على الطريقة التي كانت تعمل فيها هذه الدولة المركزية جداً. لقد كانت دولة تتحكم في أمور الزراعة وتربية الحيوانات والصيد وصنع الجلود والنسيج والتجارة مع بلدان مثل الأناضول والبلدان الأخرى الواقعة خارج البحار. إنّها إمبراطورية منظمة تنظيماً دقيقاً لتأمين الرفاهية لسكان البلد، الذين عرفوا تحت حكم شولجي ازدهاراً مشهوداً. وهناك العديد من الكتابات التي عُثِر عليها تروي لنا ذلك.

كان يهيمن الملك على كافة السلطات، ويحتل المرتبة العليا واضعاً نفسه في قمة الإمبراطورية المقسمة إلى مقاطعات إدارية. ويقوم بإدارة المقاطعة حاكم مدني يدعى "إينسي" وقائد عسكري يدعى"شاجن". وكان عدد كبير من الكتبة يضعون كامل اهتماماتهم لجباية الضرائب التي كانت المقاطعات ملزمة بتأديتها. وكان على هذه المقاطعات أن تقوم حينما يأتي دور كل واحدة منها، بتنفيذ (نظام بالا) يعني قيام المراكز المخصصة بجمع استحقاقات الدولة من الماشية والمنتجات المتعددة، ومن بين تلك المراكز الشهيرة، مركز بزريش ـ داكان الواقع في جنوب نيبور.

ثم واصل شولجي إعادة فتح القنوات المائية الكبرى لكي تعمل بصورة جيدة، وكان والده قد بدأ بإنشائها في زمانه، ولم يهمل بتطوير شبكة الطرق العديدة على امتداد إمبراطوريته الواسعة.

كما أنه فرض تقويماً جديداً لأشهر السنة وهو تقويم مدينة نيبور الشهير، الذي استلهم منه بعض التفاصيل فيما بعد ملك بابل حمورابي.

ويبدو أنه عمل في إعادة ترتيب نظام الأوزان والقياسات. ويمكننا أن نرى في متحف اللوفر وزناً مصنوعاً من حجر الديوريت، إنه نصف مينة (حوالي 250 غرام)، يحمل علامة الهلال القمري إنه مخصص من الملك إلى الإله القمر "نانا" في أور.

أحب شولجي العدالة والخير، وعمل على حماية الضعفاء واليتامى والأرامل من الطغيان الذي كان الأغنياء يمارسوه ضدهم.

و بغية فرض حكمه، كتب اسمه بشعار مخصص للألوهية، المتمثل في عبارة دينجير (dingir)، كما فعل ذلك من قبله ملك أكد نارام-سين. وتم ذلك ما بين السنة العاشرة والحادية والعشرين من حكمه. وكُرست له معابد مزينة بالتماثيل كما خُصصت له أعياد دينية كثيرة، وأصبح موضوع عبادة وهو حيّ.

باشر الملك في المناطق المجاورة واعتباراً من السنة العاشرة من حكمه، بشنّ سلسلة من الحملات العسكرية في الشمال ضد إمارات زاغروس الآهلة بالغوطيين واللوليبيين والحوريين، وفي الجنوب قام بحملة ضد الدولة العيلامية القوية.

هل كانت الموسيقى تحتل مكاناً كبيراً في وقت الحرب، كما حدث في الأزمة اللاحقة، أي في العصر الآشوري الجديد (934 – 610)؟

كان يسمع الأعداء عند اقتراب الجيش أصوات دقّ الطبول والصنوج والصخب والجلب التي كانت ترافقه في حملاته وضجيج الأسلحة وصفير الأسهم.

وبلغ شولجي الدبلوماسي الماهر مرامه العسكري، بمنح بناته زوجات إلى الأمراء الأجانب وإلى الحكام لتأمين تحالفهم معه.

كما باشر بإنشاء سور بين نهر الفرات ونهر ديالى أحد روافد دجلة لأنه يشعر بضرورة حماية حدود بلده وصد دفق الغزاة والمحافظة على السلم في بلاده. وقد أطلق على هذا السور، تسمية باد. إيجي. هور. ساغ. كا (Bad.Igi.Hur.Sag.Ga) لأنه كان مواجهاً للجبل.

ملك غير تقي

ترسم *"مدونة أوروك الخاصة بملوك أور"*، متأخرة ومحررة باللغة البابلية، صورة للملك شوكلي متهمة إياه بأنه غير تقي، إذ لم يكمّل جيداً الشعائر الدينية، بل قام بإفساد الاحتفالات الدينية.

ويروي هذا النص المتأخر زمنياً:

"لقد عمل شولجي الرباني، ابن بنت أوتو هيكال، ملك أوروك [...] على إفساد شعائر "آنو" بدون حق، وخرق شرائع أوروك [...] وعلم سر الحكماء. وطرح أرضاً في كتابته الخدمة الواجبة "لسين" رب أور.

وقام [في فترة] حكمه بكتابة مسلات كاذبة ومدونات وقحة [تتعلق] بالشعائر المعدة للآلهة، وترك ذلك للأجيال اللاحقة. " 5

ومهما كان الأمر، فإن شولجي توفي بعمر متقدم جداً بعد حكم طويل ومزدهر، وحدث ذلك في بداية الشهر الحادي عشر من سنته السابعة والأربعين من حكمه.

أدت وفاة شولجي إلى إقامة احتفالات كبيرة وقُدمت له مراسيم تأبينية دينية. تعالت أصوات دق الطبول والناي والقيثارة للتعبير عن النكد والحزن وهي ترافق الصلوات والأناشيد والنحيب.

دُفِن داخل ضريح رائع من القرميد المرصع جدرانه بالذهب، وبالسقوف المزينة بالنجوم.

هل ضحّت زوجتان من زوجاته، هما "شولجي ـ سيمي" "و جيم ـ إنلينا"، بنفسيهما تكريماً له بعد بضعة أشهر من وفاته، لمرافقته في العالم الآخر؟

في موقع أور، تمكنتُ من رؤية السلم والقباب العالية للكهف التي دفن فيها هذا الملك وابنه أمار ـ سين.

وتشير إحدى الوثائق الإدارية بأن شولجي الذي ألّه في حياته، قد "صعد إلى السماء" مباشرة إلى مسكن الآلهة، بدلاً من بقائه في مملكة الموتى تحت الأرض كبقية الملوك والأبطال والبشر.

لقد بقي راسخاً مدةً طويلة لدى أبناء الرافدين، ذكر هذا الملك المقدام والماهر في الحرب والصيد ومنظم دولة مركزية كاملة. لقد أعطى صورة عالمٍ في الثقافة وعادل في الحكم وأصيل في شخصيته. كان عازفَ ناي ماهراً ومغنياً مغرماً من كل قلبه بأناشيد الحب.

ابني شولجي

خلف شولجي في الحكم ابنيه أمار ـ سين (2046 – 2038 قبل الميلاد) الذي حكم ثماني سنوات وضم جزءاً من بلاد آشور إلى مملكته.

عزز شو– سين (2037– 2029 قبل الميلاد) الابن الثاني، خلال السنة الرابعة من حكمه السور المشيد من قبل والده الملك شولجي، إذ إن أقوام المآرتو أو البدو العموريين القادمين من سوريا ومن الجزيرة العربية كانوا غالباً ما يقومون باختراقات حدود إمبراطوريته ويتوغلون في بلاد الرافدين ويهددون سلامة المملكة.

عُثِرَ على أنشودة حب لكاهنة مشغوفة بالملك شو ـ سين الفاتن، وكانت قد أنشدتها أثناء عيد رأس السنة الجديدة. وتجعلنا هذه الأنشودة الغرامية، نتقاسم دقات قلب هذه المرأة المكرسة إلى الإلهة إنانا، إلهة الحب.

وتقول:

"أيها الزوج الغالي على قلبي
كبير هو جمالك، إنه شهي مثل العسل
أيها الأسد الغالي على قلبي
كبير هو جمالك، المحبوب على قلبي. "

مع مرور الزمن غيّر نهر الفرات مجراه، منزلقاً شيئاً فشيئاً نحو غرب البلاد.

وفي نهاية الألفية الثالثة، شكل العيلاميون في الجنوب الغربي من إيران مع العموريين تهديداً، وتحول تدريجياً إلى خطر كبير على إمبراطورية أور الثالثة وعلى عاصمتها الساطعة بكل أنوارها وعلى مينائها الهام الذي كان يؤمن لها رفاهيتها الواسعة.

هوامش الفصل التاسع:

1- أس أن كـرمير (S.N Kramer) التـاريخ يبـــدأ في سـومر (L'histoire commence à Sumer)، بـاريس، دار آرتـو، 1957، ص 176

2- أنشودة بي شولجي، مستقطعة من مقال منشور على الإنترنت The Electronic Text Corpus of SumerianLiterature www.etcl.Orient.ox.ac.uk (http : مأخوذ من قبل فيرونيك غراند بيار، تاريخ بـلاد الرافـدين، Folio Histoire، ص 159

3- نفس المصدر أعلاه، أنشودة بي شولجي

4- راجع شاربين (D. Charpin)، أنشودة إي شولجي

5- كلاسنير (J. Glassner)، تاريخ بلاد الرافـدين (Chronique Mésopotamiennes)، باريس، الآداب الجميلة ص 230.

- كرامير (S.N Kramer) التاريخ يبـــدأ في سـومر (L'histoire commence à Sumer)، نشر دار آرتو، 1957، ص 189

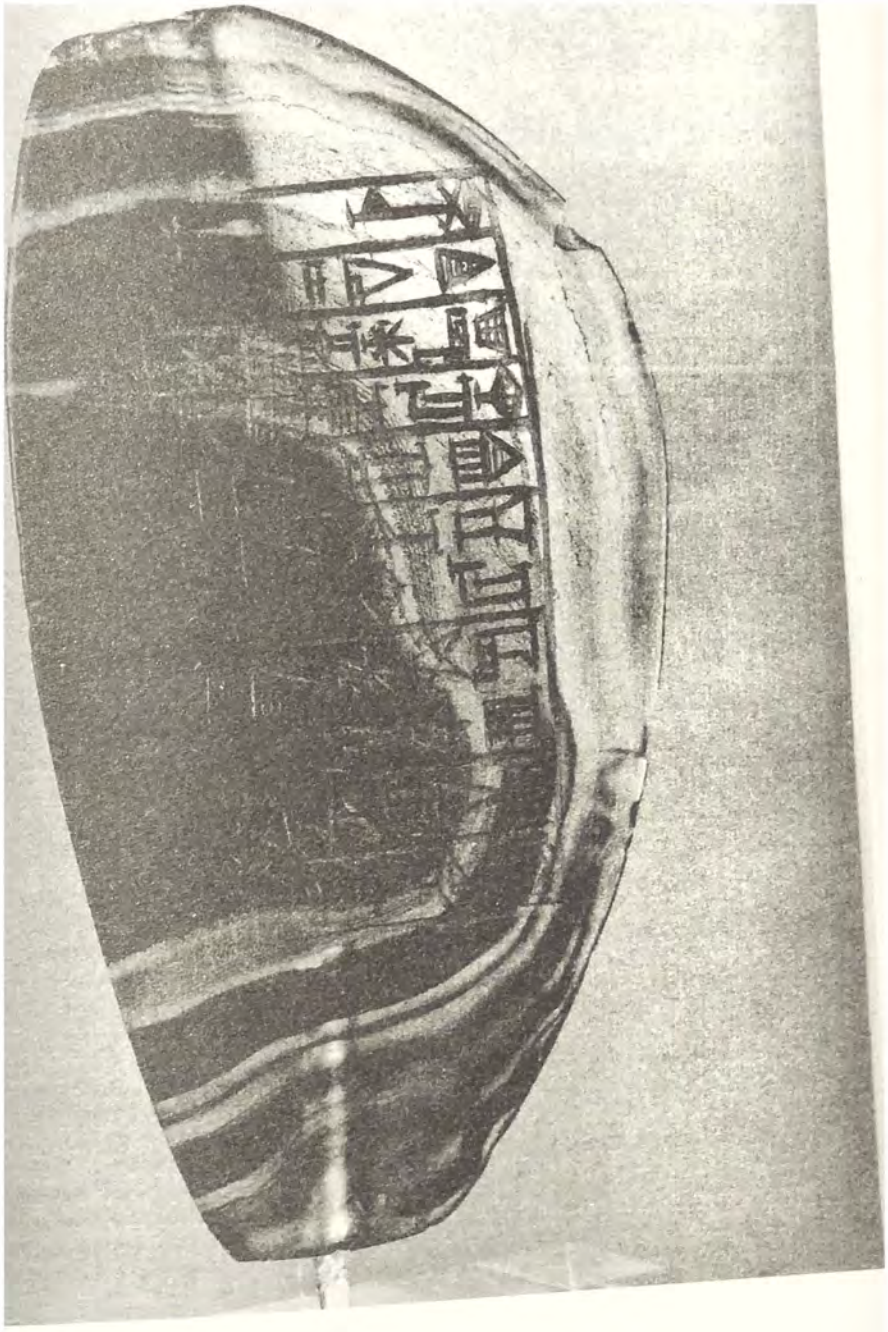

الفصل العاشر

إبي – سين، (IBBI-SIN) الملك واللؤلؤة

إبي ـ سين (2028– 2004 قبل الميلاد) السومري هو ابن شو ـ سين، حفيد شولجي، ورث دولة هشة، وكان من الصعب عليه فرض نظام الدولة الموحدة المثالية. طلب هذا الملك من إله القمر نانا أن يعمل على مساعدته، فكرس لؤلؤة جميلة مصنوعة من العقيق، وهي اللؤلؤة المحفوظة اليوم في متحف اللوفر في باريس، يقول الملك:

"إلى [الإله] نانا، سيد إبي ـ سين، وإله بلاده.

أنا الملك القوي، ملك أور، ملك المناطق الأربعة، الذي كُرست له [هذه اللؤلؤة] في فترة حياته." 1

تعرفنا الرسائل التي تبادلها إبي ـ سين مع حكام المقاطعات الذين كان قد اختارهم من بين العوائل الكبرى، على التدهور الذي حل بإمبراطورية أور الثالثة، لأنها لم تنجح في المحافظة على تماسكها. فقدَ الملك المقاطعات الخصبة والمدن الكبرى، مثل إشنونا وأوما ولكش وديير التي انفصلت عن بلد سومر واحدة بعد أخرى.

في عام 2017 قبل الميلاد، اخترق العموريون حدود بلاد سومر وشنوا هجوماً عليها. وأصبحت المواد الغذائية نادرة وارتفعت الأسعار

في أور الموسرة عاصمة المملكة، مدينة الفنانين الحرفيين والتجار والفخارين.

لذا، فكّر الملك أور "بإشبي ـ إيرا"، أحد ضباط جيشه من مدينة ماري (المدينة الواقعة في منطقة الفرات الأوسط) والذي لم يكن ينتمي إلى الأسرة السومرية، وإنما كان من أصل أكّادي، فكلفه بأن يشتري الحبوب من إيسين، تلك المدينة الواقعة في جنوب نيبور. وبينما كان يتوجه الملك إبي ـ سين نحو بلاد عيلام المتمردة حيث عاد مهزوماً، في الفترة عينها قام الضابط إشبي ـ إيرا بجمع المواد الغذائية وباشر بتخزين الشعير داخل مدينة إيسين فقط. وادّعى بوجود صعوبات منعته من إرسال المواد الغذائية هذه إلى أور عاصمة الدولة.

وطلب الضابط إشبي – إيرا من ملك أور إبي ـ سين بأن يكلفه بحماية مدينتي إيسين ونيبور المهددتين من قبل الغزاة العموريين الذين كانوا يخترقون حدودهما. بعد فترة، طلب إدارة مدينة إيسين. وأعلن فيما بعد استقلاله منتهزاً فرصة ضعف الإمبراطورية، واستولى أيضاً على مدينة نيبور.

على أن إبي ـ سين الملك الهمام والواعي بالأخطار المحدقة بإمبراطوريته، قام بتعزيز تحصينات مدينة أور. لكنه كان يعاني رغم قدراته العسكرية من ضعف إدارة والدفاع عن إمبراطوريته الهشة والمجزأة والتي تقلصت مساحتها.

هجوم العموريين

في عام 2007، اجتاح العموريون بلاد سومر، ولكنهم اضطروا إلى التراجع بمقاومة القائد إشبي– إيرا الذي استطاع التصدي لهجومهم. غير أن إعصاراً جديداً هب بعد ثلاث سنوات (2004) على بلاد السومريين، وعاد العموريون المتحالفون مع العيلاميين ومع قوم الشو

(شعب الجبال أو أهل شوش) ليجتاحوا بلاد سومر مرة ثانية، فتغيرت حالها لتصبح دولة الخوف.

حاصروا عندئذ مدينة أور التي تعرضت إلى الجوع والضعف، وكم من وقت استمرّ هذا الحصار؟ لقد سبب عنفاً شديداً وأدى إلى الذهول والصراخ والعويل، إنه شهر الدم. كيف كان الحماس البطولي الذي أظهره الملك وسكان أور لحماية مدينتهم؟ صحيح أنهم لم يتمكنوا من منع تدمير مدينتهم وحرقها، لكن رجالها تعرضوا إلى القتل ومعابدها العريقة تعرضت إلى التدنيس، والمنازل إلى النهب والسلب، وكان نصيب البساتين والحقول هو الاجتياح والأملاك أُفرغت من محتوياتها.

كما أن الطبيعة نفسها ساهمت هي أيضاً في الوصول إلى مثل هذا الخراب، إذ اجتاحت أحراشُ البرية الأطلالَ ونمت الأعشاب المجنونة داخل حقول الحنطة واقتحمت مرارة الماء قنوات أور.

أصبح إبي ـ سين تعيساً، ذاك الملك المهزوم والراعي الذي لم يتمكن، بالرغم من شجاعته المشهودة، من إنقاذ بلده ولا من حماية شعبه والاحتفاظ بمجده أمام التاريخ! لقد وجد قدره، وكانت تنتظره نهاية مظلمة ومأساوية. انغلقت العينان الحزينتان تحت الحاجبين، والنفس خافقة بالأسى، والقلب ممزقٌ. غادر الملك بأسف وحزن مرتدياً ثوبه البسيط إلى أعماق بلد "أنشان" الواقع في منطقة عيلام وأنهى حياته في الأسر. فهل حافظ لمدة طويلة على مرارة قدره القاتم؟ وهل تمتع، بعد أن جُرّد من كل شيء وأصبح أعزلَ من كل ما كان يملكه، باستعادة ذكرياته عن كل ما كان يحبه وعن قصوره وثرواته وجيشه وأصدقائه المخلصين وزوجاته؟ لابد أن مدينته أور الحبيبة على قلبه كانت حاضرة أمام عينيه وهي راقدة مثل قارب جانح، ما يكون مصيرها من بعده؟

ثم مسحت الرياح الشديدة آثار إبي ـ سين ملك أور الأخيرة الذي توفي في بلاد عيلام بعيداً عن مدينته.

أصاب الذهول أهل سومر وسكانها، وأخذ الألم مأخذه منهم، وسادهم البؤس أمام هذه الكارثة التي بدت لهم وكأنها تعلن لهم نهاية عالمهم. وشعروا بعجزهم أمام القدر، فقد غادر ملكهم إلى أرض أجنبية *"أرض ينظر إليها المرء وهو يطأطئ رأسه"*. وهكذا أطلقوا العنان لنحيبهم حول السور المهدم لعاصمتهم أور الحزينة.

مرت أجيال وأيام. استمرّ شعراؤها يحتفلون بعظمة أور أي بسومر وأكّاد، حتى بعد مرور زمن طويل على هذه الكارثة، فنظموا الشعر وكتابة المراثي الحزينة المؤلمة التي كانت ترثي دمار المدينة. لنقرأ سوية واحدة من تلك القصائد الموجهة إلى الإله القمر نانا:

"آه، أيها الأب نانا، لقد تحولت هذه المدينة إلى أنقاض...
وملء كسور الخزف موقعها عوضاً عن سكانها
لقد تحطمت أسوارها ونحب شعبها،
ها هي الجثث تضطجع تحت أبوابها،
حيث كان أهلها يتجولون في سابق الزمان في شوارعها،
وأماكن أعياد البلاد تضجع فيها اليوم قطع الأجسام.
أور، أقوياؤها وضعفاؤها ماتوا جوعاً،
وبقي الأبناء والأمهات قابعين في مساكنهم، فقد قهرهم اللهيب،
وها هم الأطفال نائمون على رُكَب أمهاتهم،
كالأسماك عندما تجاذبهم المياه.
لقد تركت الزوجة في المدينة،
وترك الطفل وتبعثرت الأملاك،
آه يا نانا، لقد تهدمت أور، وتبدد سكانها." 2

واستمر كتابها وشعراؤها يقولون متحسرين، كيف لا يصل نداء مؤلم إلى "نينكال" زوجة الإله نانا وحامية مدينة أور، عندما يتعلق

الأمر بمثل هذه الأحداث المأساوية التي تعرضت لها، فقد تم هدم معبدها الكبير؟ غادرت هذه الآلهة مدينتها، بعد أن حُرمت من منزلها ومن العبادة وبعد أن تكبدت إهانة بعد إهانة، وتوقفت عن منح الدعم والإسناد لها.

ها هو ذا نص يحكي ذلك:

"أيتها المرأة الفاضلة (ننكال) التي تهدمت مدينتها، كيف تتمكنين من الاستمرار في الوجود! لقد تحولت مدينتك إلى حقل من الأنقاض، ولم تعودي بعد اليوم سيدتها. إن شعبك الذي اقتيد إلى المجزرة، لم تعودي بعد اليوم ملكته. لقد أصبحت دموعك دموعاً غير مألوفة، وأرضك لا تبكي بعد. تشبه أرضك ذاك الإنسان المصاب، الذي يبقى فمه مغلقاً. لقد تحولت مدينتك إلى حقل من الأنقاض البالية، فكيف تتمكنين من الاستمرار في الوجود! لقد نُهب معبدك، فكيف تمكن قلبك من ارتكاب هذا الخطأ! يا أور، لقد سُلم معبدك إلى الرياح العاتية."[3]

كانت مسيرة التاريخ شبيهة بسلسلة من الأحداث الدورية لدى أبناء بلاد الرافدين، ولطالما توالت فترات المجد عليهم وتبعتها أزمنة الانحدار نحو الأفول. كانوا يعتقدون بأن الآلهة، الحائزة على ألواح الأقدار تمنح وتستعيد ما منحته، لأنها لا تحتاج إلى تسويغ أعمالها. وكانوا يعرفون أن الآلهة لم تكن دوماً مسؤولة بالنسبة لهم عن الكوارث التي تصيب مدنهم. اعتقد الناس بوجود قوة عالية لا يدركونها، لذلك كانوا يتحملون مجرى التاريخ.

وظن سكان الرافدين بأنه لا توجد مملكة ولا دولة بدون زوال، لأن الوقت الممنوح لها محدود: "صحيح أن أور قد نالت النظام الملكي، لكنها لم تستلمه إلى الأبد".

وأخيراً وصل يوم دولة أور الثالثة المجيد إلى المساء الأخير، ولكن كاتب وشاعر المرثية واثقٌ بغد أفضل ويأمل بولادة صباح جديد، فأنهى قصيدته بنغمة من الأمل:

"أيتها المدينة، ما زال اسمك باقياً، وإن كنت مهدمة." 4

إعادة تشييد أور: المركز الديني والميناء الزاخر

ولد صباح جديد وسطعت فيه إشعاعات طيف الألوان الشمسية المنيرة فوق أسوار مدينة أور، واستعادت المياه مجاريها ونبتت الحبوب من جديد وتفتحت الورود وانطلقت الأنغام في وسط حقول الحنطة المتأرجحة في مهب الريح. أُنشدتْ أغنية، صدحت بها الأفواه على نغمات العود بأيام بزوغ عصر جديد. وأحاط القمر ثانية بهالته الساطعة المدينة الشامخة. فقد نجح الملك "إشبي – إيرا" (2017–1985 قبل الميلاد) الذي كان يحكم في إيسين عاصمته، باستعادة أور من العيلاميين. ورفعها بعناية تامة من أنقاضها وأعاد تشييد بعض من مبانيها المدمرة.

في عام 1925 قبل الميلاد، استولى على أور الملكُ كونكونوم ملك لارسا الواقعة في شمال مدينة أور، التي كانت منافسة لمدينة إيسين. وبعد مدة، قام أحد ملوك لارسا "واراد ـ سين" (1834 – 1823 قبل الميلاد) بترميم باحة المدينة ومعابدها وأعاد إليها آلهتها. وكانت المدينة قد فقدت في زمن حكام لارسا قدرتها السياسية، ومع ذلك حافظت على أهميتها الدينية وحفظت على تقاليدها السومرية واستعادت قسماً من رفاهيتها. وهكذا استمرت في ممارسة نشاطاتها الاقتصادية المرتبطة بموانئها وبأعمالها التجارية مع منطقة ديلمون (البحرين حالياً).

لم تختفِ ثقافة السومريين بعد سقوط دولتهم، بل تركوا بصماتهم على الشعائر الدينية وعلى النظم الاجتماعية وعلى الآداب والفنون. بقيت وصمدت اللغة السومرية العريقة رغم تعرضها إلى التنافس من قبل الأكاديين، ومكثت قائمةً ومستخدمة من قبل الكتّاب العلامة.

استوعب العموريون بعد أن سيطروا على الحكم هذه الثقافة الغنية وطوروها. وهكذا تمكنوا من تأسيس الحضارة البابلية فيما بعد.

ليجري هذا النهر الحضاري ولتتدفق من بواطنه تواريخ الانتصارات وبزوغ المدن والممالك وظهور النزاعات والخسائر، وإن احتفظ بأسراره تحت مياهه البراقة. ليجري نهر الملوك والكهنة والكتبة والمعماريين، نهر شعب سومر وأكد، إنه نهر المزارعين والحرفيين وقادة السفن والتجار. نبع غير مرئي بدفقه السريع والعذب وبعزف الناي وقيثاراته العذبة.

هوامش الفصل العاشر:

1- متحف اللوفر، ترجمة جي شامبون (G. Chambon)

2- انظر: كرمير (S.N Kramer) نحيب على دمار أور (Lamentation over the destruction of Ur)،

3- بريتشارد (J. B. Pritchard): Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament. برينستون، 1969، ص 455-463

4- انظر: منشورات تايمس – لايف (Times-Life) سومر، أمستردام، 1993، ص 146

الفصل الحادي عشر

حمورابي ملك القانون في بابل

غادرتُ بلد سومر هذا، بنوره المشع وأرضه الشهيرة بالماضي المجيد ومدنه التي بدت لي أحياناً كأنها سراب. أشعرُ وأنا أسير في أجواء ذاك العالم الشامخ منذ آلاف السنين بأنني قد تخطيت آفاق الزمن...

توجهتُ إلى بابل "باب إيلي"، باللغة الأكّادية، أي "باب الإله". ها أنذا أرى تشكيلة واسعة من المرتفعات الصغيرة الصامتة والمغطاة بعشب ربيعي كثيف. وها هي قطعان الماشية ترعى فيها، بدت لي كأنها هنا منذ آلاف السنين. وأرى أشجار النخيل الباسقة وهي تتموج تحت سماء زرقاء ساطعة، وكأنها غابة من نجوم البحر.

توغل في نفسي هذا الاسم المقدس والأسطوري وأنا ألفظه بهدوء كلمة *"بابل"*. إنه اسم يمتلك حيوية روضة من رياض الأرض. ألمْ يُنر اسم بابل الذي طالما مجده الملوك الكبار، الشرق خلال عصور كاملة؟ إنه ما زال يشع اليوم داخل ذاكرة الناس.

بابل

يعود أصل بابل، الواقعة على ذراع نهر الفرات إلى الأزمنة القديمة. وفي زمن سلالة أكد، تحولت هذه المدينة المذكورة التي كانت

ضيعة مأهولة بالأقوام السامية، إلى مدينة محصنة. واستقرت فيها، بعد سقوط إمبراطورية أور الثالثة (2004 قبل الميلاد) دولة عمورية وجعلت منها مملكة صغيرة. وانطلقت هذه المدينة لتزدهر تحت حكم الملك حمورابي (1792 – 1750 قبل الميلاد)، الذي كان الملك السادس من سلالة ملوك هذه الدولة. وأصبحت مع مرّ الزمن عاصمة دينية وسياسية وفكرية.

لم يبق اليوم من آثار لمدينة حمورابي التي دمرها الزمن الغابر والتي غرقت بفعل صعود طبقة المياه الجوفية إليها، لكنني أستطيع أن أحلم بها وبمجدها...

تماثيل حمورابي

شكل حكم حمورابي رابطاً بين العالم السومري القديم والعالم السامي الجديد بأعماله ومشاريعه وقوانينه.

استطعتُ أن أرسم صورة لهذا الملك، ليس من خلال نزوات خيالي، بل بفضل العثور على تماثيل صغيرة تبرز ملامحه، والتي أدت إلى إعجابي بها في متحف اللوفر، وأيضاً في كتب الفن. أهدى أحد سكان مدينة لارسا في زمن الملك حمورابي، واحداً من هذه التماثيل الصغيرة إلى الإله مارتو، إنه التمثال المثبت على قاعدة متينة في اللوفر. ويُظهر هذا التمثال الصغير، الملك حمورابي وهو يؤدي الصلاة راكعاً على ركبتيه بمرونة مدهشة أمام صورة الإله جالساً على عرشه، ويده اليمنى مرفوعة أمام فمه. ويبدو الملك مرتدياً قبعة واسعة الحواشي وثوباً مزخرفاً بالبلوط، ووجهه مزين بلحية قصيرة ويديه مزركشتين بصفائح من أوراق الذهب والفضة. وتلوح في هذا التمثال عينا الملك مفرغة من حجريهما ومرصعة بقوقعة قيمة وبحجر اللازورد الثمين.

وقد عُثِر في مدينة سوس على تمثال صغير آخر مصنوع من حجر الطلق الدهني، والمنسوب عموماً إلى الملك حمورابي. وهو يعرض الملك مرتدياً قبعة عالية الأطراف تشبه في مظهرها قبعة الملك كوديا أمير لكش، وتبين على وجه الملك سيماء النحافة والإرهاق الناتجة عن تقدمه في العمر وشعوره بالقلق، وتظهر عيناه نصف مُغمَضَتَين، وشفتاه مشدودتين. كما يبرز التمثال لحية الملك وهي مجدولة بعناية تامة ومنظمة تنظيماً جميلاً وملتحفة الجانب السفلي من خديه. وتبدو عيناه تحت حاجبيه المنعقدين اللذين يلتقيان مثل سنبلتين تنظران إلى الأفق البعيد، معبرتَين بذلك عن صورة أمير سيد العالم، يملك الكثير من تجارب الحياة، وها هو ينهي عمله. كما يمكن للمرء أن يكشف وجود نوع من الحزن المخفي تحت سيماء الثقة الواضحة بنفسه. إنه ذلك الحزن المعبر عن معاناة الرجل الذي كان على وشك أن يواجه نهاية حياته وقصافة العظمة التي وصل إليها، وحتمية المصير العابر للحياة البشرية.

لاح وجه حمورابي اليقظ والكريم من خلال العدد الكبير من الرسائل التي بلغت مائة وخمسين رسالة، والتي تم العثور عليها في مدينة لارسا وفي مدن أخرى من بلاد الرافدين. تبرز هذه الرسائل – الموجهة إلى كبار الوجهاء في دولته – ما يبديه هذا الملك من الاهتمام بالموظفين الخاضعين لإدارته ودبلوماسيته المشهودة وموهبته في الإدارة. ولكن من كان يا ترى هذا الملك وما هي شخصيته؟

الفتوحات

حدث ذلك في عام 1792 قبل الميلاد عندما ورث حمورابي مملكة متواضعة، وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره، من والده سين ـ ماباليت، فتسلم مقاليد الحكم في بابل. وفي عام 1787، استل حمورابي؛ الذي كان يمتلك رغبة في توسيع أراضيه، سيفه من غمده

وغزا مدينتي أوروك وإيسين السومريتين، وبعد هذا الفتح بقي الوضع هادئاً. وانتظر بصبر قدوم اللحظة المناسبة للتحرك من جديد.

تدهورت العلاقات مع مملكة لارسا الواقعة في الجنوب لأنها استولت على مدينتي أوروك وإيسين الخاضعتين له، مما أدى إلى التحرك لشن الحرب على لارسا. وتمكن من وضع نهاية حاسمة لاستقلال هذه المملكة ووضعها إلى مملكة بابل.

واصل حمورابي فتوحاته إلى الشمال والشمال الغربي وهزم بدون رحمة أصدقاءه وحلفاءه السابقين الواحد بعد الآخر. وأخضع مدينة ماري الواقعة في الفرات الأوسط عام 1759، ثم استولى على آشور عام 1757 وإيشونانا الواقعة في بلاد الرافدين الوسطى في السنة التالية.

وتم توحيد الجزء الأكبر من بلاد الرافدين تحت صولجان حمورابي المنتصر الذي عزا نجاحاته إلى الإله مردوك، حيث أزاح شيئاً فشيئاً إله السومريين إينليل وأصبح الإله الأول في بابل.

منذئذ بذل عاهل بابل جهداً كبيراً لتوطيد متانة سلطته ولتعزيز قدرات إمبراطوريته الاقتصادية، التي شيدها في مدة لم تتجاوز العشر سنوات وجعلها إمبراطورية مركزية النظام، كما سعى إلى خلق شعور وطني لدى رعاياه. وفي عهده وضع حكاماً لإدارة مدينتي لارسا ونيبور. لقد كانت المدن تخضع لإدارة ولاة تابعين له وكان موظفو الدولة يعملون على جباية الضرائب والرسوم ويراقبون التجارة. وكان مسؤولو وسائل النقل يربطون بابل العاصمة بالمقاطعات البعيدة عنها.

قام حمورابي بتطوير بابل. وشيد فيها أسواراً، وبنى وجمّل المعابد وحفر قنوات الري وجعل من مدينته عاصمة كبرى ومركزاً دينياً وثقافياً. وأصبحت المدينة بفضل موقعها المميز في وسط البلد الخصيب، مركزاً تجارياً مزدهراً وسيطرت على الطريق الموصل بين الصين ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، إذ كان يمر بآسيا الوسطى وبلاد فارس وبلاد الرافدين.

مسلة حجر البازلت الأسود الشهيرة

أخذت الكتابة منذ مدة طويلة أهمية كبرى في بلاد الرافدين وكانت وسيلة للتأليف وللتحرير. وسابقاً كُتبت "قوانين" عديدة في أور وإشنونا وفي إيسين.

أمر حمورابي صاحب الخبرة الواسعة في هذا المجال بنقش "قانون" في كتابة كبيرة الحجم وأنيقة على مسلة عالية مخروطية الشكل ومصنوعة من حجر البازلت الأسود، ويبلغ ارتفاعها مترين وخمسة وعشرين سنتيمتراً. إنّها مصقولة بعناية تامة وهي المسلة التي أعيد نسخها ووضعت في مختلف مدن الإمبراطورية.

عثر علماء الآثار الفرنسيين عام 1901 على واحدة من نسخ مسلة حمورابي المشهورة في مدينة سوس، وكان العيلاميون قد أخذوها غنيمة من غنائم الحرب حوالي سنة 1200 قبل الميلاد. وقام علماء الآثار عندئذ بجلبها ووضعها في متحف اللوفر في باريس.

يتوقف اليوم زوار المتحف بشكل طوعي أمام المسلة السمراء الثابتة. إنّها تعبر عن عصر من عصور القوانين البشرية، ويشعر هؤلاء الزوار بوجود إرادة وحضور لعاهل كبير، وكأنه يعرض عليهم نظم ومواد قانونه العزيزة عليه.

يلاحظ الزوار صورة منحوتة على قمة هذه المسلة، إنه حمورابي التقي، واقف ويده اليمنى مرفوعة هو يصلي أمام شمش إله الشمس والعدالة. وتعرض المسلة الملك حمورابي مرتدياً قبعة مزودة بعصابة واسعة وثوباً بسيطاً وفضفاضاً ومزيناً بشارة، وهو يكشف عن كتفه الأيمن، أما الإله شمش نراه جالساً على عرشه، مرتدياً قبعة على شكل قلنسوة مزودة بقرنين وشعر معقود على شكل جديلة مسترسلة على عنقه، ويلبس ثوباً مجنحاً واضعاً قدميه على قاعدة مزينة بهضبات صغيرة، ترمز إلى الأراضي واللهيب الذي يتدفق من كتفيه. ويمد الإله له عصا (الصولجان) والطوق، رمزي الملوكية وهو يملي عليه قانونه الإلزامي.

يذكر حمورابي في ديباجته كيف منحت الإلهة إلى مردوك إله بابل، الجبروة وأعطت لبابل العظمة وأسدت له الملوكية:

"حينما ميز الإله السامي آنو؛ رب الآلهة السامية، وإينليل؛ سيد السماوات والأرض الإله الذي يثبت مصير البلد، مردوك الابن البكر للإله إيا، منحوه القدرة التامة، ومجدوه من بين الإيجيجي (آلهة الرتبة الثانية).

وهكذا (حينما) لفظوا اسم بابل العظيمة، جعلوها مهيمنة على أربعة أركان العالم. وحينما أعدوا لـ مردوك في وسطها (بابل) ملكية أبدية، أصبحت أسسها متينة مثل أسس الأرض.

وعندئذ عظّمت (الآلهة) اسمي أنا، حمورابي، الأمير الورع، الذي يمجد الآلهة؛

من أجل نشر القانون في البلاد والقضاء على الشرير والمنحرف،

ومن أجل ألا يظلم القوي الضعيف،

ولكي أظهر أمام الناس مثل الشمس التي تنير البلد.

(إنه اسمي) الذي لفظه الإلهين آن وإينليل لتأمين السعادة للناس"[1]

أعلن حمورابي في ديباجته هذه، أعماله السياسية وأفعاله التقية وفتوحاته التي أتاحت له حكم دولة قوية مثل دولته.

قانون مسلة حمورابي

لم يكن "القانون" بصيغته الأصلية وبشكله ومحتواه، قانوناً مدنياً مثل قانون نابليون، بل هو عبارة عن مجموعة من الأحكام العدلية، متكاملة إلى حد ما، ومنظمة على طريقة لوائح قانونية للسومريين، التي أرادت أن تحاكي نظام العالم. كانت بعض المواد تجيب عن حالات معينة صادرة سابقاً أو مأخوذة من الأعراف السائدة. لم يعرض هذا القانون مادة شاملة للجميع بل عرض الحالات الخاصة للناس.

وقد قام الباحثون المعاصرون بتقسيم "القانون" إلى 282 مادة. حُرر بالكتابة المسمارية وباللغة الأكّادية الغراء وبأسلوب شرطي، إذا وإذا....

رسم هذا القانون لوحة للمجتمع البابلي وأدى دوراً هاماً لتنظيم الحياة اليومية.

وكان المجتمع ينقسم في ذلك الوقت إلى طبقات ثلاث. أولها طبقة الرجال الأحرار (الأويلو) المتمتعين بكامل الحقوق، إنهم القادة والأطباء والموظفون والحرفيون والعسكريون.

الطبقة الثانية هم التابعون (الموشكينو) الذين يتمتعون ببعض الامتيازات ولكن يجب عليهم إنجاز الخدمات والأعمال المرهقة (السخرة) للدولة.

أما الطبقة الثالثة فهم العبيد (الوردو)، ويأتي ترتيبهم في أسفل السلم الاجتماعي، وهم أسرى الحرب والأفراد العاجزون عن تسديد ديونهم. وكان لديهم أمل بالخروج من هذه الحالة. إذ كانوا يتمتعون بالحقوق وبشخصية قانونية. وكان من الممكن (للوردو) حليق الرأس والحامل لخصلة تميزه عن الآخرين أن يتزوج من ابنة رجل حرّ وأن يخلّف أطفالاً أحراراً، ومن حقه أن يقتني الأملاك وأن يتحرر من العبودية. ويتعرض الوردو في حالة الفرار إلى عقوبات قاسية ومنها تنفيذ عقوبة الموت بحقه.

وكان هذا القانون يشجع النشاط التجاري، ويعطي أهمية كبيرة للشاهد وللعقد:

"إذا قدّم (تاجر) قرضاً (من الشعير أو الفضة) بدون (شهود ولا عقد)، فسوف يخسر كل شيء (كان) قد أعطاه" (المادة 65).

وكان القانون الخاص بالعائلة ذات النمط الأبوي والذي يشكل أساس المجتمع، يعالج مواضيع متعددة كالإرث والتبني. ويتناول أيضاً وضع الزوجة التابعة لزوجها، لكنها تملك شخصية شرعية

باعتبارها "مواطنة"، وكان يسمح لها بتلقي هبة تسجلها باسمها بموجب عقد، وبالسهر على مصالحها بعد وفاة زوجها".

"إذا أعطى رجل زوجتَه أرضاً أو بستاناً أو منزلاً أو أثاثاً (وإذا) كان قد سلم لها وثيقة مختومة، فبعد (وفاة) زوجها، لا يستطيع أولاده أن يطالبوا (بها). ويمكن للأم أن تترك إرثها لولدها المفضل، لكنها لا تتمكن من نقله إلى غريب" (المادة 150).

وكان الاغتصاب يخضع إلى عقوبة قاسية جداً، والخيانة الزوجية (الزنا) محظورة، وارتكاب المحارم ممنوعة تحت طائلة النفي (المادة 154). تلك الحالة لم تكن مطبقة في مصر، إذ كان الفرعون قادراً على الزواج من ابنته البكر.

وكانت بعض مواد القانون تعالج القضايا المتعلقة بالأطباء والحلاقين والفلاحين والعبيد.

في القانون الجزائي صرّح حمورابي أنه لا يمكن إدانة شخص من دون أدلة. كان همّه أن يكشف نية الجاني، وقد وضع عقوبات تتناسب مع الذنوب المُرتكَبة، لكنها كانت تتباين بحسب مقام الضحيّة. واعترف القانون بالظروف المُخفِّفة للحكم. كما أكّد مفهوماً خاصاً لتعويض الأضرار.

وظهر قانون العقوبة بالمِثْل، الذي أُخِذَ به في *الكتاب المقدّس* لاحقاً، وهو على النحو الاتي:

"إذا قلع أحد عين إنسان حُرّ، فسوف تُقْلَعُ عينهُ" (المادة 197)

ولكنه لا يدفع إلا "منة" واحدة فقط إذا كانت الضحية من طبقة النبلاء.

وكانت العقوبات تطبّق أيضاً على حوادث عائدةٍ إلى الإهمال، مثلاً:

"إذا عمّر بنّاء بيتاً لأحد الناس، ولم يُدعّم بناءه، ثم تهدّم هذا البيت ومات صاحبه، فسوف يُقتَل البنّاء" (المادة 229).

قدم حمورابي نفسه في ديباجة قانونه المحرر على شكل أنشودة تمجده وتحيي ذكراه، لأنه الراعي الصالح. فهو الملك الذي وفّر لأهل

سومر وأكد السلام ومياه الرخاء وهو الذي أظهر اهتماماً بالإنصاف والعدالة، فبلغ منشأ الحكمة.

ويقول:

"الآلهة العظيمة هي التي سمَّتني، وأنا وحدي الراعي المُنْقِذ ذو الصولجان القويم. يمتد ظلي الملائم على مدينتي. وقد ضَمَمْتُ إلى صدري شعْب بلاد سومر وأكاد. وبفضل حمايتي لهم عرفوا رَغَد العيش، إذ لم أتَوانَ عن حُكْمهم في جوٍّ من السلام. وبحكمتي حميْتُهم" (مقدمة المسلة).[2]

طلب حمورابي من الملوك الذين خلفوه من بعده التقيد بهذه القوانين، والتمس من آلهة السماء والأرض الكبرى أن تصيب اللعنة كل شخص يجرؤ على تشويه مسلة القانون.

العدالة التاريخية المجسدة

أراد حمورابي من خلال سهره على كتابة "قانونه" أن يُنظِّم الحياة السياسية والاجتماعية في إمبراطوريته. فهل كان يحاول أن يصنع وعياً وإرادة قوية لرعاياه؟ أم أراد أن يكتشف أغوار نفس البشر؟ فالحرية لم تكن تعني أن يترك الإنسان نفسه لقيادة الغرائز والنوازع والأهواء. فلا يوجد مجتمع من دون قانون عند مواطني بلد مُنظم، ولا دولة من دون شرائع تعطي العقوبات على الجرائم المرتكبة. ومن غير الممكن أن تتوفر الحرية بدون قانون يتكفل بتنظيم العلاقات بين الناس وبين الشعوب.

ويبدو أن قوانين حمورابي كانت تعاقب خصوصاً الانتهاكات الموجهة ضد النظام الاجتماعي والعائلة والملكية، بدون أن يهمل الممارسات الفردية.

هل كان حمورابي ملكاً عادلاً وشفوقاً؟ لقد أرسى دعائم الشرع في المدينة، وأقام بعض المساواة بين مختلف الأفراد أمام القانون. وإن لم يضع نهاية للامتيازات العائدة إلى النسب والوظيفة، لكنه لم يحط من

شأن أصوات رعاياه من الدرجة الثانية الذين أثّروا إلى حدّ ما في سياسته. فقد حمى الملك الضعفاء، والذين لا سند لهم، والمظلومين، واليتامى، والنساء، والأرامل، حماهم من البؤس وسوء المعاملة والإهمال وشجن الطلاق. ورفض تهميشهم وإضعافهم، وهذا ما لم تحققه دوماً الأوطان الحديثة، أو التي تدّعي اليوم الحضارة. كما أظهر اهتماماً بالمساواة بين أفراد كل طبقة، لأن كل واحدة من الطبقات الثلاث المتواجدة في المجمع لها أحكامها. بل كان الحق والكرامة واحترام حقوق كلّ فرد يطبق وفق مستواه الاجتماعي.

إنّها عدالة واقعية، مرتبطة بزمانها، وبقواعدها، وثقافتها، ومجتمعها المتأثر بالدين، والقاسي أحياناً.

تقويم نيبور

بالإضافة إلى قانونه، فرض حمورابي على كامل أجزاء بلاد الرافدين، استعمال تقويم مدينة "نيبور"، ذلك المركز الديني الكبير لبلاد سومر. استعمل هذا التقويم فيما بعد لمدة وصلت إلى ألف وخمسمائة سنة، أي لغاية فتوحات الإسكندر الكبير، وتبني بعدئذ أبناء الرافدين التقويم السلوقي الذي يستعمله السريان لغاية اليوم.

كان تقويم نيبور مثله مثل كافة التقاويم السومرية يرتكز على أخذ بداية القمر كنقطة مرجعية رئيسة. فتبدأ السنة اعتباراً من يوم اعتدال الربيع، وكانت الأعياد الرئيسة لإكيتو (السنة الجديدة) تمثل مناسبات للاحتفال بها. وكان الشهر الواقع بين ظهورين متتاليين للقمر الأول، مقسماً إلى 29 أو 30 يوماً، ومن الضروري إضافة شهر للسنة بين فترة وأخرى، أي نوع من الشهر المزدوج. أجل، لقد أمرً حمورابي باستعمال هذا التقويم وإضافة شهر جديد لأسباب اقتصادية، و تم ذلك عندما طلب من أحد حكامه:

"يكون شهر إضافي لهذه السنة. ويجب أن يتم اختيار الشهر الآتي كما لو كان شهر "إيلولو ثاني" (آب ـ أيلول) وفي كل مكان حيث يتم فيه جلب الضريبة إلى بابل بتاريخ 25 من شهر تشريتو آأيلول – تشرين الأول)، فيجب من الآن فصاعداً أن يتم جلبها إلى بابل بتاريخ 25 من شهر أيلولو الثاني." 3

كان النهار يبدأ عند الفجر و ينقسم إلى اثنتي عشرة مدة، مساوية لساعاتنا الحالية. وكانت الساعة المائية (العاملة بالماء)، والمزولة الشمسية والبولوس (نوع من الساعات) كانت تستعمل لقياس الزمن في أرجاء الإمبراطورية.

شهرة حمورابي

أدى "هذا القانون" إلى منح الشهرة لحمورابي. وأصبح قانون حمورابي شاهداً كبيراً للتاريخ السياسي والاجتماعي لمدينة بابل. لم يكن مجرد وسيلة لتربية يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وإنما لم يصل أي قانون قبله إلى مثل هذه السعة، أو تمكن من إدخال مثل هذا العدد الكبير من الإصلاحات.

استُخدم هذا النص الذي تمت كتابته بعناية تامة لمدة قرون عديدة، كنموذج يحتذى به في مدارس بلاد الرافدين التي أعادت نسخه مرات كثيرة، ونموذجاً في ما بعد للتلاميذ الدارسين اللغة الآشورية. وقد بلغت فيه اللغة الأكّادية البليغة غاية الكمال في تركيبات جملها ومفرداتها. وقد أدى أسلوب مسلة حمورابي الوجيز وجمال كتابتها إلى تسميتها بالكتابة الفاخرة وكانت تمثل عملاً فنياً رائعاً.

وعلى الرغم من ثغرات هذا "القانون" المشهور والمتميز بقيمه الكونية، فقد وجّه البلد بأكمله وأدخله في طريق النظام المنصف، وألهم كل بلدان الشرق القديم.

تركتُ بابل وغاباتٍ نخيلها الباسقة، وأنا أحمل ذكريات حمورابي، الملك المنتصر والبنّاء والمخلص للآلهة وراعي شعبه والمشرّع الكبير. وكنتُ أعلم حق المعرفة بأن الغرب قد خلد اسمه عبر بلاد اليونان وروما.

لم يعمل هذا العاهل القوي على حجب مجد سرجون ونارام ـ سين أو شولجي، الملوك المشهورين الذين سبقوه، ولم يحاول أن يكون معبوداً بعد وفاته ولا بطلاً أسطورياً. ولكنه بقي مع ذلك الحاكم القوي، وشمس بابل، وواحداً من أشهر الوجوه المعروفة في بلاد الرافدين.

أورث حمورابي لابنه شامشو ـ إيلينا (1749 – 1712) إمبراطوريته، ولكن هذا الأخير لم يبق على العرش سوى بضع سنوات، وهو الذي رأى أراضيه تنحسر شيئاً فشيئاً، وموارد دولته تنخفض تدريجياً، والحالة الاقتصادية والاجتماعية تتدهور.

وكان عليه أن يواجه أهل بلدان البحر، تلك المناطق المجاورة للخليج، ويجابه الكيشيين القادمين من زغروس، الذين ازداد عددهم سنة بعد أخرى في بابل وانتهى بهم الأمر إلى أن يستولوا على العرش. وهكذا أسسوا فيما بعد دولة كبرى وحكموا المنطقة خلال قرون كاملة من الزمن.

هوامش الفصل الحادي عشر:

1 قانون حمورابي: A. Finet دارالنشر Cerf باريس 1996 ص31.

2 قانون حمورابي، A. Finet دارالنشر Cerf باريس 1996 ص، 136.

3 F. Joannes قاموس حضارة بلاد الرافدين، باريس ص 153.

القسم الثاني

موطن آشور وبلاد الكلدان

قبل مدة، كتب عالم الآثار الفرنسي المشهور أندريه بارو André Parrot في مقدمة كتابه عن آشور:

"تمثل كلمة آشور بمقطعين لغويين فقط، مهد شعب لم يكن ميله الرداءة أبداً..." 1

في الألفية الثالثة قبل الميلاد، استقرت شعوب في بلاد آشور الواقعة في بلاد الرافدين العليا. وكانت "المدينة ـ الدولة" لبلاد آشور الواقعة على نهر دجلة، تشكل مقاطعة تابعة إلى الامبراطوريات الأكّادية (2335 – 2155 قبل الميلاد) وأور الثالثة السومرية (2112 – 2004 قبل الميلاد). وأصبحت آشور بعد سقوط هذه الإمبراطورية الأخيرة مستقلة وغنية بفضل التجارة التي كان يمارسها أهلها باتجاه بلاد الأناضول وقبدوقيا.

وفي نهاية القرن التاسع عشر، قام شامشي ـ أدادا (1807 – 1776 قبل الميلاد) عموري الأصل، بفتح بلاد آشور وأسس

مملكة صغيرة فيها. أصبحت آشور في القرن الثامن عشر خاضعة إلى حمورابي عاهل بابل، ثم صارت في سنة 1500 قبل الميلاد تابعة إلى دولة ميتاني المتمركزة في شمال بلاد الرافدين.

ونجح ملك آشور الكبير أوباليت الأول (1365 – 1330 قبل الميلاد) بتحرير المملكة الآشورية من سيطرة القوة الميتانية، وأصبحت بذلك دولة تحكم أراضيها بفضل سلسلة من الانتصارات، وامتدت مساحتها عندئذ لتشمل المناطق الواقعة غرب آشور. وأنهى أدادا ـــ نيراتي الأول (1307 – 1275 قبل الميلاد)، وشلمناصر الأول (1274 – 1245 قبل الميلاد) الاستيلاء على بلاد الرافدين العليا. واستمر ابنه، توكولتي – نينورتا الأول (1244 – 1208 قبل الميلاد) في سياسة الحملات، وكان الملك الأول الذي أخضع بلاد بابل إلى سلطته. وهكذا استمرت ملحمة الأشوريين إلى بداية القرن السابع الميلادي.

أما الكلدان، فقد سطع نجمهم وتألقت عاصمتهم بابل خصوصاً في عهد الملك نبوخذ نصر منذ القرن السابع الميلادي واشتهرت بزقورتها وبوابة عشتار الرائعة وبعلومها وآدابها.

109

الفصل الأول

حكم مجيد

توكولتي – نينورتا الأول

كان توكولتي ـ نينورتا الأول (1244 ـ 1208)؛ ملك بلد آشور القوي، محارباً مهيباً حمل النصر إلى متاخم بلاد سومر وأكد.

ظهرت ملامحه مرتين على الهيكل المهدى إلى إله الكتابة نابو، (المحفوظ اليوم في متحف برلين)، وهو في حالة الصلاة واقفاً أو راكعاً، ويده اليمنى مرفوعة إلى الأعلى. وتراه مرتدياً ثوباً طويلاً مزوداً بأهداب مزينة، وها هي قسمات وجهه ولحيته الطويلة وحميته وملحمته تبرز جلية. إنه العاهل الذي لم تتمكن أسوار بابل من ردعه خوفاً. هوذا يمسك بيده اليسرى صولجاناً، رمز السلطة.

الملك الفاتح

باشر توكولتي ـ نينورتا خلال السنوات العشر الأولى من حكمه بشن حملات عسكرية نحو زغروس ومنطقة الكوتيين. وتتحدث الكتابات الخاصة بالملك عن أعمال تدمير وسلب المدن التي احتلها. مما أدى إلى

القضاء على أية رغبة بالتمرد، ودفع بالسكان إلى الخضوع التام ودفع ضريبة له.

أرسل الملك الحيتي "تودهاليا" الرابع الذي كان يحكم منطقة الأناضول الوسطى رسالتين إلى توكولتي ـ نينورتا وإلى وزيره الكبير بابو ـ آها ـ إيدينا، يمدح فيهما بسالة الملك، و يوصيه فيهما بعدم التوجه إلى بابانهي (منطقة ديار بكر حالياً).

على أن توكولتي ـ نينورتا شن مع ذلك، حملة نحو أعالي نهر دجلة في جبال كاشياري (طور عابدين اليوم) وفي مملكة ألشي (شمال ديار بكر). وتمكن من تحطيم حلف مكون من 40 إمارة، ثم اقتحم بلد نايري (بالقرب من بحيرة وان). وشن هجوماً كاسحاً على أراضي الحيثيين، وهو ما أدى إلى امتعاض هذه المملكة القوية منه.

الاستيلاء على بابل

قام ملك بابل الكيشي كاشتيلياش الرابع، حوالي سنة 1232 بغزو جنوب بلد آشور واستولى على مدينة رابيكوم (الواقعة على نهر الفرات) وعلى مدينة أرافا (منطقة كركوك).

ردّ عندئذ توكولتي ـ نينورتا بقوة على هذا العمل ووصل إلى بابل (كاراندونياش: كان اسم بابل) مستعيناً بالإلهين الكبيرين إينليل وشمش، فانتصر على جيش كاشتيلياش الرابع ووضع الملك "المنتهك للقسم" في الأسر. ويحدثنا بهذا الصدد في إحدى كتاباته:

"في وسط القتال، قبضت بيدي على كاشتيلياش، ملك الكيشيين ودعست رقبته الملكية كما لو كان كبشاً مقيداً وجلبته أمام سيدي آشور. وهكذا أصبحتُ حاكم سومر وأكد بالكامل وثبّتُ حدود بلدي من البحر السفلي (الخليج)، إلى بلاد المشرق." 1

وقد تم احتلال بابل حوالي سنة 1228 عندما شن حملة ثانية بالرغم من مقاومة الكيشيين، فدمّر تعزيزاتها وأباد جزءاً من سكانها أو أبعدهم وسلب ونهب معابدها ومكتباتها. وقام بنقل تمثال الإله مردوخ إلى عاصمته آشور. وروت تلك الأحداث، إحدى الحوليات المؤرخة في العصر البابلي المتأخر (القرن السادس قبل الميلاد) المعروفة باسم *"تاريخ الملوك الكيشيين"*.

وهكذا، قام توكولتي ـ نينورتا بإدارة بابل (كاراندونياش) مدة سبع سنوات من قبل حكام وملوك عينهم بنفسه لهذا الغرض. وعيّن ملكاً على بابل إينليل ـ نادين ـ شومي، لأنه كان مناصراً للآشوريين في نيبور، ولكنه تعرض بعد فترة إلى الخلع عن الحكم من قبل العيلاميين المعتدين.

وبعد فترة، تعرض أيضاً الملك عداد ـ شوما ـ إيدينا الذي كان قد تم تنصيبه في بابل من قبل الآشوريين إلى الانقلاب، والإطاحة به على يد الأعيان البابليين، وأعادوا إقامة مملكتهم البابلية، فنصبوا عداد ـ شوما ـ يوزور على عرش بلادهم.

مؤسس عاصمة

حصل توكولتي ـ نينورتا، الملك الفخور والباسل "ملك بلاد آشور"، على ألقاب ممتازة أخرى: "ملك سومر وأكد" و"ملك المناطق الأربع و"ملك سيبار وبابل" وفي عهده أمر بتحرير ملحمة جميلة، تم نقشها على لوح من الحجر حملت اسم "ملحمة توكولتي ـ نينورتا"، لكي يروي فيها أحداث حربه ضد الملك كاشتيلياش الرابع، والتغني بأعماله البطولية. وقام بإنشاء قصر جديد داخل آشور في الشمال الشرقي من المدينة وقام بتزيينه باللوحات الجدارية.

أدت الحروب وأعمال السلب وفرض الضرائب وجلب السكان إلى بلاده بالقوة إلى إغناء بلاد آشور. قام توكولتي ـ نينورتا بتشريد وجلب

مجاميع بشرية من الحوريين والكوتيين والحيثيين الذين استخدمهم كعمال، واشتغلوا في مهنة البناء على الأراضي الجدباء وفي المزارع الواقعة على ضفاف نهر دجلة، وشغّلهم أيضاً لإنشاء معبد محصن بزقورة مُخصّص لإله آشور ولتشييد مدينة جديدة تحملت اسم كار ـ توكولتي ـ نينورتا. وفي عهده أُنشئت مدينة مجهزة بسور امتد على 700 متراً وأنشأ قصراً واسعاً رحباً. وحفر الملك قناة، حملت اسم باتو ميشارو "قناة العدالة الرحيمة"، لريّ الأراضي الواقعة حولها وجعلها صالحة للزراعة.

النهاية المأسوية للملك توكولتي – نينورتا

لم تتوفر للملك توكولتي ـ نينورتا فرصة التمتع لمدة طويلة بعاصمته الجديدة وبالأعمال الكبيرة المنجزة. في نهاية حياته خسر مساحات هامة من أراضيه، ووقعت اضطرابات كان عليه أن يواجهها في بلاد بابل وبسبب قلة المحاصيل من الحبوب، أدت كل هذه العوامل إلى زيادة الامتعاض في بلاده.

هل حدث نقص في بصيرة العاهل القوي الذي كان جاهزاً لتحقيق طموحاته وأحلامه قبل أن يرى الأزمة وهي تتصاعد في بلاده؟ هل تخلى عن أخذ الحذر والحيطة والاستعداد لمواجهة الأحداث؟ في عام 1208 قبل الميلاد، تمرد ضده ابنه آشور ـ ناصير ـ أبلي (أشور ناصيربال) ونبلاء آشور. ولم يرغبوا مثل كهنة المدينة أن تفقد مدينة آشور مكانتها وشأنها كعاصمة للملكة. فقبضوا على شخصه الملكي وخلعوه من العرش ووضعوه في السجن داخل قاعة قصر كار ـ توكولتي ـ نينورتا.

يا توكولتي ـ نينورتا، ملك بلاد آشور وسومر وأكاد، ويا ملك سيبار وبابل، ها هي ساعة خيبة أملك قد دقت، وأوان وجعك وإحباطك ويأسك قد حل. لا تنتحب ولا تتأوه، فقد اقترب الأجل

بخطوات واسعة. وقع الآن بقبضة ابنك هذا القصر وهذه القاعة حيث تم احتجازك فيهما، والسلاح الذي كان قد تم طرقه عند برد صباح جميل...

كانت تفوح من نهايتك رائحة الذل، ذلك الموت الذي يرويه باختصار "*تاريخ الملوك الكيشيين*". يتهم هذا التاريخ بأن الملك الذي أصبح عجوزاً، كان قد ارتكب عملاً محرّماً عندما رفع يده ضد بابل واستولى بحماقة على تمثال الإله مردوك.

ومع ذلك فقد تم إعلان حداد عام في بلاد آشور عند وفاة توكولتي ـ نينورتا. وتوجه النبلاء الكبار والملوك الأجانب في هذه المناسبة إلى العاصمة الدينية القديمة، آشور.

تلت هذه الأحداث الاضطرابات، فتمكن من استيلاء ابن آخر من أبناء توكولتي ـ نينورتا، وهو آشور ـ نادين ـ أبلي (1207 – 1204 قبل الميلاد على العرش، ولكن آشور ـ ناريلاي الثالث استولى على العرش بعد ثلاث سنوات من ذلك، وحكم البلاد لمدة خمس سنوات.

عندئذ تعرضت العاصمة الجديدة التي كان قد أسسها الملك توكولتي ـ نينورتا المعروفة تحت اسم "كار ـ *توكولتي ـ نينورتا*"، إلى الإهمال. فعادت مدينة آشور لتصبح المدينة الرائعة بعرشها الخالد ومعابدها.

هوامش الفصل الأول:

1- كريسون (A.K. Crayson)، الكتابات الآشورية الملكية (Assrian Royal Inscriptions) ويزبادين، I، ص 108.

116

الفصل الثاني

وجها آشور ناصربال الثاني

تابع تاريخ بلاد آشور مسيرته. التي اشتق اسمها من إله آشور ومدينة آشور. كان على شعب بلد الإله آشور وحكامه أن يواجهوا. اعتباراً من القرن الحادي عشر توسع الآراميين. ذلك الشعب السامي الأصل الذي كان يقطن في منطقة الفرات الأوسط. وفقدت آشور جزءاً من أرضها.

بدأ ملوكها بفتوحات آشورية اعتباراً من منتصف القرن العاشر. بفضل أدادا ـ نيراني الثاني (911 – 891 قبل الميلاد) الذي طرد الآراميين من أعالي بلاد الرافدين التي كانوا قد احتلوها، وصد البابليين الذين كانوا قد استقروا على الجانب الأيسر من نهر دجلة.

ثم قام وريثه بالهجوم المعاكس في القرن الحادي عشر الملك المعروف توكولتي ـ نينورتا الثاني (890 – 884 قبل الميلاد). واصل حملاته لإعادة المقاطعات مجدداً واجتاز جبال كاشياري (طور عابدين حالياً) الواقعة في الشمال وشن حملة في سهل أعالي نهر دجلة. ثم نزل في سنة 885 نحو الجنوب الغربي ووصل إلى بلاد لاكي وسوهو الواقعة في منطقة الفرات الأوسط، وأخذ من هذه البلاد الضرائب المفروضة عليها وجلب منها غنائم كثيرة. بعد أن قضى قسماً هاماً من حكمه بشن حملاته العسكرية، تمكن هذا الملك المقدام من إضافة

"بلدان إلى بلاده وسكان إلى سكانه". وهكذا حصلت بلاد آشور على قدراتها العالية وقويت إمكاناتها، فبدأت بتكوين إمبراطوريتها.

وكشجرة الأرز الكثيفة مدت أغصانها، وقذفت أعاليها نحو السماء.

آشور ناصربال الثاني: مؤسس الإمبراطورية الآشورية الجديدة

يُعَدّ آشور ناصربال الثاني (884 ـ 859 قبل الميلاد) ابن توكولتي ـ نينورتا الثاني، المؤسس الفعلي للإمبراطورية الآشورية الجديدة.

توقفتُ في قاعة من قاعات المتحف البريطاني الذي زرته مؤخراً، أمام تمثال مصنوع من حجر كبير بعض الشيء. تعود ملكية هذا التمثال إلى معبد الآلهة عشتار في مدينة كالح، عاصمة بلاد آشور، إنه يُظهر آشور ناصربال برأسه المكشوف وبحجمه الطويل والفخم وبمظهره الجليل. ويبدو الملك في التمثال ملتحي الوجه وشعره مجعد بعناية، مرتدياً قميصاً مغطى برداء مزركش بأهداب يلفه حول بدنه وهو يمسك بيديه رموز السلطة المتمثلة في سلاح مقوس وسلاح آخر أشبه بالسيف. بدا لي عندئذ كأنّ الملك الكبير ينظر إليّ بصفاء. فمن كان يا ترى ملكنا هذا؟ لقد منح آشور ناصربال لنفسه في حولياته نوعاً من التضخيم في ذكر ألقابه وتغنى بسموه العالي. وكان لهذا الملك كافة صفات الحاكم الآشوري المتمثلة في القوة والطموح والطاقة والشجاعة والبهاء.

هي ذي إحدى حولياته:

"آشور ناصربال، ملك آشور، الملك العظيم، الملك القادر، الملك الذي لا مثيل له في العالم، ملك مناطق العالم الأربع، شمس جميع الشعوب، الملك الباسل...

الرجل القوي الذي يطأُ الأعداء بقدميه... والذي يستلم الضرائب والرسوم الواردة من مناطق العالم الأربع، والذي يقبض على رهائنهم. إنه المنتصر على شعوب المناطق الأربعة، ابن توكولتي ـ نينورتا، الملك

القدير، ملك آشور، ابن أدادا ـ نيراري، الملك القدير، ملك آشور. إنه الرجل الباسل الذي تؤيد أعماله آلهة آشور، حداد وعشتار ونينورتا وحلفائه أيضاً. (الملك) الذي لا يعرف أي منافس له من بين أمراء مناطق العالم الأربع، الملك القادر الذي وسع فتوحاته من شواطئ نهر دجلة حتى جبل لبنان وإلى البحر الكبير لبلد عمارو..." [1]

ولكن آشور ناصربال، الملك القوي، بقي متواضعاً وخاضعاً وتقياً تجاه آلهته، التي كانت تمثل في نظره سادة بلاده والتي كانت تسانده في كافة أعماله.

حملات آشور ناصربال الرئيسة

كان آشور ناصربال مثل أبيه، يرغب من كل قلبه في تطوير القوة الآشورية وتوسيع دائرة امتدادها.

شنّ ما بين عامي 883 و 882 في الجنوب الشرقي من آشور حملات مسلحة نحو وادي الخابور السفلي وبلاد سوهو منطقة الفرات الأوسط، ولكن سوهو تمكنت وبالرغم من ادعاته بالنصر، بالحفاظ على استقلالها.

و بعدئذ حارب بين سنتي 881 و 880 في شرق بلاده، باتجاه زاموا (منطقة السليمانية).

وأرسل جيشه أيضاً إلى الشمال الغربي، في منطقة نايري ومنطقة شمال نهر دجلة وفي جبال كاشياري (طور عابدين).

ولم يتردد في مهاجمة دولة بيت أديني الآرامية الواقعة على جانب نهر الفرات وأخضع ملكها لسلطته.

كانت الحرب عملاً منتظماً ومفيداً اقتصادياً. وهكذا، قام آشور ناصربال بإعادة تنظيم جيشه للتمكن من القيام بحملاته السريعة التي كان يخطط لها كل سنة، لإخضاع المدن المتمردة عليه وجلب الغنائم

لدولته. جهّز جيشه بالآلات الحربية وبأدوات الحصار وبالأبراج الثابتة والمتحركة المعمولة من الأخشاب المغطاة بالدروع والمزودة بالمنجنيق المنتهي برأس للرماية، وعرفت عساكر الخيالة لديه تطوراً مشهوداً.

نظرتُ وأنا موجود في المتحف البريطاني باهتمام كبير إلى لوحة منقوشة تابعة لقصر آشور ناصربال في مدينة كالح عاصمته، وهي اللوحة التي تمثل معسكراً آشورياً مسوراً وفي وضع مرحلي، وكان الكهنة يقومون فيه بتقديم قرابينهم، ويتساءلون من الآلهة عن نتائج الحملات القادمة. وكان الجنود يتفرغون للقيام بأعمالهم اليومية مثل تحضير وجبات الطعام أو غيرها من الأعمال المطلوبة منهم.

الحملة ضد لبنان

سنة 876 شن حملة هامة ضد الدويلات الآرامية في سوريا ووصل آشور ناصربال وجيشه، خلال مراحل متتالية إلى وادي نهر العاصي، ومرتفعات جبل لبنان. وهكذا، بلغ العاهل الآشوري شواطئ البحر (الأبيض المتوسط)، وغسل أسلحته في مياه البحر الزرقاء مثل الفاتحين الكبار السابقين له.

وأخذ الجزية من الملوك الفينيقيين، من مدن بيبلوس وصور وصيدا، كما هو مذكور في حولياته المحررة بصيغة المتكلم:

"في ذلك الزمن، فتحتُ جبل لبنان على كامل امتداده ووصلتُ إلى البحر الكبير لبلد عمورو. وغسلت أسلحتي في البحر الكبير وقدمت القرابين للآلهة. وكانت ضرائب الجزية المدفوعة من ملوك ساحل البحر ومن صور وصيدا وبيبلوس ومخالاتا ومايسا وكايسا وعمورو وأرفاد الواقعة وسط البحر، تتكون من الفضة والذهب والقصدير والنحاس ومن أوعية البرونز وملابس الصوف الملونة وملابس الكتان ومن القرود الكبيرة والصغيرة ومن خشب الأبنوس والبقس والعاج ومن

حيوان ناخيرو البحري. لقد استلمت كل هذا جزية منهم وقبّلوا قدماي." 2

جلب آشور ناصربال، التواق للمعادن الثمينة، هذه الغنيمة الهائلة معه إلى بلاد آشور. واحتفظ الرؤساء الذين خضعوا له باستقلالهم الذاتي ولكنهم كانوا مرغمين على دفع الضريبة السنوية له.

معركة دامداموسا

يروي آشور ناصربال أيضاً في حولياته التي تمجد بطولاته وتعظم شخصه، أحداث واحدة من حملاته الأخيرة.

في ربيع سنة 865، غادر ملك آشور مدينة كالح مع جيشه وتوجه إلى الشمال الغربي من بلاد آشور، في منطقة الأناضول الشرقية عابراً مناطق غير مأهولة، فيروي ما نصه:

"في السنة المنسوبة لحكم شامش ـ نوري، وبأمر من آشور، الرب الأعظم وسيدي، غادرت بتاريخ 13 من شهر أيار مدينة كالح واجتزت نهر دجلة وتوجهت نحو بلاد قيبانو. استلمت الضريبة من أمراء بلد كيبانو، في مدينة هوسيرينا...."

في مدينة هوسيرينا (في شمال حران)، أخذ الملك الضرائب من الأمراء المحليين، المؤلفة من الذهب والفضة والماشية الصغيرة والصوف وخشب الصنوبر.

وصعد فيما بعد باتجاه الشمال واجتاز الجبال وتوجه نحو مدينة "دامداموسا"، التي كانت تشكل موقعاً قوياً و قلعة للأمير إيلانا الآرامي.

واستحوذ عندئذ على هذه المدينة ثم توجه نحو مدينة أميدو (دبار بكر حالياً)، عاصمة بيت ـ زاماني لكي يهيمن عليها.

يروي الملك:

"بعد أن اجتزت جبل أمادانو، تقدمت نحو مدينة بارزانيشتون، وتوجهت نحو مدينة دامداموسا، قلعة إيلاني في بيت – زاماني. هاجمت المدينة. وانقض جنودي مثل الطيور الكاسرة عليها. وقتلت بحد السيف 600 من مقاتليهم وقطعت رؤوسهم وأسرت عدداً من الأحياء بلغ 400 رجلاً وجلبت 3000 أسيراً، واستوليت على المدينة. جلبت الأحياء منهم والرؤوس إلى أميدو، عاصمة المملكة. وأقمت ركاماً من الرؤوس أمام باب المدينة ووضعت الباقين على الأوتاد وخوزقتهم حول المدينة. ثم قمت بمعركة على باب المدينة وتمكنت من دكّ الجنائن." 3

لئن نجح آشور ناصربال في الاستيلاء على قلعة دامداموسا، فلم يتمكن من فتح مدينة أميدو. لكنه فرض الوجود الآشوري في المنطقة وحطم الريف المحيط بها. وأظهر نوعاً من الفرح في عدّ أعمال العنف التي مارسها ضد المغلوبين و ذكر أكداس الرؤوس المعروضة في باب المدينة والرجال المخوزقين على الأوتاد. كان الملك يستعمل هذه الطرق المخيفة لنشر الوجل لدى السكان.

كانت نظم التفكير والبلاغة الآشورية تقول إن المقاتلين الأعداء، الذين كانوا يقاومون الآلهة والملك يشكلون بعملهم هذا كفراً، وأنهم أشرار يستحقون العقوبة والإعدام دون شفقة، وأيضاً قتل جنودهم وتدمير مدنهم وحرق أراضيهم. لم تكن القواعد الأخلاقية الشرقية السائدة ذلك العصر في الشرق الأدنى تدين وتستنكر هذه الممارسات العنيفة. ويمكن العثور أيضاً على تلك الممارسات حتى في الكتاب المقدس، إذ نجد فيه أمثلة من هذا النوع من العقوبات المفروضة على الأعداء.

في قاعة العرش الفخمة الموجودة في قصر كالح، قام آشور ناصربال، الفخور بأعماله الحربية بإعداد نقش بارز على ألواح حجرية يعرض فيها مختلف مراحل معركة دامداموسا. ويظهر على تلك الألواح، شمش إله العدالة والمعارك وهو يرافق الملك المقاتل، محلّقاً فوقه ورافعاً

القوس أثناء الهجوم على قلعة إيلاني، ويزوده بالقوس بعد الغلبة والعودة. وتُظهر الألواح أيضاً الإله وهو يسلم خاتم السلطة الساطع إلى آشور ناصربال عند ذاك الانتصار.

نهضة كالو، العاصمة الجديدة

قرر آشور ناصربال، الذي لا بد وأن يكون لديه أسبابه، أن يترك مدينة آشور العاصمة القديمة، لاختيار مدينته الشخصية كالح (نمرود حالياً)، تلك المدينة الصغيرة المشيدة على موقع قديم خصب، تقع بالقرب من ملتقى نهري دجلة والزاب الكبير، وعلى مسافة حوالي ثلاثين كيلومتراً من نينوى. وربما كان قد شيدها أحد أسلافه، الملك شلمنصر الأول (1274 – 1245 قبل الميلاد)، ثم أصبحت مع مرّ الزمن مدينة مهملة.

قام الملك بتعبئة آلاف العمال والأسرى والمهجرين، وبدأ في سنة 878 بأعمال إعادة إنشاء المدينة وتكبيرها وتجميلها. وعمل بكامل طاقته وجلالته المألوفة على تسوية الأنقاض وبنى حولها سوراً منيعاً مربع الزوايا بطول وصل إلى 7.5 كيلومتراً. وشيد أيضاً في ذلك الموقع قلعة وتسعة معابد من بينها معبد نينورتا إله الحرب وزقورة وحيّاً سكنياً.

القصر الفريد

قام آشور ناصربال الذي كان يتمتع بحس جمالي واضح ببناء قصر ساطع في المنطقة الواقعة في الشمال الغربي من القلعة تحت اسم "القصر الفريد"، وجهزه بالردهات الراقية الخاصة وبغرف هنية وقاعات واسعة لجلساته. ووضع في مداخله مجموعة من الثيران المجنحة (الاد لامو) لإبعاد الأرواح الشريرة عن قصره.

ونصب آشور ناصربال مسلة من حجر الكلس بارتفاع بلغ 1.3 متراً في مدخل قاعة العرش (المسلة موجودة حالياً في متحف الموصل) تحمل صورته محاطة برموز إلهية. وقد نقش عليها كتابة طويلة بالحروف المسمارية الجميلة. تبدأ هذه الكتابة باعتراف بصفاته الملوكية وتسرد أحداث حملاته، ثم تعرض وصفاً لإعادة تعمير مدينة كالح وتشييد قصر الشمال الغربي الرائع.

"أخذت على عاتقي إعادة تعمير مدينة كالح. وقمت بتسوية التل القديم الذي كان أنقاضاً وحفرت الأساسات لغاية الوصول إلى مستوى الماء. وقد وصلت إلى عمق بلغ 120 طبقة من الآجر. وشيدت فيها قصراً من خشب الصنوبر والسرو وعرعر الدابرانو والجنيبة والتوت والبطم والطرفاء، لكي أجعل منه سكني الملكي ومتعة لجلالتي إلى الأبد. وقد اخترت فيه ثمانية أجنحة لإقامتي الملكية. ووضعت في فتحات الأبواب ألواحاً من خشب الصنوبر والسرو ونباتات عرعر الدابرانو ومن أخشاب المسكانو وربطتها بأحزمة من البرونز المزينة بمسامير برونزية عريضة الرأس.

وزينت الجدران بالآجر المطعم بالخزف الأخضر المنقوش، وبالكتابات التي تعرض أعمالي البطولية وتقدمي نحو الجبال والسهول والبحار وانتصاراتي في كافة البلدان. كما زينت الآجر بالأحجار الكريمة وركبتها على أقواس الأبواب. " 4

كانت قاعة العرش المحروسة من قبل تماثيل أسود عملاقة، مزينة بلوحات منقوشة بالنحت البارز، وكانت تعرض مشاهد لحيوانات مجنحة ومشاهد للحاشية، وأخرى للحملات العسكرية مثل حملة دامداموسا المشهورة وحملات صيد آشور ناصربال. كان الملك يتفاخر بكونه قد قتل الأسود والثيران الوحشية وصرع الأفيال وصاد النعامات.

كما كانت توجد خلف العرش لوحة منقوشة بالنحت البارز تعرض آشور ناصربال ممثلاً مرتين، وفي كل جانب من اللوحة هناك شجرة

الحياة، حيث يظهر رمز إله يمثل الإله شمش أو آشور داخل قرص مجنح، وهو محاط بهالة من البراعم. ويظهر خلفه ثوران مجنحان يؤديان مهمة الحماية، حاملين في اليد اليمنى ثمرة الصنوبر بينما يكشفان في اليد اليسرى ثمرة أخرى. وتبدو الشجرة المقدسة المعمولة بطراز أنيق (النخلة) واضحة معبرة بذلك عن الخصوبة. فهل تذكرنا هذه الشجرة بنبتة الحياة التي تعيد الشباب مجدداً، والتي كان قد قدمها في الأزمنة السابقة "أوتا ـ نابيشتي" بطل الطوفان لجلجامش، ملك أوروك لتمنحه الخلود؟ وهل كان الملك راغباً في أن يمنح لنفسه خضرة الحياة بواسطتها، في ربيع مسالم وبريء وأبدي؟

بعد أن استقر آشور ناصربال في "قصر الحكمة"، بدأ يجذب إلى مجلسه الحكماء والكتاب وعلماء الفلك ورجال الأدب، مثل المفكر المشهور كابي ـ إيلاني ـ إرشاد.

تم تنقيب قصر آشور ناصربال في مدينة كالح (نمرود) من قبل الرحالة الدبلوماسي والمستكشف البريطاني سير أوستين هنري لايارد Sir Austin Henry Layard بين أعوام 1845 و 1851. استطاع هذا العالم إخراج لوحات وآجر تحمل كتابات منقوشة بالحروف المسمارية، إنّها تمثل أسوداً مجنحة وثيراناً برأس بشري وأوعية وأماني وأسلحة، وقام بإرسالها إلى المتحف البريطاني في لندن.

بعد أكثر من قرن بدأت مجدداً أعمال التنقيب، وفي شهر نيسان من سنة 1989 تم اكتشاف ثلاثة قبور ملوكية من قبل علماء الآثار العراقيين، كانت مطمورة تحت أرضية واحدة من الغرف الخاصة بالملك، ربما تعود إحداها إلى رجل، بينما كان القبران الآخران يعودان للكتين. واحتوت هذه القبور على مجوهرات مصنوعة بصيغة فنية حاذقة وبوزن بلغ 57 كيلوغراماً، إنّها سلاسل ذهبية وخواتم وأطواق ومعاصم مطعمة بأحجار العقيق والياقوت واللازورد، وأيضاً بالورديات النجمية المذهبة. وضمت الأختام الأسطوانية والأقداح وحجر الجات

والأوعية المعمولة من البرونز والمرمر والكريستال. وبعد أشهر قليلة تم اكتشاف قبر رابع، فهل كان هذا القبر عائداً إلى الملكة موليسو، زوجة الملك آشور ناصربال؟

الحدائق والقنوات

حفر آشور ناصربال قناة الرخاء "باتي بيغالي" لسقي منطقة مدينة كالح وسهول نهر دجلة.

وأنشأ، لمتعته الشخصية وراحته، حدائق وجنائن في ضواحي المدينة والتي تعبر عن قدرته الملكية. كان هذا الملك يحب الطبيعة وكان قد جلب إلى بلاده حوالي أربعين شجرة مثمرة من البلدان التي مر بها ومن الجبال التي اجتازها، فقام بإعادة غرسها في جنائنه:

"لقد حفرت قناة تنطلق من نهر الزاب الأعلى ومن قمة الجبل ونظمت مسارها وأطلقت عليها اسم "باتي بيغالي". وقمت بسقي المزارع الواقعة على جانبي نهر دجلة. وزرعت فيها حدائق بأنواع مختلفة من الأشجار المثمرة. وقمت بصنع النبيذ وقدمت أفضل أنواعه إلى إلهي آشور وإلى معابد بلدي." 5

وقدم آشور ناصربال وصفاً ممتعاً لحدائقه بالتفاخر وبالصيغة الشعرية:

"تجري القناة بقوة من المناطق العالية نحو الجنينات. وتنشر في الممرات [الروائح] العذبة. وتتلألأ المياه في حديقة المسرات، برّاقة مثل نجوم السماء. وترتدي أشجار الرمان عناقيد كالكرمة. تزين هذه الأشجار حديقة المسرات، وأنا آشور ناصربال، أتجول فيها وأقطف الفاكهة كالفأرة" 6

كان الملك محاطاً بالأشجار والنباتات، يعزز صلته بالأرض والهواء والضوء.

وبعد خمسة عشر عاماً من أعمال البناء، أصبحت مدينة كالح عاصمة رائعة، تلك التي كانت سابقاً مدينة خربة ومهملة، إذ بفضل غرس الأشجار والنباتات في ربوعها، فتحت منازلها وشوارعها الجديدة بفخر نحو الوادي الجميل.

جلب آشور ناصربال شعوب البلدان والمدن التي انتصر عليها والمناطق التي هيمن عليها وأسكنهم في مدينة كالح، ومن بين تلك المناطق: بيت زاماني العائدة إلى الأمير الآرامي إيلاني، وشوبريا الواقعة في شمال أميد، وسوهو الموجودة في الفرات الأوسط، وبلاد حاتي وزاموا في منطقة السليمانية الحالية، ومدينة سيركو فيما وراء نهر الفرات وعدة بلدان أخرى.

أيام العيد في كالح

لم تكن المسلة المرفوعة في مدخل قاعة العرش مخصصة للاحتفاء بالحملات العسكرية للملك آشور ناصربال وذكرى إعادة تعمير مدينة كالح فقط، وإنما كانت منصوبة أيضاً للاحتفاء بالوليمة الضخمة التي أقامها، قدم فيها وجبات اللحوم الدسمة التي حضرها لشعبه بمناسبة افتتاح عاصمته و"قصره الذي يمنح السعادة".

دعا بمراسيم دينية الإله الكبير آشور وكافة آلهة البلد لحضور حفل الافتتاح هذا. ودعا كذلك النبلاء والموظفين والسكان المقيمين في مدينة كالح ومن كافة أركان البلاد لحضور الحفل. وكان يريد تكريمهم وتعريفهم بمشاريعه العمرانية الكبرى ومقاسمتهم نخوة نجاحه والتمتع بوليمته.

في صباح ذلك اليوم العظيم، انتظر الملك وصول الضيوف الرسميين والمدعوين العديدين، مخضباً بالعطور وبأناقة مرتدياً ملابس الاحتفالات الفخمة، وقد بدت على محياه مشاعر الفخر بإنجازاته. وعرض عليهم بدهشة وإعجاب ثروات قصره الواسع، الشاهد على مجده وقدرته،

والمعبر عن عظمة الإمبراطورية التي وسّعها. بعدئذ، عبر الملك عن مشاعره من خلال كتابة ونقش تلك الأمور على مسلته قائلاً:

"[...] قدمتُ خلال عشرة أيام الطعام والشراب لعدد بلغ 47074 شخصاً من الرجال والنساء الذين أتوا من كافة أطراف البلاد، وأيضاً 5000 مدعو من الشخصيات الهامة وممثلي بلاد سوهو وهندانا وحتينا وحاتي وصور وصيدا وكركوما وماليدا وحبوشكا وجلزانا وكوما وموساسير، [وأيضاً] 16000 من سكان كالح المنتمين إلى كافة الطبقات و1500 من الأشخاص الرسميين العاملين في قصوري، بلغ عددهم الإجمالي 69574 مدعواً، آتين من كافة الأقطار المذكورة بما في ذلك شعب كالح. وزودتهم بوسائل أتاحت لهم الاستحمام والانغمار بالزيت المعطر. لقد كرمتهم هكذا وأعدتهم بسلام وسعادة إلى مساكنهم"[6]

منح هذا المضيف الكريم لضيوفه الذين كانوا قد سلكوا في بعض الأحيان طريقاً طويلة، وكانوا في أشد الحاجة إلى الاستراحة بعد الإرهاق، وسائلَ الراحة والاستحمام والانغمار بالزيت المعطر. وأسكنهم في القاعات المزينة بورود الغابات العبقة والنفيسة وفي الباحات المزودة بجدران الآجر الجميل وبالحدائق الكبيرة التي تنتشر في أرجائها الروائح المتنوعة من العطور، ونصب لهم الكراسي واضعاً إياها أمام المناضد الصغيرة الجميلة. وكان الضيوف الذين ينتمون إلى الطبقة المتواضعة يتناولون طعامهم فرحين ومتربعين على الأرض الحسنة. أمر الملك لتحضير الوليمة بذبح ألف ثور وألف عجل وستة عشر خروفاً وضأناً. وتم تجهيز المطبخ بأربعة وثلاثين ألفاً من الدواجن، وألف أيل وغزال وحوالي ثلاثين ألف بطة وإوزة وطير وعصفور.

وتم تقديم عدة أطباق وفقاً لرتب المدعوين والمشاركين في الوليمة. وقام الخصيان والخدم بجلب الأطباق مرفقة بأقراص الشعير والبصل والمخضرات. وانتهت وجبات الطعام بتناول الجبن والجوز والعسل والفواكه والعنب والرمان والتمر والتفاح والعرموط والأجاص.

كانت السماء زرقاء مثل زرقة مياه البحر التي ينعكس على صفحتها لون اللازورد، وكانت العصافير تغرد في أجواء من المتعة والسعادة وهي تنعش الجميع. وكانت كروم الجنائن تلتف أغصانها بمرونة حول نباتات الصنوبر والأشجار المثمرة. لبث الضيوف فرحين بتواجدهم معاً وهم يحتسون النبيذ والجعة، والسكينة تسود أرواحهم والفرحة تملأ قلوبهم. أما الموسيقيون فقد استمروا بعزف الأنغام على أوتار قيثاراتهم وعلى أعوادهم وسناطيرهم وطبولهم لتسليتهم في جلساتهم وسهراتهم الطويلة.

خلال عشرة أيام كاملة، كان آشور ناصربال الذي يعرف أهمية العلاقات الحسنة مع شعبه، مسروراً بمثل هذه المشاركة للطعام معه وكان حريصاً على رعاياه المعترفين بفضله عليهم، وكان يعمل على إشباعهم بأطباق المأكولات اللذيذة وبأصوات الموسيقى المرهفة. عاش معهم أجمل لحظات عمره ثم أعاد ضيوفه، إلى منازلهم بسلام وفرح. وبقي هذا العيد الساطع بالألوان والعطور والروائح العبقة وبأصوات الموسيقى، لمدة طويلة في ذاكرة الآشوريين واحتفظوا بالحنين إلى ذكرى أجوائه المتعة. بقي ذكر آشور ناصربال يحوم دائماً فوق موقع مدينة كالح عاصمته الجميلة.

قام آشور الملك بإعادة تعمير المزيد من المعابد والبلدات التي كانت مهملة، وأنشأ فيها مخازن لحفظ لقمح والتبن.

بعد بضع سنوات من ذلك، توفي وتم دفنه في مدينة آشور في القصر القديم داخل تابوت حجري. وترك وراه ذكرى محارب باسل وفاتح عرف الصرامة، وتمكن من إضافة أراض أخرى إلى بلاده.

خلّد صورة كمشيد كبير وملك منصفً وتقي، قلق على رفاهية بلده وعلى راحة وسعادة شعبه الذي عرف كيف يمنحه هذه السعادة عندما أتاحت له الفرصة.

بعد وفاة آشور ناصربال، خلفه ابنه شلمنصر الثالث (858 – 824 قبل الميلاد). قضى هذا الملك أحد وثلاثين عاماً في الحكم متنقلاً على الطرق وفي ساحات القتال، شاغلاً معظم وقته في الحروب، كالحروب التي دارت في شمال سوريا وفي البلدان المجاورة، مقتفياً أثر أعدائه مثل الإعصار. وبعدما انتصر، استلم الجزية من ملوك صور وصيدا ومن ياهُوَ (7)، ملك إسرائيل.

وتم العثور في رواق مجمّع سكاني في مدينة كالح على مسلة سوداء اللون، وهي عبارة عن كتلة من المرمر يبلغ ارتفاعها مترين. تروي بإسهاب الكتابة المنقوشة على المسلة أحداث الحملات التي جرت تحت حكم شلمنصر الثالث، وتحوي واجهاتها عشرين نحتاً من النوع البارز يمثل أحدها ياهُوَ ملك إسرائيل المشهور وهو راكع أمام ملك آشور ويُلمع نعليه بلحيته متذرعاً العفو عنه. وتُظهر المسلة حمالين يقدمون إليه الضرائب الممنوحة له ومنها: الأدوات الثمينة والحيوانات الغريبة وفيل واحد وجملين اثنين وكركدن.

شن شلمنصر خمس حملات ضد مملكة أورارتو في الشمال.

وأقام لفترة معينة في "القصر الفريد" المعروف، ثم شيد بدوره قصراً مهيباً يتكون من مئتي غرفة. واستخدمه أيضاً كثكنة عسكرية وترسانة حملت اسم "قلعة شلمنصر"، حيث كانت تجري تدريبات على الخيول وعلى عربات القتال وكان الجنود يأتون إليها للبحث عن الملابس العسكرية والأسلحة.

كما أنه شيد قصراً صغيراً في بالواط (إيمكور ـ إينليل) على مسافة تبعد خمسة عشر كيلومتراً تقريباً من مدينة كالح وثبّت ألواحاً بالمسامير المتينة على واجهات أبوابه وكان ارتفاعها ستة أمتار، إنّها

ست عشرة لوحة رائعة معمولة من البرونز والمزينة بالنقوش البارزة المطروقة، تمثل أحداث حملاته العسكرية.

تمرد عليه أحد أبناء الملك شلمنصر سنة 828 ودفع سبعاً وعشرين مدينة آشورية للتمرد أيضاً، مما أدى إلى أن يخيم الحزن والألم على ما تبقى من مساء حياته.

خلفه في الحكم، ابن آخر له، وهو شمشي ـ حداد الخامس (823 – 811 قبل الميلاد) الذي أخمد الثورة ضده. تزوج من الأميرة الجميلة سامورامات التي مارست وظيفة الوصاية بعد أن ترملت. وكان المؤلفون اليونانيون، مثل كتيزياس و هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) والمؤرخ ديودورس الصقلي (القرن الأول قبل الميلاد) يطلقون عليها اسم *"سميراميس"*، وجعلوا منها فارسة مسترجلة جازمة وملكة آشور الأسطورية، وحافظوا على تلك الأسطورة الفريدة في مؤلفاتهم. وقد أطلقت هذه الملكة العنان أيضاً لخيالات الرومان والأرمن والأوروبيين، مثل كريبيون وفولتير وفاليري غلوك وروسيني الذين ألهمهم ذكراها في مؤلفاتهم الأدبية وفي أعمال الأوبرا التي أنجزت حول اسمها وأسطورتها.

بقيت مدينة كالح العاصمة السياسية والعسكرية لبلاد آشور لغاية حكم سرجون الثاني.

هوامش الفصل الثاني:

1- فرانسيس جوانيس (Afrancis Joannès)، بلاد الرافدين في الألفية الاولى قبل الميلاد (La Mésopotamie au 1er millénaire avant J.C.) أرمان كولان، باريس، 2000، ص57.

2- مقطع من حوليات آشور ناصربال في نوسكاتي Moscati، ملحمة الفينيقيين (L'épopée des Phéniciens) فايارد، باريس، 1971، ص 37.

3- فرانسيس جوانيس (Afrancis Joannès)، بلاد الرافدين في الألفية الأولى قبل الميلاد (La Mésopotamie au 1er millénaire avant J.C.) أرمان كولان، باريس، 200، ص 34.

4- كريسون (Albert.K. Crayson)، 1972 – 1976، (Assrian Royal Inscriptions) الكتابات الآشورية الملكية، الترجمة العربية من قبل صلاح سليم علي، دار نشر إدي شير، أربيل 2005، ص 72-76.

5- انظر: أعلاه، كريسون (Albert.K. Crayson)، الكتابات الآشورية الملكية (Assrian Royal Inscriptions)

6- انظر: أعلاه، البير كي كريسون (Albert.K. Crayson)، الكتابات الآشورية الملكية (Assrian Royal Inscriptions)

7 ـ حول أعمال هذا الملك، انظر: الكتاب المقدس: الملوك الثاني الفصل التاسع والعشرين.

133

الفصل الثالث

سرجون الثاني، الملك المقاتل

1- الألقاب الرسمية

قصة سرجون نبيلة وجميلة، مثل تلك اللوحة البارزة المحفوظة اليوم في متحف اللوفر، إنّها تُظهر من جانبه وقُباله أنه أحد أصحاب الرتب العالية. تُبرز لوحة سرجون أنفه المعقوف وحواجبه الواسعة وشعره ولحيته المجعدتين وبمظهر جليل وهو يرتدي قلنسوة تظهر عليها بقايا طلاء أحمر. ها هو يمسك بيده اليمنى عصاً، رمز منزلته، بينما تستند يده اليسرى على سيف. إنه يرتدي ثوباً طويلاً منسوجاً بالورديات ومطرزاً في أهدابه. ويبدو صاحب الرتبة العالية الماثل أمام الملك - ربما يكون سنحاريب الأمير الوريث- حاملاً فوق رأسه تاجاً، وأذنيه مزينتان بأقراط ثقيلة.

تم العثور على لوحة في مدينه آشور وهي اللوحة التي تذكر ألقابه. يعلن فيها سرجون (722 – 727 قبل الميلاد) بأنه ابن تيقلات - فالازار الثالث:

"سرجون، الملك الكبير، الملك القوي، ملك الجميع، ملك آشور، ابن تيقلات ـ فالازار، ملك بلاد آشور".

أسس والده الملك تيقلات ـ فالازار الثالث (745 – 727) الإمبراطورية الآشورية الحديثة. وضع في تلك الأيام الغابرة نهاية لفترة

طويلة من الاضطرابات في بلاد آشور، وباشر في إنجاز إصلاحات سياسية وإدارية هامة. وتمكن من إضعاف مملكة أورارتو التي كانت تهدد بلاده من الحدود الشمالية، تلك المملكة الواقعة حول بحيرة وان ووادي الآراكس (في أرمينيا الحالية).

واستطاع الإطاحة بمملكة دمشق في سوريا وحوّلها إلى مقاطعات خاضعة له، وحاصر بابل واستولى عليها وتم تتويج ملك لها موالياً له وخاضعاً لإدارته.

وعيّن، ابنه شلمنصر الخامس (726 ـ 722 قبل الميلاد) أميراً وريثاً من بعده. إلا أن تمرداً حدث ضده، مما أدى إلى اختصار حكم شلمنصر الخامس، فلم يدم أكثر من خمسة أعوام.

بدايات حكم سرجون

ادّعى سرجون بأن أخاه، قد أجبر على التخلي عن العرش من قبل الآلهة، نظراً لفرضه أعمالاً مرهقة على مدينة آشور. وربما كان قد توفي مغتالاً، وتطرقت إحدى حوليات بلاد الرافدين إلى نهايته بصورة مقتضبة.

هل اغتصب سرجون العرش من أخيه عن طريق القوة؟ لقد اختار هذا الملك اسم شارو ـ كين يعني (الملك الشرعي)، مقلداً مؤسس دولة أكد سرجون الشهير، واستولى على مقاليد الحكم في نهاية شتاء 722.

حدثت داخل مملكته اضطرابات هزت حكمه. تحركت ضده مدن مثل آشور، وتمرد عدد كبير من رعايا المملكة. لكن سرجون تصرف بحذر وحكمة أمام هذا التمرد الشعبي. فقام بإلغاء الضرائب والأعمال المرهقة التي كانت مفروضة على السكان من قبل أخيه شلمنصر، وأصدر مراسيم ملكية نصت على إعفائهم منها.

ولم يمرّ وقت طويل، وإذا به يشن حملة عسكرية ضد مملكة إسرائيل للسيطرة عليها. على أن ميروداش ـ بلادان، قائد الكلدان في

بيت ياقين الواقعة على سواحل الخليج، استفاد من أعمال التمرد التي حدثت في بلاد آشور، فاستولى على عرش بابل مدعوماً من قبل همبانيكاس، ملك عيلام.

وفي عام 720، تمكن همبانيكاس من تكبيد سرجون هزيمة رهيبة أمام مدينة "دير" المحصنة (الواقعة في جنوب بغداد حالياً) وشن معركة شرسة ضده وسحق قوات سرجون وأرغمه على الانسحاب إلى بلاد آشور. أما ميروداخ ـ بلادان الذي انطلق مع جيشه لمساعدة ملك عيلام، لم يصل في الوقت الملائم.

اضطر سرجون إلى عقد معاهدة مع ميروداخ ـ بلادان في بابل الدولة المستقلة، واحترم كل واحد منهما هذه المعاهدة خلال مدة اثنتي عشرة سنة تقريباً.

وفي السنة ذاتها من عام 720، شجع يو ـ بيدي، ملك حماه الواقعة على نهر العاصي في الغرب، تمرداً ضد حكم الآشوريين وامتد إلى سوريا وفلسطين. لم يتردد سرجون في شن حرب ضده وانتصر على يو- بيدي في مدينة كواركار فأعدمه، وضم حماه إلى الإمبراطورية الآشورية.

السلطة المركزية

كان الملك سرجون يتمتع بمختلف أنواع الصفات التي ذكرها لعذر نفسه، في رسالة وجهها إلى إله آشور القومي، والتي سنتحدث عنها لاحقاً. كان يستمع بكل تقوى إلى كلام آشور والآلهة الكبرى، يطيع وصاياهم طاعة تامة. لقد كان عادلاً ومستقيماً وحذراً ورحيماً، ولا يُسمع كلاماً بذيئاً أو رديئاً.

وبصفته مقاتلاً لأعداء آشور، كان يُظهر مزايا جسدية فعلية أثناء شن حملاته العسكرية، كفارس حربي ومحارب شجاع.

وكان يعطي لنفسه أهمية كبيرة، وهو واثق من حظه، كما كان يصر على إنجاز أهدافه التي يعرضها عليه طموحه.

قام سرجون، الذي وجد نفسه حاكماً مطلقاً على إمبراطورية تضم عدة مقاطعات، بوضع حكاماً طيعين على رأسها واستعان بمجموعة كبيرة من الأجهزة الإدارية والعسكرية للتمكن من إدارة أمورها. استعمل طريقة جديدة في ممارسة السلطة وجعلها سلطة مركزية، وهكذا عزز سيطرته الفعلية في الحكم وإدارة أمور الدولة.

احتفظت الوثائق الآشورية بعدد بلغ حوالي 1300 رسالة كان قد تم تبادلها بين سرجون وموظفي مقاطعاته، الذين كان واجباً عليهم أداء مهامهم بكل مثابرة وأن يقدموا له ما هو مطلوب.

وفي مقطع من إحدى الرسائل، يعلن أحد السادة الإقطاعيين التابعين للملك، بأنه عبد وُلد في منزله وخادم مطيع لسلطته، ويبلغه بكافة الأمور التي يراها أو يسمعها إلى سيده الملك سرجون ولا يخبئ عنه أي شيء منها. 1

طور سرجون شبكة الطرقات البرية، وأعاد تنظيم الحياة في المدن المحتلة والمحررة مجدداً، واهتم بحماية رعاياه ونشر الرفاهية والازدهار بينهم.

الحملات العسكرية

كان سرجون، الملك المحارب يراقب مراقبة تامة في الشمال الغربي مملكة "فريجي" الأناضولية المنافسة، التي كان ملكها ميتاً (738 – 695 قبل الميلاد)، يعمل على زعزعة استقرار الممالك الصغيرة في الأناضول الشرقية، المتمثلة في كيي (قليقية) ومليد (ملاطيه لاحقاً) وتابال (في الجنوب الشرقي من تركيا) ويقاوم التأثير الآشوري على تلك الممالك.

كان سرجون يخشى أيضاً مؤامرة تقوم بها مملكة كركميش، الواقعة على شاطئ نهر الفرات والتي كانت تتعامل بدون حذر مع ميتا ملك فريجي. واتهم سرجون في عام 717 الملك بيسيريس ملك كركميش الذي كان يدفع ضريبة إلى دولة آشور، بأنه خرق التزاماته. ولم يتردد سرجون في ضم هذه المملكة وتحويلها إلى مقاطعة تابعة إلى الإمبراطورية الآشورية.

و بعد سنة، شن سرجون اعتباراً من عام 716 حملتين ضد مملكة أورارتو القوية التي كانت تهدد الإمبراطورية الآشورية. وكان "توشافا" ملك أوراتور، يعمل من عاصمته على تنفيذ مؤامرات وأعمال تمرد بين الممالك الصغيرة المجاورة لمملكته، والمتحالفة معه بغية العصيان على الآشوريين.

حملة سرجون الثامنة

فكر الملك سرجون بشن حملة ساطعة وأخيرة ضد "أورسا" ملك دولة أوراترو المعادية، وعُرفت بحملة سرجون العسكرية الثامنة. أصغى إلى فأله وأرسل جواسيس للحصول على معلومات عن تحركات الخصم الذي كان يعتبره قوى الشر، فجهّز جيشاً ومعدات لتنفيذ حملته الموعودة.

تتطرق رسالة تزيد على 430 سطراً مكتوبة على لوح من الصلصال حاملة تاريخ سنة 714، وهي الرسالة التي تم العثور عليها في مدينة آشور (في متحف اللوفر)، وتروي الحملة الثامنة التي تُوجت بالنصر. حرر تلك الرسالة نابو ـ شاليمشونو كاتب الملك الكبير، إنّها صادرة من سرجون الذي يعبر فيها بصيغة المتكلم من قصره في مدينة كالح، وموجهة إلى الإله "آشور أب الآلهة وإلى آلهة القدر، وإلى المدينة وسكانها وأهل قصر هذه المدينة."

من المحتمل أن يكون قد تم قراءة هذه الرسالة أمام الجماهير أثناء مناسبة من مناسبات الانتصار أو خلال احتفال هام.

يروي سرجون في هذه الرسالة بصفته وكيل الإله آشور على الأرض، كيف ترك كالح؛ مدينته الملكية، في شهر آب وفي اليوم المناسب، على رأس قواته التي أطلق لها العنان عبر الأنهار الفائضة والجبال الوعرة المغطاة بالنباتات الكثيفة، مثل جبل كيميريا.

ويحكي:

" جبل سيميريا، تلك القمة التي تنتصب مثل رمح يرفع رأسه فوق الجبال، إنه مسكن (إله) بليت ـ إيلي، الذي يسند السماء برأسه عالياً، وتصل جذوره إلى مركز الجحيم. لا يحتوي على ممر كحسكة السمك. يصعب تسلقه من الأمام كما من الخلف، وقد أحدقت به المهاوي من كل ناحية وتبعث رؤيته على الفزع، لأنه لا يمكن تسلقه بالعربات، ولا يسمح بهروب الخيول فيه، والذي يصعب للمشاة السير في مسالكه. لكن اتساع إدراكي وبالوحي الذي منحه لي آيا وبيت ـ إيلي، قد أدى إلى مدّ رجليَّ لكي أنتصر على بلدان الخصم. لقد جهزتُ طلائع جيشي بالرماح البرونزية القوية [...] وتمكنت من دفع العربات والخيالة والمقاتلين الذين انطلقوا من جانبي مثل النسور المحلقة فوق الذرا، ليعبروا هذا (الجبل)." 2

تقدم سرجون باتجاه الأراضي المعادية، وعند مروره بها، قام ملك المانيين الساكن في جنوب بحيرة أورميا بإعطائه الضريبة و"لثم قدميه".

يناجي العاهل في رسالته بتواضع الإله آشور ويرفع يداه نحوه ويتضرع إليه أن يدير المعركة ويكبد "أورسا" ملك أورارتو الهزيمة. يقبل الإله آشور التماسه المتواضع ويمنحه النصر. وأخيراً تم تحقيق النصر بفضل بطولة سرجون وجنوده، الذين تقدموا بعد سير متعب وقتال صعب عبر مسالك جبل أواوش المخيفة. وفرض سرجون صمت الموت على الجبال وأغرق العدو بالذهول والنحيب. وترك أورسا عربته وهرب، فدخل ملك آشور منتصراً بالفرح والبهجة داخل معسكر الخصم مع الموسيقيين وهم يعزفون على القيثارات ويضربون على الصنوج.

انتهت الحملة الثامنة وأرسل سرجون في الحال جنوده "مثل الجراد" إلى المدن المحيطة ببحيرة أورميا ونهبها ودمر نباتاتها واجتاح سهولها. ولكنه لم يصعد للسيطرة على عاصمة الأورارتو.

أخذ الملك طريق العودة باتجاه بلده، وقرر في اليوم السابق لخسوف القمر بتاريخ 24 تشرين الأول من سنة 714، معاقبة ملك "أورزانا" حاكم موساسير الذي لم يأت ليسلم عليه عن طريق مبعوث ويجلب له الضريبة. ولهذا السبب استولى برفقة ألف فارس، مباغتة على مدينته موساسير المقدسة الكبيرة والمحصنة، الواقعة بالقرب من منابع نهر الزاب الأعلى. لقد كانت مركزاً دينياً كبيراً، حيث كان ملوك أورارتو يقومون بتتويج أنفسهم فيها.

باشر سرجون بنهب وسلب كنوزها الهائلة والاستيلاء على كمية كبيرة من الذهب وخمسة أطنان من الفضة و190 طناً من البرونز واستولى على الأسلحة الحربية والدروع والأوعية والمجوهرات والتماثيل الملكية وتماثيل البرونز الصغيرة. ونهب معبد هالديا، الإله الحامي للمدينة. واجتاح جنائنها الرائعة.

وتبين لوحة منقوشة بالنحت البارز ومحفوظة في متحف اللوفر، موظفاً آشورياً جالساً على مقعد أمام كاتبين يعدان الغنيمة، يظهر أحدهما وهو يكتب بالحروف المسمارية على لوح من الصلصال، والآخر يقوم ببسط ورق البردي.

شعر سكان مساسير بهذا التدمير كما لو كان عملاً محرماً، فحاولوا إبعاد السكان الذين لم يهربوا.

وتنتهي رسالة سرجون المليئة بالعبارات الرسمية والشعرية بعرض نتائج الانتصار للحملة الثامنة مع قائمة بأسماء الجنود الآشوريين القتلى وكان عددهم ثلاثة فقط! لابدّ وأن الرسالة قللت من عددهم الفعلي.

وعبر سرجون عن قلقه من مصير عوائل الجنود القتلى التي أصبحت محرومة من الموارد المالية والرعاية والمضطرة إلى العيش بضنك

وبؤس. أمر الملك أحد المسؤولين القيام بتحقيق دقيق عن أحوالها وأن يرفع له قائمة بأسماء الجنود القتلى أثناء تلك المعارك وبأسماء أبنائهم وبناتهم وأن يرسلها اليه. وكان يخشى أن تضطر أرملة أو يتيم من تلك العائلات العيش في حالة العبودية! 3

إعادة فتح بابل

في سنة 710، وجه سرجون، بعد أن أصبح قوياً، أنظاره نحو مدينة بابل. وكان مصمماً على إعادة السلطة الآشورية عليها، وعلى تسوية هذه المسألة الشائكة التي لم يجدوا لها حلاً منذ سنين عديدة. شنّ عليها هجوماً، بعد أن نقض المعاهدة المبرمة مع مدينة بابل سنة 720 ونزل باتجاهها.

اضطر الملك ميروداش ـ بلادان، المهيمن على السلطة منذ سنوات في بابل، إلى التقهقر والهرب إلى منطقة الأهوار ثم إلى بلاد عيلام. فجلس سرجون على عرش بابل وتم تتويجه ملكاً فيها سنة 709، آخذاً يد إله ماردوك لحمايته، واحتفل بعيد السنة الجديدة.

عيّن سرجون حاكماً في بابل وأبعد الآلاف من الآراميين والكلدان المقيمين فيها إلى بلاد آشور.

بعد ذلك قام بنهب "دور ـ ياقين"، عاصمة ميروداش ـ بلادان وواصل الحروب لغاية سنة 707 ضد عشيرة بيت ـ ياقين الكلدانية.

تعرض عام 709 الملك ميتا حاكم فريجيا، وأحد منافسيه الرئيسين إلى غزو من قبل الكيميريين القادمين من سهول آسيا الوسطى، اضطر ميتا بعد أن ضعف موقفه إلى طلب اتفاقية السلام مع سرجون، مقابل دفع ضريبة له.

كتب سرجون، بعد هذا الحدث، رسالة إلى آشور ـ شارا ـ أوسور، حاكم مدينة كيي في منطقة تابال الواقعة في جبال طوروس، حيث

كانت تقطنها عدة ممالك صغيرة، يذكر فيها بأنه بعد أن قام ميتا ملك فريجيا بعقد السلام معه، لم يعد يهمه قط مستقبل جميع ملوك تابال، لأنهم سيتعرضون جميعاً إلى السحق والشد بالحبال. 4

واصل سرجون سياسة الفتوحات التي مارسها والده تيقلات ـ فلاصار الثالث لتعزيز سلطته، ونجح في مشروعه بفضل حملاته المتعددة وبجيشه الباسل وتطوير سلاح الخيالة. وهكذا بلغت بلاد آشور ذروة مجدها، حيث امتدت سلطته في عهده من الخليج إلى طوروس ومن زغروس إلى سيناء. وكان يتقاضى ضرائباً من ملك فريجيا ومن الأمراء القبارصة ومن بلاد ديلمون الواقعة على سواحل البحر السفلي (الخليج). وضع الطوق الآشوري في أعناق جزء كبير من بلدان الشرق الأدنى وأصبح متمدداً تحت أقدامه مثل أسد خانع.

وهكذا، تمكن سرجون من إخماد الثورات داخل إمبراطوريته، لاسيما البابلية منها. واستطاع أخيراً أن يريح نفسه لمدة من الزمن، باعثاً خلالها ابتسامته الغامضة وهو جالس على عرشه الخشبي المنقوش.

مثالية سرجون الوحدوية

كانت الألقاب الرسمية توصف سرجون بأنه "الملك القوي، ملك العام (البلدان التي كانت تدفع الضرائب للعاهل) وملك بلاد آشور". بعد تنفيذ حملاته العسكرية، على غرار تيقلات ـ فالاصار الثالث وشلمنصر الخامس، قام بإبعاد جزء كبير من سكان البلدان الخاضعة لانتصاراته إلى مناطق أخرى، أي حوالي 239258 شخصاً، لكسر أية رغبة في التمرد لدى السكان وإسكانهم في المناطق المهجورة. ومنح الإمبراطورية جنوداً وعمالاً وحرفيين ورفاهية.

وكان يتم استقبال هؤلاء المبعدين والمسبيين من قبل حكام المقاطعات، ويتم توطينهم بعد وصولهم مع بعضهم البعض وفق

مناطقهم الجغرافية القادمين منها والأثنية ومستوياتهم الثقافية. وكانوا في أغلب الأحيان يخضعون إلى معاملة حسنة كما لو كانوا رعايا آشوريين عاديين. وكان بمقدور المجموعات المبعدة أن تحافظ على تقاليدها الخاصة ونظامها ومراسيمها الدينية وعاداتها.

حدث اختلاط بين السكان وازدادت تعددية الأقوام في مدن بلاد آشور المأهولة بأناس جاؤوا إليها من زوايا العالم الأربع، والذين كانوا يتحدثون بلغتهم الخاصة وبلغات مختلفة بحسب المناطق القادمين منها سواء من المناطق الجبلية أو من السهول."

دون أي شك، لم يفكر سرجون كما فعل فيما بعد إسكندر الكبير، بإنشاء "نظام ملكي أممي" يمتد إلى حدود العالم المعروف.

غير أن ضرورة المحافظة على إمبراطوريته الواسعة وإدامة السلم والتوافق فيها، اضطر ملك آشور "الجامع للكل" أن يتبنى سياسة التوحيد. وكان يطمح من خلالها أن يجمع الشعوب الآتية من أركان الأرض الأربعة، وأدى ذلك إلى تطوير العلاقات الاقتصادية واستعمال اللغة الآرامية التي كانت في أوج انتشارها. وهكذا عاش سكان بلاد الرافدين في أجواء زمن الازدهار الذهبي داخل إمبراطورية منظمة، وتمتعوا برفاهية حقيقية. إذ كانوا خاضعين لسلطة ملك واحد ومُدارين تحت العدالة نفسها. استفادوا جميعاً من نعم حضارة بلاد الرافدين.

على أن تخالط الشعوب والمثالية الوحدوية في الحكم واستخدام اللغة الموحدة لم تكن كافية دائماً للمحافظة على السلام. طبّق سرجون منهج الحصول على المعلومات، وكان مطلعاً على الأحداث التي تدور في الخارج وداخل حدود إمبراطوريته. وقد اضطر أحياناً إلى مواجهة حركات المعارضة الداخلية وبؤر التمرد مثل تلك التي حدثت في بابل، ولم يتمكن من إنجاز كامل حلمه الإمبراطوري الكبير في توحيد كامل مقاطعاته.

2- حلم سرجون: دور ـ شاروكين

عاصمة جديدة

عمل سرجون مؤسس الدولة الكبير بإنجاز مشاريع عمرانية. ترك العاصمة كالح التي كان قد قام بإعادة تعميرها وسكن في قصر قديم. وبدأ معتقداً ومدفوعاً من قبل الإرادة الإلهية، وبفضل الغنائم الهائلة التي حصل عليها أثناء حملاته، بتشييد عاصمة جديدة خلال سبع سنوات، وهي دور ـ شاركين "قلعة سرجون"، تلك العاصمة السياسية التي اختارها بعيدة عن مدينة آشور العاصمة الدينية القديمة وبعيدة أيضاً عن كهنتها المتنفذين.

اختار موقعاً خالياً تقريباً في شمال نينوى بالقرب من جبل موسري المروي بعيون الماء، يحمل اليوم اسم خورصاباد. استولى على أراضي سكان القرية المجاورة ماكانوبا، ولكنه عوضهم بدفع أموال لهم أو منحهم أراض أخرى، وهذا ما يؤكده الملك في إحدى كتاباته:

"سوف أسدد بالفضة أو بالبرونز لمالكيها قيمة أراضي مدينة (المستقبل)، وفق ألواح الشراء التي (كانوا يملكونها). ولكي لا يعترض أحدٌ من أولئك الذين لم تكن القيمة بالفضة ترضيهم، سأمنحهم أراضٍ بنفس المساحة في المكان الذي يرغبون فيه الحصول عليها" 5

لم يبخل سرجون بجهوده لتشييد مدينة دور ـ شاروكين وتوظيف منذ سنة 717 كافة قواه وموارد إمبراطوريته من الرجال والمواد لتحقيق ذلك. وقد ساعده في إنجاز هذا العمل أخوه ووزيره الكبير وكاتبه الملكي وحافظ خزينته في إعداد مشروع لبناء المدينة وأشرفوا على إنجاز العملية.

عمل المُهجرون والعمال والبناؤون في بناء السور، وكان يصل ارتفاعه إلى أربعة عشر متراً، فاتحين فيه سبعة أبواب وطوله مطابق بشكل

رمزي لاسم الملك. وكان داخل هذا السور، شبكة كاملة من الشوارع والأحياء السكنية. كما حُفرت قنوات لإرواء العاصمة الجديدة بالماء.

تابع الملك تقدم البناء بذكاء وحكمة وذوق سليم، وقرأ تقارير الموظفين والإداريين الآشوريين وحكام المقاطعات المكلفين بتزويد الآجر والشغيلة بعناية وانتباه.

تم تشييد قلعة فيها، كمدينة داخل المدينة، وشُيد في الداخل زقورة مكرسة للآلهة إيا وسين وشمش وحداد ونينورتا إضافة إلى إنشاء معبد الإله نابو في غرب المدينة وقصور خاصة إلى أصحاب الرتب العالية في المملكة.

كان القصر الملكي المشيد بالقرب من السور، موجهاً نحو ضوء السماء، وتم تشييده من العاج وخشب الأبنوس ونباتات الشمشاد والميس والأرز والسرو والعرعر والفستق. وكان يحتوي على 209 قاعة وباحة واجهته مجهزة ببوابة ثلاثية مزينة بتماثيل ضخمة. وكان هذا القصر الملكي الفخم يدل على عظمة ومجد الملك ويشكل صورة رمزية للعالم.

علم سرجون بإمكانية تعرض المباني المشيدة بالآجر المجوف للانهدام، فعمل على حماية أعماله و تخليد اسمه على مرّ الزمن، لهذا السبب طمر ألواح الأساس تحت جدران قصره.

لقد عمل على تعبئة أفضل الحرفيين والفنانين لتزيين قصره بالألواح الحجرية المحفورة، التي كانت تغطي قاعدة جدران الباحات والممرات، تمثلت بالحيوانات الأسطورية الحامية والشخصيات الهامة ورجال الخدمة وأيضاً بمشاهد من حياة الحاشية. كما اهتمّ بتزيين بقية الجدران بلوحات ملونة غطّت كامل واجهات القصر.

أصبح القصر الملكي المكان المؤهل لإقامة الاحتفالات الخاصة ولإظهار عظمة الملك ومجده وتعظيم حكمه.

كما قام سرجون بإعداد منتزه كبير بالقرب من قصره، مليء بأشجار الفواكه الفواحة التي أتى بها من سوريا، وبأشجار السرو

والأرز اللبنانية التي جلبها إلى قصره بالطرق النهرية. إذ وصلت إلى قصره مختلف أنواع الأشجار المثمرة القادمة من الجبال مثل أشجار التفاح والزعرور واللوز والخوخ.

وفي عام 707 قبل الميلاد دخلت الآلهة أخيراً المعابد التي كان قد شيدها تكريماً لها بوقار وهيبة.

وبعد عام افتتح الملك رسمياً في فصل الخريف من سنة 706 المدينة الزاهية والقصر الذي يعيش فيه. ودعا لتدشين عاصمته أمراءً من كافة البلدان، وحكامَ المناطق المختلفة ورؤساءَ العمال والقادة والقواد العسكريين وشيوخ المملكة، لحضور مأدبة كبيرة أقامها على شرفهم. كرمهم ونصب الأرائك الوفيرة لهم، وكلف العديد من الخدم بتقديم مختلف أنواع الأطباق لضيوفه. وتذكر إحدى الكتابات الملوكية أنه أقام في هذا اليوم أيضاً مأدبة موسيقية. 6

على أن نذير الشؤم، كان يترصد بمُلْك سرجون، إذ حدثت في بداية شهر آذار هزة أرضية هامة، لكنها لم تؤدِّ إلى أضرار كبيرة، فبقيت ثقة سرجون ثابتة رغم ذلك بقي محتفظاً برباطة جأشه. وتشير إحدى الكتابات التي تم العثور عليها بأنه التمس الحياة الطويلة والصحة والرفاهية من الإله آشور والآلهة الأخرى التي كانت تقيم في معابد المدينة. أولم تمنحه هذا الآلهة "إلى الأبد" الحظّ السعيد الذي سمح له بتشييد المدينة والعيش فيها مدة طويلة؟

وفاة غير جديرة بملك عظيم

تلبدت السماء وهبط الغروب، ولم تستجيب الآلهة لصلاة خادمها سرجون الذي كان يميل إلى الاعتقاد بأن الحظّ لن يخونه أبداً. لم يتمكن من التمتع لمدة طويلة بثمرة أعماله التي أنجزها بحماس ولا تذوق سحر قصر دور ـ شاروكين. كان حكمه قد بدأ بالتمرد وانتهى أخيراً بالعنف.

إلى أي مصير توجه سرجون وهو في عظمة مجده في صباح مشرق من سنة 705؟ كان سرجون واقفاً على عربته يقود بيد ثابتة زمام خيوله ملبدةَ العرفِ وهي تسير باتجاه منطقة تابال. ابتهل الملك إلى إله حمايته آشور وإلى عشتار آلهة القتال، وكانت أقراطه الثقيلة على وشك أن تدق صوت الانتصار. على أن الموت كان في انتظاره وأتى ليقطف حياة ملك آشور القوي الذي لم ينتظر طويلا ليعرف نهاية غامضة أثناء معركةٍ ضد ملك صغير "كورفي" الكولمي. لقد تعرض معسكر الجيش الآشوري في قلب شمال البلاد الذي لم يعرف الهزيمة يوماً إلى هجومٍ مباغت أثناء الليل أنهى حياة ملك آشور القاهر. توفي سرجون تاركاً اسمه مثل قوس مكسور بعد أن سطع مجده في كافة المعارك. والغريب في الأمر أنه لم يتم العثور على جسمه لكي يُدفن بكرامة في ضريح تحت قصره.

لماذا سمحت الآلهة بمثل هذه النهاية البشعة؟ هل حدث ذلك لأنه أخلّ بالمعاهدة المبرمة مع مردوخ ـ بلادان؟ ويسأل سنحاريب الأمير الوريث، يا ترى ما الخطيئة التي ارتكبها والده؟ وفق إحدى الكتابات الدعائية ضده المسماة "خطيئة سرجون"، كان السبب استشارة العرّافين والمتنبئين وأراد أن يتخلص من الحظ السيئ.

تعرضت دور ـ شاروكين، العاصمة الحديثة شيئاً فشيئاً إلى الإهمال، وقام الموسيقيون الذين كانوا قد عزفوا في الزمن الفاتن عند إقامة الاحتفالات في حفلة افتتاح المدينة، بإسكات آلاتهم إلى الأبد.

3- لقاء مع سرجون وعاصمته

قام قنصل فرنسا السيد بول أميل بوتا Paul-Emile Botta باكتشاف مدينة دور ـ شاروكين، معتقداً في البداية بأنها آثار مدينة نينوى. كانت الورود تنشر عبقها في الربيع على هذه الأرض الخصبة

وتحمل دائماً في طياتها لون حدادٍ على الملك سرجون، وكان حلمه يكلل الأشجار المزهرة.

في شهر آذار سنة 1843، نبه أحد الصباغين المسيحيين المحليين السيد بول أميل بوتا بوجود بقايا أثرية في منطقة قريبة من مدينة الموصل. للحال باشر بإجراء أعمال تنقيب في موقع خورصاباد الواقع على مسافة 16 كيلومتر من الموصل المدينة الكبرى في شمال بلاد الرافدين (العراق حالياً). واكتشف بقايا آثار قصر سرجون الثاني، فقام باستخراجها من تحت الأرض. واستمرت تلك التنقيبات لغاية شهر تشرين الأول سنة 1844 ونجح باكتشاف الآثار الأولى من التاريخ الآشوري. ثم أرسل إلى باريس الآثار القديمة التي أخرجها من الأرض ليجهز بها الجناح الآشوري الجديد في متحف اللوفر، والذي دُشن في شهر أيار من سنة 1847.

استؤنفت أعمال التنقيب عام 1852 في موقع خورصاباد التي تمت تحت إشراف القنصل الجديد لفرنسا السيد فيكتور بلاس Victor Place، الذي كُلّف باستلام المنحوتات والإسطوانات والأوعية والمجوهرات الآشورية ونقلها إلى فرنسا، كي يستكمل ويُغني مجموعة الآثار الشرقية في متحف اللوفر. ولكن الطوافات التي كانت تنقل صناديق الآثار القديمة إلى البصرة ومن ثم إلى الخليج تعرضت لهجوم شنه البدو عام 1855 مما أدى إلى غرقها. ولم يتم إنقاذ إلاّ خمسة وعشرين صندوقاً، أي تلك التي كانت محمولة على متن بعض الطوافات. وهكذا لم تصل إلى المتحف الباريسي سوى بعض الآثار المتمثلة في ثور مجنح واحد وتمثال مجنح كبير وبضع لوحات بارزة وأدوات ثمينة.

نظم المعهد الشرقي في مدينة شيكاغو ما بين عام 1928 و 1935 بعثات لتنقيب في موقع خورصاباد، واستخرج علماء الآثار الأمريكيون من تحت الأرض مساكن إقامة ومعبد نابو وقصراً كاملاً. وقد زار الملك

فيصل، ملك العراق سنة 1933 هذا الموقع وتناول غذاءه فوق آثار قاعة العرش داخل قصر سرجون.

حضرتُ عام 1994 بفرح كبير، داخل أروقة جناح ريشيلو في متحف اللوفر، افتتاح معرض تحت اسم "من خورصاباد إلى باريس" والذي رسم مراحل سير أعمال التنقيب التي جرت في ذاك الموقع التاريخي الهام. تتباهى اليوم الآثار الآشورية القديمة التي كانت موضوعة في السابق داخل قاعات غير مضاءة كما ينبغي، في قاعات عرض جديدة تليق بالآثار المعروضة فيها.

في الأزمنة الغابرة، كان في فناء قصر خورصاباد بضعة منحوتات تزين قصر سرجون وكانت تمثل عدداً من الميديين دافعي الضرائب بعد الانتصار الذي حازه زعيمهم "دایاكو" عام 715 قبل الميلاد، إضافة إلى مجموعة من المشاهد الحربية وصور الصيد ومشاهد عن الحياة في بلاط الملك، ومنحوتات مجنحة تدل على القوة الواقية الصالحة، وهي تبارك حاملة بأياديها القرابين.

شاهدتُ بأنه قد تم إعادة تشكيل باب القصر. ووجدتُ على اليمين، لوحات محفورة تمثل شخصية هامة ملتحية وبعض الخدم الذين يقدمون للملك أثاثه وأوعيته وعرشه.

وتعرض إحدى اللوحات على اليسار، الملك سرجون وهو يستقبل إحدى الشخصيات النبيلة أو الأمير الوريث لكي يعطيه تعليماته.

تحيط البوابةَ "ألاد لامو" وهما شكلان منقوشان ومنحوتان بشكل بارز، على هيئة ثورين مجنحين ضخمين برأس إنسان ومزودين بخمسة أقدام. وتشير قلنسوتهما الأسطوانيتي الشكل المزينتين بصف من القرون، إلى طبيعتهما الربانية. ويُعبّر وجهاهما الملتحيان عن نوع من الرفق النبيل الظاهر عليهما وهما يحرسان القصر من القوى الشريرة. واحد من الـ "ألاد لامو" مصنوع من المرمر الجبسي ويحل محل الثور الذي تعرض إلى الغرق في مياه نهر دجلة عام 1855.

وثمة كتابات منقوشة بالحروف المسمارية تضم الألقاب الممنوحة إلى الملك سرجون، موضوعة بين أقدام الثورين وهي تعرض تفاصيل قصة تشييد قصره.

يبدو لي وأنا أُمعِن النظر في هذين الثورين أنهما يدوران برأسيهما نحوي ويراقبانني من أعماق العصور وهما يوجهانني ويرافقانني في بحثي عن ماض غابر.

هوامش الفصل الثالث:

1- انظر: ميخائيل غيشار (MichaPël Guichard)، (Les dossiers de l'archéologie, Khorsabad) عدد خاص، رقم 4.

2- ثورو دانجان (F. Thureau Dangin)، كلام عن حملة سرجون الثامنة Une relation de la huitième campagne de Sargon، ملحمة الفينيقيين (L'épopée des Phéniciens) غوتنير، باريس، 1912

3- رسالة سرجون.

4- كيه في صقلية.

5- سيسيل ميشيل (Cécile Michel)، في خرصبات Khorsabad عدد خاص، رقم ، 1994، ص 7.

6- بحسب كتابة آشورية.

الفصل الرابع

حدائق وإنجازات سنحاريب

وقفتُ مسروراً فوق موقع نينوى المطل على الشاطئ الشرقي من نهر دجلة، مقابل مدينة الموصل حالياً، الذي يتكون من تلين اثنين، هما تل كوينجيك وتل النبي يونس. ويعرض هذا الموقع سوراً ضخماً بنيّ اللون متوجاً بمتاريس مخرمة، ويمتد على مسافة تبلغ بضعة كيلومترات. لقد تم ترميمه جزئياً من قبل مديرية الآثار العراقية، إضافة إلى تجديدها بوابتين أثريتين هامتين. فما كان مني إلا أن أستحضر ذكرى الملك سنحاريب العظيم الذي جعل من مدينة نينوى عاصمة له، و شيّد في موقع كوينجيك قصراً فخماً. وكان قد عُثر عليه في القرن التاسع عشر من قبل عالم الآثار الإنجليزي هانري لايارد A. H. Layard.

1- انتصارات سنحاريب

سنحاريب (704-681) هو أحد أبناء سرجون الثاني تربى هذا الملك في منزل خاص بالورثة "بيت ريدوتي" وفي مركز الحكم. تعلم منذ صغره كيف يكون ملكاً على يد والده. واستلم أعباءً إدارية وعسكرية هامة، ومارس الوصاية على البلاد عند غياب الملك، وكان يستقبل

المبعوثين وينقل الأخبار لوالده ويراقب الأعمال في خورصاباد تلك المدينة المحصنة الواسعة. تتوفر لنا اليوم عدة رسائل من مراسلاته التي قام بتحريرها إلى والده.

مارس سنحاريب إدارة الإمبراطورية عند مصرع والده أثناء حملة كان قد شنها في منطقة "تابال"، وبعد هذا الحادث المؤسف جلس على عرش والده. واجه مباشرة أعمال تمرد بابل التي أرادت التحرر من الحكم والوصاية الآشورية. وفي تلك الفترة عاد العاهل الكلداني مردوخ ـ بلادان من عيلام التي كان قد هرب إليها عندما قام سرجون الثاني بطرده واستولى على الحكم في بابل العاصمة.

الحملات الأولى

رد سنحاريب عام 703 على أعمال التمرد وشن حملته الأولى ضد بابل واستعادها من الملك مردوخ ـ بلادان الذي هرب داخل مستنقعات وأهوار جنوب بلاد الرافدين، ولم يتم العثور عليه. ودخل حينئذ سنحاريب إلى بابل واستولى على القصر الملكي وقام بنهب وسلب كنزه. وعيّن حاكماً على العرش منحدراً من منطقة بابل، وهو "بيل ـ ابني" الذي كان قد ترعرع وتربى في أحد قصر آشور.

واستطاع سنحاريب أثناء حملة ثانية التغلغلَ في المناطق الواقعة شرق نهر دجلة لإخضاع عشائرها المتمردة.

كما أنه شن حملة عام 701 في غرب البلاد متجهاً نحو بلاد الفينيقيين وفلسطين. في ذلك الوقت تمرد ملوك صيدا وعسقلان ويهوذا مدعومين من قبل المصريين ضد الآشوريين. عندئذ، أظهر الملك سنحاريب قوته الحازمة، مسلّحاً بقلبه الفخور وبعينيه الشامختين ووجهه القاسي، فتوجه شخصياً لمقاتلة المتمردين. وسار على رأس قواته متجهاً إلى هاتي (سوريا الشمالية). هرب الملك "لولي"، ملك

صيدا مذعوراً إلى البحر وغرق في عمقه وتم تدمير قلاعه المحصنة مثل صيدا الكبيرة وصيدا الصغيرة وساريباتا. وسيطر على عكا التي كان ملكها قد أودع فيها مؤن حامياته وتم إعلان خضوعها لحكم سنحاريب. و تمكن من أسر "سيدكا" ملك عسقلون وأرسله إلى آشور.

بعد أن انتهى من إخضاع خصومه، أرسل جيشاً كبيراً لمحاربة حيزقيا ملك يهوذا. وها هو شخصياً أمام لكيش المدينة اليهودية المحصنة الواقعة على مسافة تبلغ حوالي خمسين كيلومتراً في الجنوب الغربي من القدس أورشليم. فنصب سنحاريب منجنيق وأبراج حصار وشن هجوماً كاسحاً بواسطة قواته المنظمة وحاصرها واستولى على لكش هذا المركز المحصن الهام. وبعد ذاك النصر أمر بنحت مشهد الاستيلاء على مدينة لكش بشكل رائع على جدران القاعة الكبرى في قصره الواقع في الجنوب الغربي من نينوى. تعرض أحد الألواح المنقوشة بالحفر (المتحف البريطاني في لندن) الملكَ جالساً في معسكره، حيث يدير العمليات العسكرية ويراقب مرور جثث ضحايا المدينة بعد الاستيلاء عليها. لكن بعض قسمات وجهه تعرضت إلى المحو، وربما يكون ناتجاً عن عمل تخريب بعد ما تم اغتياله.

أسفر الحصار الأول المفروض على مدينة (القدس) أورشليم إلى إخضاع حيزقيا ملك يهوذا. وتروي إحدى الكتابات المنقوشة على مسلة تم العثور عليها في نينوى، بأن الملك سنحاريب صرح بازدراء قائلاً:

"وأما حزقيا يهوذا الذي لم يوافق على الخضوع إلى إرادتي (...)، فقد حاصرته في أورشليم، مدينته الملكية، مثل طير داخل قفص. وقمت بأعمال ردم ضده، وفرضت على أي شخص يخرج من باب المدينة أن يدفع ضريبة تعويضاً لذنبه. وقد قمت بعزل مدنه المحصنة التي استوليت عليها ونهبتها واستقطعتها عن أرضه... وتمكنت روعة جلالتي من القضاء عليه." 1

وتروي تلك الكتابة بأن حزقيا خضع مرغماً لدفع ضريبة هامة إلى ملك آشور، تبلغ ثلاثين مثقالاً من الذهب وكنوزاً أخرى ومنحه مغنيات ومحظيات، لكنه أنقذ المدينة من النار. ويؤكد الكتاب المقدس هذه الأحداث راوياً تفاصيلها:

"وفرض ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا، دفعَ مبلغ قدره ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثين من الذهب. فدفع حزقيا الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك كلها. في ذلك الزمان أخذ حزقيا الذهب من أبواب هيكل الرب والدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه لملك آشور." 2

بدون شك، قاد سنحاريب حملة أخرى ضد يهوذا في نهاية حكمه. و يروي أيضاً الكتاب المقدس بأنه لم يتم إنقاذ أورشليم إلا بتدخل من "ملاك الرب"، وكان سبب ذلك، أن مرضاً معدياً انتشر في معسكر الآشوريين، فكانت حصيلته وفاة ما يقارب مائة وخمسة وتسعين ألف مقاتل آشوري.

سنحاريب ضد بابل

سابقاً لم تُسوَّ المشكلة البابلية، لذلك لاقاها سنحاريب هو أيضاً. فقاد حملة عام 700 في منطقة أهوار الجنوب التي لم يتمكن من إخضاعها إخضاعاً تاماً والسيطرة على بيت ياقين، عشيرة مردوخ – بلادان الكلدانية الذي هرب إلى المنفى في بلاد عيلام. وتم بعد هذه الحملة خلع "بيل – ابني" الحاكم غير الكفؤ عن العرش، بعد أن كان قد نصّبه الآشوريون ملكاً على بابل، واستعاض عنه سنحاريب بابنه البكر، "آشور– ناديم –شومي".

شيء فريد، أن الملك سنحاريب طلب في تلك الأيام من الفينيقيين والقبارصة بأن يصنعوا له أسطولاً حربياً، كما هو مبين في مسلة

منقوشة تم العثور عليها في قصر نينوى، وكان هدفه شنَّ عملية عسكرية بحرية وبرية كبرى عام 694 باتجاه شواطئ الخليج لسحق الكلدانيين وحلفائهم. فتمكنت قواته بسلب ونهب بضعة مدن عيلامية حيث كان قد لجأ إليها أهل بيت ـ ياقين.

فردّ ملك عيلام على هذا الهجوم وقام بالتغلغل في أراضي بابل اعتباراً من الشمال واستولى على مدينة سيبار ودمرها. وخوفاً من العيلاميين، أسرع البابليون بتسليم الحاكم الشاب آشور ـ ناديم ـ شومي ابن سنحاريب إلى ملك عيلام، واختفى أثر ملك بابل الشاب في بلاد عيلام، ربما قد توفي هناك مقتولاً.

في عام 691، اضطر سنحاريب ملك آشور مجدداً إلى مواجهة تحالف العيلاميين والبابليين وقبائل زغروس الذين تحالفوا ضده وتوجهوا لمحاربته "مثل الجراد". في المرحلة الأولى، قاد حرباً ضد هذا التحالف الكبير ولكنه وعلى العكس من الأخبار المعلنة، لم يتمكن من تفكيك جيوش هذا التحالف. بل تعرض لنصف فشل في ضواحي مدينة "هالوله" الواقعة على ضفاف نهر دجلة (بالقرب من سامراء حالياً).

وأخيراً وبعد سنتين، أي عام 689، هاجم سنحاريب، الذي أرهقته أعمال التمرد المستمرة في إمبراطوريته، مدينة بابل خلال حملة عسكرية قادها شخصياً. تملكته أيضاً رغبة في الانتقام لمقتل ابنه آشور ـ ناديم ـ شومي، فقام بشنها كعاصفة ونهر جارف. وبعد محاصرة المدينة العريقة والمقدسة لمدة خمسة عشر شهراً، استطاع أخيراً الاستيلاء عليها وأسر الملك الكلداني "مشيزيب ـ مردوخ"، ابن مردوخ ـ بلادان الذي كان قد تم تتويجه ملكاً على بابل. ونفذ عملاً غير مسبوق، إذ قام بتدمير بابل تدميراً كاملاً وحرقها، ثم أغرقها تحت مياه نهر الفرات.

وبدأ بالاستيلاء على تماثيل الإله، فنصب لهم شرفة وأودعها في "أكيتو"، معبد مدينة آشور، الذي كان قد شيده بالأحجار الكلسية.

وبذلك حصل معبد أكيتو التابع لمدينة آشور على الامتيازات الدينية الخاصة بمدينة بابل، واستعاض عن الإله مردوخ بالإله آشور كرئيس للآلهة في مجمع الآلهة العظام لبلاد الرافدين.

وتروي لنا كتابة منقوشة على صخور جبل بافيان الواقعة على ضفاف الخازر في منطقة عين سفني (شيخان)، حملات الملك سنحاريب ضد البابليين. ويمكننا الاطلاع عليها من خلال هذا النص الذي يروي فيه الملك تلك الأمور:

"في جولة ثانية، توجهت بسرعة إلى بابل التي فكرت في الاستيلاء عليها. وأسرعت الخطى مثل العاصفة وبطحتها مثل الإعصار. لم أترك أيا من سكانها، كباراً كانوا أو صغاراً، شباباً أو شيوخاً وملأت ضواحي المدينة بجثثهم.

دُمّرت المدينة والمنازل وهُدّمت وحُرقت من أساساتها حتى سطوحها، ودُمّر كل شيء فيها: الجدران والأسوار ومعابد الآلهة والهرم المدرج المصنوع (الزقورة) من الآجر والطين ورميتها في نهر أركخت.

وحفرت القنوات، في أراضي (؟) هذه المدينة وأغرقت موقعها بالمياه ودمرت أساساتها كلها، وتوجهت... أسرع من الرياح.

وغمرتها تحت المياه لكيلا يتم العثور في الأزمنة اللاحقة على مكان هذه المدينة ولا على معابد الآلهة فيها، و... " 3

ورغم ذلك، لم يعترف البابليون بسنحاريب ملكاً شرعياً عليهم.

وتحول بلدهم إلى مجرد مقاطعة بسيطة من مقاطعات بلاد آشور الكبيرة.

لم يكن سنحاريب محارباً قوياً فقط، بل كان عازماً على حفظ النظام بأي ثمن كان في إمبراطوريته وفي نواحيها الواسعة.

لقد أظهر في فترات السلم، بأنه زوج ودود، كما يتبين ذلك في الإهداء الذي قدمه إلى "إشميتو ـ شارات" إحدى زوجاته، وهو الإهداء الذي يكشف لنا رقة قلبه وحرارة مشاعره تجاهها. ويبين هذا الإهداء

بأنه كان يحيط حبيبته هذه التي اشتهرت بجمالها الرائع، بعناية وحب وعطف، حيث قام بتشييد قصر ممتاز لها. 4

2- المعماري المبدع

على الصعيد الداخلي، تخلى سنحاريب عن دور - شاروكين عاصمة والده سرجون، واستقر في نينوى تلك المدينة القديمة في البلاد الآشورية المحصنة التي كانت تقبض الأسود في سواعدها المتينة... وربما تأتي تسميتها من اسم "نين" آلهة الحب، الذي يدل على النعومة كالمداعبة الرقيقة.

كانت هذه المدينة سابقاً تابعة للإمبراطورية الأكّادية، وأصبحت جزءاً من بابل خلال حكم حمورابي الذي ذكرها في ديباجة قانونه المشهور. وقام الملك الآشوري شلمنصر الأول (1274-1245 قبل الميلاد) بتشييد قصر كبير فيها.

وفي عهد سنحاريب أنجز معالم هامة بفضل النصر الذي أعطته أسلحته المتينة وغنائم الحروب التي جمعها من الرجال ومن حصوله على الضرائب الواردة من عدة ملوك خاضعين له. وكما ذكر، بدأ بتوسيع وتنظيم وتجميل مدينة نينوى وفق خطة محددة من قبل السماء ومن الأفلاك منذ الأبد. وهكذا تمكنت الأرض من محاكاة ما كان في السماء.

يقدم لنا الكتاب المقدس نصاً يتحدث فيه سنحاريب على لسان النبي اليهودي أشعيا قائلاً:

" عملت بقوة يدي وبحكمتي
لأني فهيم.
لقد نقلت تخوم شعوب،
ونهبت ذخائرهم.

وحططت الملوك كالبطل،
فأصابت يدي ثروة الشعوب كعش.
وكما يُجمع بيض مهجور، جمعت أنا كل الأرض،
ولم يكن مرفرفُ جناح وفاتح فم ولا مصفصف." 5

جعل سنحاريب من نينوى مدينة جميلة وبلاطاً لدولته وعاصمة لإمبراطورية واسعة الأطراف. وأحاطها بسور عال جديد، شيده بكتل كبيرة من الأحجار الكلسية التي كانت "أكثر ارتفاعاً من الجبل"، وبسُمكٍ بلغ في بعض أماكنه خمسة وأربعين متراً. وكان هذا السور المتوج بالمتاريس المسننة يمتد على مسافة اثني عشر كيلومتراً وشمل خمسة أبواب، تم إهداء كل منها إلى إله من آلهة آشور. كما قام الملك بتوسيع الشوارع والساحات في مدينته وجعلها "مشرقة مثل نور النهار"، وبنى فيها مساكن فخمة وترسانة أسلحة كبيرة وشيد فيها جسراً على نهر دجلة.

قصر لا منافس له

بعد أن أصبح القصر الملكي السابق ضيقاً وغير ملائم لذوقه، قام سنحاريب بتشييد قصر جديد اعتباراً من سنة 703، في الجنوب الغربي من عاصمته، واهتم فعلاً بالبحث عن أفضل مواد لإنشاء هذا القصر ونقلها إلى مدينته.

كان الملك بحاجة إلى خشب الصنوبر والأرز والحجر، وأيضاً إلى مواد ثمينة كالنحاس والبرونز والحديد والذهب والفضة. قام حينذاك بجلبها من كافة نواحي الشرق الأدنى لتزيين أطر الأبواب والنوافذ والسقوف والأعمدة في مختلف أقسام قصره ولصنع تماثيل الثيران المجنحة والحيوانات الرمزية والعنز البري. وقام بإنشاء رواق أطلق عليه اسم "بيت هيلاني" وفق طراز القصور الحيثية.

واستمر الملك في تزيين قصره هذا بعناية كبيرة، والذي احتوى على أكثر من إحدى وسبعين غرفة. وعمل على نصب ثيران كبيرة برؤوس بشرية، وكائنات حسنة منحوتة من الحجر المستخرج من مقالع المنطقة، لكي تحرس أبواب القصر الرئيسة. كما نصب في قصره لوحات محفورة ومنحوتة نحتاً دقيقاً من الجبس، تروي كتاباتها ورموزها أحداث حملات انتصاراته التي قامت قواته الآشورية بشنها ضد عشائر جنوب بلاد الرافدين. أما القاعة التي حملت الرقم ستة وثلاثين، كانت مكرسة خصيصاً لحصار لكش الشهير في بلاد يهوذا.

وأمر بفرح ورضى قلبه، كتابة قصة أعماله في مختلف أقسام قصره.

ويروي مقطع صغير من حوليات الأحداث في ذلك الزمن، بأن سنحاريب طلب مساعدة الإله "إيا"، إله المياه العذبة والحكمة، لأنه الرب القدير الذي يعلّم البشر العلوم والتقنية ويمنحهم حدة الفكر التي تساعدهم لحل مشاكلهم.

واكتشف الملك طريقة جديدة، تمكّن الحرفيين من صهر مادة البرونز لِصُنع تماثيل سوداء اللون وثيران عملاقة بثقل يبلغ 43 طناً لكل واحد منها، وكانت تستعمل لإسناد أعمدة رواق "بيت هيلاني" الملاصق بالقصر. وتقوم هذه الطريقة بصبّ القطع بطريقة فنية مثلما هو الحال في صب قطع النقود المعدنية التي تزن نصف الشاقل، ويتم عندئذ تجميعهما سوية.

يروي الملك ويقول:

في السابق، عندما كان آبائي الملوك يرغبون بصنع تمثال من البرونز لصورتهم الشخصية ووضعه داخل المعبد، كان عملهم هذا يرهق الحرفين. لكني، أنا الملك سنحاريب، وبعد التفكير بالمشكلة... وبإيحاء من الإله "إيا"، طلبت (من الحرفيين) صنع قالب من الصلصال حيث يُصب البرونز بداخله، كما هو الحال عند صب قطع من نصف شاقل." 6

اخترع سنحاريب، الذي كان يتمتع بفكر نبه وماهر ومليء بالخيال، تقنيات جديدة أهمّ من تلك التقنيات التي استعملها الملوك السابقون، لأنه قام بتطوير مواد بناء قصره وأدخل فيها تجدداً وابتكارات متعددة.

وأصبح قصره الذي جهزه وزينه بثراء "قصراً لا مثيل له"، يبين زهواً في الأشكال المختارة والألوان الجميلة والأخشاب العطرة. فكان يمثل مرآة تعكس قدرات وعظمة الدولة الآشورية.

جنائن نينوى المعلقة

نفّذ سنحاريب في مختلف مناطق مدينة نينوى التي كانت قد تعرضت لأضرار نتيجة نقص المياه فيها، طريقة زراعية ذكية أدت إلى إنجاز مشاريع إرواء هامة وشهيرة. ولذلك قام بحفر قنوات مائية استعملها لجلب المياه من جبال المناطق الشمالية بغزارة وإيصالها إلى مدينة أربيل ونينوى لكي تُسقي الحقول العطشى والجنائن المتنوعة.

قام الملك برسم هيئة الجنائن وزينها بالتلال الصغيرة والشجيرات، فكانت تشبه المناطق الجبلية وتماثل أمانس ذاك المرتفع الشاهق العريق في سوريا الشمالية.

ونظراً لقدراته على الإبداع، ابتكر مكائن رافعة استعملها في الفصل الحار لجلب المياه من أعالي التلال وسقي الحدائق بها. وقام أيضاً بصنع قوالب أنبوبية الشكل من الصلصال اعتباراً من جذوع الأشجار، حيث كان يصب النحاس الساخن بداخلها. ويتم في هذه الطريقة بعد أن يبرد المعدن الساخن كسر القوالب الترابية، وبالتالي الحصول على إسطوانات مجوفة توضع فوق صهاريج.

وأمر سنحاريب بصنع حبال وأكبال وسلاسل من البرونز لغَرف الماء يومياً من الخزانات. واستعمل طريقة اللوالب التي كانت تدور داخل

الإسطوانات لرفع المياه إلى فوق. وتعرض إحدى الكتابات المنجزة من قبل الملك سنحاريب وصفاً لهذه الآلات الرافعة:

"اخترعتُ أدواتٍ مصنوعة من النحاس وقمت بصنعها بمهارة. ابتكرت وفقاً لخطة الإله، قوالب من الصلصال لاستعمالها في "جذوع كبيرة" وفي أشجار النخيل الكثيرة، ثم قمت بصب النحاس بداخلها. [...] ولكي أتمكن من غرف الماء كل يوم من الخزانات، طلبت صُنع حبال وأكبال وسلاسل من البرونز وقمت بوضع "جذوع الأشجار" والنخيل المصنوعة من البرونز فوق الخزانات" 7

أتاح سقي الحدائق بهذا النظام نموَّ مختلف أنواع الأشجار المثمرة في مدينة نينوى، إضافة إلى أشجار الصنوبر والتوت والكروم والنباتات العطرة التي استوردها من مختلف البلدان البعيدة وكان الملك يرسل موظفيه في مختلف المقاطعات لجمعها ونقلها إليه:

أنا سنحاريب ملك آشور المنتصر على الملوك قمت من "الشرق" ولغاية "الغرب"... بفضل (؟) مياه القنوات التي أمرت بحفرها، زرع (؟) النباتات في كافة أنحاء نينوى والغابات والكروم و ... والتي ... من كافة الجبال والنباتات من كافة الأماكن (؟)..." 8

وبما أن الملك كان شغوفاً بجلب الأشياء الغير معهودة، قام بتحديد منطقة ووضع فيها الحيوانات النادرة. وأنشأ واحة اصطناعية وزرع فيها مجموعة من أشجار قصب السكر، كما وضع فيها طيوراً تنتمي إلى فصيلة مالك الحزين الجميلة وخنازير وجواميس. فتكاثرت في مختلف مناطق هذه الواحة وأعطت صغاراً كثيرة وجاءت الطيور الحسناء وعشعشت فيها.

كانت الحدائق الرائعة المعمولة على شرفات القصر قد شكلت بالنسبة إلى الملك وحاشيته أماكن نموذجية للراحة والاسترخاء والمتعة، وكانت شبيهة "بعالم مصغر" لإمبراطوريته الواسعة. فهل كان هذا

الملك مصدر أسطورة ما يسمى *"بالجنائن المعلقة"* التي أصبحت إحدى عجائب الدنيا السبع والتي ربما كانت موجودة في نينوى وليس في بابل كما هو شائع في مختلف القصص التاريخية. ربما حدث التباس بين المدينتين من قبل الكتاب اليونانيين المتأخرين؟

لا بد أن سنحاريب كان ينسي همومه ومشاغله عندما كان يتنزه في جنائنه الواسعة، حيث كان يسترجع ارتباطه مع الأرض والماء والهواء و مع العناصر الأساسية والقوى الخفية والسرية التي تغذي جذور الحياة. ولا بد أن نسيم الهواء الدافئ الذي كان يهبّ عبر أشجار النخيل والصنوبر قد داعب وجهه. كان الملك يقف في نهاية أحد مماشي جنائنه، مدفوعاً بحب إطلاعه على إحدى النباتات المستوردة حديثاً إلى جنائنه المعروفة "بالشجرة التي تحمل الصوف" مثل الخروف، والتي لم تكن سوى شجرة القطن، ولابد أنه قد تمعنها بسعادة.

كانت أجواء حدائق سنحاريب مليئة بالعطور وتغريد العصافير، وكانت أحواض الماء البراقة تبتسم تحت شمس نينوى الساطعة وتلتف الكروم بأوراقها وأغصانها حول مختلف أنواع الأشجار. فكان يغزو قلب الملك نوع من فرح مجهول وكثيف. كان يصرف خدمه من حوله، ليبقى وحيداً في هذا العالم الذي يحترمه ويقدره ويعبر عن إعجابه به. فكل شيء يثير إعجابه ويبهره مثل الفجر الأول للإنسان.

3- على خُطا سنحاريب

كنت أحلم بالذهاب لرؤية الآثار والمنحوتات الحجرية والكتابات المنقوشة على واجهاتها، تلك التي تركها سنحاريب، ملك آشور الكبير في مناطق شمال نينوى.

بدأتُ زيارتي بالتوجه إلى قناة جيروان الواقعة في أسفل جبلٍ في شمال البلاد بالقرب من عين سفني (الشيخان).

وسلكتُ الطريق الرابط بين مدينتي دهوك وأربيل مخترقاً الجبل العالي الذي يبلغ ارتفاعه 1100 متر والذي ينحدر فوق سهل خصيب ومليء بالنباتات الخضراء حيث تنمو الحنطة والشعير، وتغزو حقولها أزهار الخشخاش الحمراء الفاقعة. وبعد قطع مسافة بلغت حوالي خمسين كيلومتراً وصلت أخيراً إلى موقع جيروان.

كانت آثار موقع قناة جيروان قائمة في أسفل التلال لجبل تغطيه الأشجار والورود، وتنتشر في أرجائها الماعز والنعاج البيضاء السمينة.

كان المنظر يمنح مشهداً فريداً. وكان من الضروري استعمال حوالي مليوني حجرة بيضاء للتمكن من إنجاز هذا العمل الفني المدهش.

أمر سنحاريب بجلب كميات كبيرة من المياه النقية من الجبال الواقعة في الشمال الشرقي (منطقة بافيان)، وتحويل مجراها عن طريق قنوات تمّ حفرها بنظام وجمعها في سد واسع بلغ عرضه 280 متراً وبارتفاع قدره تسعة أمتار.

من هذا المكان تنطلق قناة جروان البالغ طولها 50 كيلومتراً، وتمر فوق جسر عريض في وادي جيرموا ومن هناك تتوجه نحو مزارع نينوى.

وكانت البناية مجهزة بخمس قناطر هندسية وبارتفاع وصل إلى خمسة أمتار لكي تمر فيه مياه نهر الخازر.

ويمكن للمرء أن يرى في الموقع حالياً كتابات احتفالية تتطرق إلى هذا الأثر الذي تم إنجازه في مدة قياسية بلغت خمسة عشر شهراً، وصرح الملك خلال الاحتفال بتدشينه بكل فخر مبرراً إنجازه بما يلي:

"رأيت نقاط تدفق المياه وقمت بتوسيع منابعها الضيقة وحولّتها إلى خزانات، لكي تتمكن هذه المياه أن تمرّ من خلال الجبال الوعرة. وقمت بالحفر في الأماكن الصلبة أيضاً، ووجهت دفع المياه نحو السهل المحيط بمدينة نينوى. وباشرت بتقوية (ضفاف) خنادقها... وتم ذلك على مسافات طويلة اعتباراً من نهر هوسور (خازر).

وقمت بحفر قناة موجهة نحو مزارع نينوى، فتمكنت من مد جسر من الحجر الأبيض فوق الوديان العميقة، وعملت على جعل المياه تجري فوقه." 9

تم افتتاح قناة جيروان عام 691 قبل الميلاد، ومن المحتمل أن يكون هذا الافتتاح الرسمي منقوشاً على لوحة حجرية في قصر نينوى.

قام فريق من علماء الآثار قدموا من المعهد الشرقي في شيكاغو بإجراء أعمال تنقيب على الموقع بين أعوام 1933 و 1934 وكتبوا وصفاً وشرحاً لهذا الموقع الواسع.

آثار خينيس - بافيان المنحوتة

ترك سنحاريب في شمال نينوى وفي منطقة عين سفني (شيخان)، أثرَ منحوتة هامة. واصلتُ سيري وتوجهت إلى موقع خينيس ـ بافيان.

تعرضُ اللوحات المنحوتة على واجهة صخرية مضيق خينيس – بافيان جلالة سنحاريب الملك القوي ملك آشور وملك المناطق الأربع. ويبدو فيها واقفاً في حالة صلاة وهو يرفع يده باتجاه الآلهة الآشورية الجالسة على حيوانات رمزية.

تُظهر الواجهات الصخرية كتابات منحوتة بالحروف المسمارية في ثلاثة أماكن مختلفة من الصخور، التي تعرضت للأسف الشديد إلى التلف في بعض أماكنها. إنّها تقدم وصفاً للأعمال التي تم إنجازها في

نينوى والقنوات التي قام الملك بتشييدها. وتصف الاحتفالات بتدشينها، التي تخللتها مراسم تقديم الأضحية والشعائر الدينية.

ثم تتطرق كتابات سنحاريب إلى انتهاء حملاته العسكرية ضد بابل وانتصاره في المعركة وتدمير المدينة كما رأينا ذلك سابقاً. وينتهي الوصف باللعنة على الأمراء القادمين الذين قد يقومون بتدمير عمله الكبير هذا والذين يجرؤون على تغيير مجرى مياه القنوات من نينوى.

تخلد هذه الكتابات المنحوتة اسم سنحاريب للناس على مرّ العصور وتروي أعماله الجبارة. والآن، يبقى شكله الملوكي المنحوت جزءاً من المنظر الطبيعي في هذا الموقع.

وهنا أيضاً، في منطقة خينيس ـ بافيان الواقعة على ضفة نهر خازر، قام عمال في الزمن الماضي باستخراج الأحجار التي استعملوها لنحت الثيران المجنحة الضخمة ذات الرأس البشري التي زينت القصور الآشورية. بقي اليوم تمثال كبير مطروح هنا على الأرض، ربما لم يتم نحته كاملاً.

فكرت بتأثر شديد بأن من المحتمل أن يكون سنحاريب قد جاء إلى هذه الأماكن، ولابد أنه قد جلس في عربته تحت ظل مظلة تحميه ليراقب أعمال العديد من عماله. فهل نزل من عربته في يوم حار، غافلاً عن عظمة جلالته، للسير هنا ببضع خطوات؟ وهل انحنى بتواضع على ضفة هذا النهر، للعثور على العذوبة والنشوة بين الحشائش الكثيفة، منحنياً باتجاه النهر البلوري المتلألئ بالضوء في الظهر، والذي تنتشر على سطحه الشذرات الذهبية البراقة؟ لابد أنها عكست تقاسيم وجهه على سطحها واستمعت إلى أسراره. كانت ومازالت مياه النهر تجري محافظة على بريق يوم سعيد من أيامه وعلى ذكر ملك عظيم.

وتيقنت بأن موقع خينيس ـ أفيان قد تعرض لمدة طويلة إلى الإهمال وخضع إلى مخاطر الطبيعة وتقلباتها وإلى الهزات الأرضية ومختلف أنواع الكوارث.

كما قام بعض الرهبان المسيحيين، في الزمن الغابر بحفر غرف لسكناهم داخل لوحات صخور الموقع، معرضين بذلك الحضارة الآشورية (الوثنية بالنسبة لهم) إلى إتلاف قسم من لوحاتها المنحوتة، بل أيضاً حفروا غرفاً داخل ثوب الملك المنقوش على صخرها.

منحوتات معلتاي الصخرية

كما هو الحال في بافيان، قام سنحاريب بتنفيذ أعمال حفر على لوحات صخرية في ملطاي بالقرب من دهوك، تعبيراً عن شكره للآلهة التي منحته الانتصار على خصومه. اقتفيتُ أنا أيضاً خطوات الرحالة الإنجليزي والمنقب عن الآثار المشهور هنري ليارد Henry Layard (1817–1894) الذي قام برحلة خاصة لرؤية الموقع وعبّر عن إعجابه بهذه اللوحات الفريدة.

كان هذا الموقع الأثري حصناً آشورياً قديماً ونقطة استراتيجية للجيش. بالنسبة لي وللأسف، كان الموقع الجبلي شديد الانحدار ومن الصعب الوصول إلى أمام المنحوتات. فما كان عليّ بعد خيبة أملي إلا أن أشاهد من بعيد أطلال الآثار المنحوتة الباقية، إنّها محفورة فوق واجهة صخرية للجبل، وجدتُها مهملة وفي صمت ثقيل، إنّها أربعة ألواح مزينة بتسعة رؤوس بشرية وإلهية. وبغية تكريمها كان سنحاريب الملك وأحد كبار الدولة – يبلغ ارتفاع كلٍّ منهما متراً وخمسين سنتمتراً – ينتصبان أمام الآلهة السبعة الواقفة على حيواناتها الرمزية، المتمثلة بإله آشور ونينليل وإينليل وسين وشمش وحداد وعشتار، ولا توجد عليها كتابات معينة. كان سنحاريب مخلصاً لبلاد آشور الوعرة، المحاطة بالجبال، الغنية بالأنهار الدائمة. لذلك ترك بصمته الشخصية على أرضها وبلا شك يحرصها دوماً بحبه لها. في الحقيقة هناك تجاذب دائماً بين الإنسان ومسقط رأسه.

تأملتُ خاتمة قصة سنحاريب المأسوية بشيء من الألم. عاش هذا العاهل تحت تأثير كبير مارسته عليه نقيا "زاكوتو" إحدى زوجاته بتعيين ابنها المدعو أسرحدون عام 683، وريثاً منتظراً من بعده، وأدى قادة الآشوريين اليمين بمساعدة الأمير الشاب.

على أن أخوته امتعضوا من هذا العمل، وبدؤوا بالتحرك ضد سنحاريب والدهم.

وكان سنحاريب قد عانى من وفاة ابنه آشور ـ ناديم ـ شومي ملك بابل الذي اختفى ظلماً في بلاد عيلام.

وفي عام 681، قام أردا ـ موليسو ابن سنحاريب – الذي اختير سابقاً أميراً وريثاً وتعرض إلى الإزاحة – بتدبير مؤامرة ضد والده مع بعض من رفاقه.

في العشرين من شهر (كانون الثاني)؛ أكثر الأيام مرارة، عندما كان سنحاريب يصلي في معبد نيركال بمدينة كالح تحت الرعاية الإلهية، سمع صوت أقدام، فرفع رأسه وتعرف فجأة وبألم على وجه ابنه أردا ـ موليسو، القاسي والقاتم. عندها قال له: أهذا أنت، يابني!

وبعد لحظات قليلة، سقط الملك على الأرض بعد أن تعرض إلى ضربة قاضية أدت إلى وفاته، كما يروي لنا ذلك، تاريخ يعود إلى العصر البابلي الجديد.

لم يترك الخنجر اللهيف والدميم إلا شيئاً واحداً، ألا وهو جسد سنحاريب ملك آشور الكبير بدون نَفس. ذلك الرجل الذي عمل من أجل الحياة والمجد والذي قاد جيوشاً وأساطيلَ رهيبة وحكم إمبراطورية واسعة لمدة 23 سنة.

صار القصر الملكي في حالة من البكاء، وسكبت الملكات وسيدات حاشيته الدموع وانتحبن حزناً عليه. وقامت النساء بغسل جسد الملك

من الغبار والدم وأغلقن جروحه المخيفة وعملن على إخفاء أي أثر للعنف عليه. ثم مسحن جسمه بالعطورٍ ودهنّه بالزيت الراقي، وألبسنه الملابس الملوكية وسهرن أمامه إكراماً لجلالته.

وتم إعلان وفاة الملك في كل البلاد، فقدّم له السكان مراسيم التكريم، ورافقت الموسيقى الحزينة أصوات الشعائر والصلوات والنحيب لعدة أيام كاملة. دفن سنحاريب في مدينة آشور، العاصمة الدينية، تحت القصر الرئيسي، في تابوت مصنوع من الحجر بلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار. وكتبتْ على تابوته عبارة منقوشة مفادها *"قصر الناعس، قبر الراحة وإقامة سنحاريب الخالد، ملك الكون وملك آشور"*. وتم بعد ذلك ختم غطاء التابوت بأقفال من البرونز.

لم يصرف ملوك آشور مبالغ هامة لبناء قبور ضخمة ولنصب المعالم الجنائزية أو لإنشاء الأهرامات كما كان الفراعنة يفعلون في مصر، ولم يتم قط تحنيطهم. إذ لم يعتقدوا بأنهم يتجهون نحو الخلود العذب ونحو منطقة البهاء، بل كانوا يظنون بأنهم سينزلون إلى "بلد اللاعودة"، حيث يستقرون في عالم الظل والغبار.

كانت تقاليد ذاك الزمن تسأل عن الذنب الذي ارتكبه الملك تجاه الآلهة لكي يستحق مثل هذا المصير، بالنسبة إلى البابليين، كان ذنب سنحاريب يكمن في قيامه بتدمير عاصمتهم بابل وسبي التماثيل الإلهية إلى آشور. أجل، لقد جعل من الإله آشور الإله الأعظم، فأخذ مكان الإله مردوخ عند الاحتفال بعيد السنة الجديدة ولم يتقيد الملك بالشعائر السماوية المتوارثة في بابل.

ترك لنا سنحاريب شيمة أسد في القتال وسيمة ملك منتصر، وبنّاء حريص على سموه ورفاهيته. وعُرف برجل آداب وفنون وتقنيات وزوج حنون وعاشق لجمال المرأة والطبيعة. وأدت حملاته العسكرية وإنجازاته الكبيرة وحلمه من جعل نينوى مدينة ثرية تخلّد ذكره. تمكن من استعمال طاقاته الفكرية وجهوده الفعلية بغية إدخال آشور في عصر التقدم.

هرب قاتلو سنحاريب بعد فترة وجيزة من قتله إلى منطقة أوراتو (الأناضول الشرقية)، ثم اضطروا إلى اللجوء في دولة صغيرة مجاورة واقعة في أعالي وادي نهر دجلة، هي دولة شوبريا. ثم وقعوا في الأسر عام 673 عندما تعرضت دولة شوبريا هذه إلى الغزو وضمها إلى بلاد آشور، حيث نُفذت عقوبة الموت بحقهم. عندئذ جرى احتفال كبير ومراسيم باهرة تكريماً للملك المتوفي.

هوامش الفصل الرابع:

1- بلاد الرافدين (La Mésopotamie)، منشورات تايمس – لايف (Times-Life)، هولندا أمستردام، ص 107.

2- الكتاب المقدس، كتاب الملوك، 11، 18، 14، ترجمة الـ سيكوند (L. Segond)

3- تواريخ آشور وبابل (Chroniques d'Assyrie et de Babylone)، كتابة بافيان، ترجمة بونيون (H. Pognon) ، منشورات باليو 2011 (Paléo, 2011) ص 44-45.

4- ليونيل مارتي (Lionel Marti)، في ملف التنقيبات الأثرية (Les dossiers de l'Archéologie)، ، العدد رقم 348، ص 56.

5- الكتاب المقدس، ترجمة الـ سيغوند (L. Segond)، ص 10.14.

6- فيرا (M. Viera)، الآشوريون (Les Assyriens)، منشورات دي سوي، (Seuil) باريس ص 181.

7- موشور ثماني الأضلاع لسنحاريب (Prisme octogonal de Sennhachérib)، سومر 9، 1953 من كتاب (Dalley, Niniveh, Babylone and the hanging garden, cunneform and classical sourcesreconciled)، ص 56، 1994، مكورة من قبل فيرونيك غراند بيار منشورات دي سوي (Véronique Grandpierre)

8- تواريخ آشور وبابل (Chroniques d'Assyrie et de Babylone)، كتابة بافيان، ترجمة بونيون (H. Pognon) ، منشورات باليو 2011 (Paléo, 2011) ص 41.

9- فرانسيس جوانيس (Francis Joanès)، قاموس حضارة بلاد الرافدين (Dictionnaire de la civilisation mésopotamienne)، منشورات روبير لافونس، باريس، سلسة كتب (Robert Laffon) ص 60.

173

الفصل الخامس

أسرحدون، الملك المنتبه لعلامات السماء

دراسة التاريخ، تعني الانجراف عبر دفق من الأحداث والدماء، والعيش في ذاك الماضي الذي وصلنا والذي لم يختفِ من الحياة تماماً، والمشاركة على سبيل المثال مع أسرحدون في صيف بلاد آشور الواسع. أنا مجبول بنسيج التاريخ وأنا وارثه.

1- أسرحدون، الملك المحارب والملك المشيد

عصفت ريح الجنوب

يروي أسرحدون (681-669)، الذي كان بدون شك أصغر أبناء سنحاريب في حولياته (في الموشور سين) بأن اختياره أميراً وريثاً، جاء بمشيئة الآلهة وبرغبة سنحاريب والده. نال هذا الأمير في صغره تربية حسنة وتمكن من إجادة المعارف الأدبية والعلمية في زمانه.

حدثت حرب أهلية في بلاد آشور بعد مقتل سنحاريب من قبل ابنه أردا ـ مليسو. إنّها الحرب التي وقعت ضد أسرحدون وكانت نتيجة مكائد ومؤامرات قام بها إخوته وبدعم قسم من أهل آشور.

واجه الأمير الشاب مع جيشه المتمردين أثناء معركة هامة، ومن حظه أن بعض قوات المتمردين انضموا إليه.

تروي حولية أحداث هذه الحرب:

"هؤلاء الأشقياء، صنّاع الاضطرابات والتمرد،
عندما علموا بتقدمي في المعركة، تركوا جنودهم وانهارت عزائمهم
وابتعدوا ثم هربوا، فوصلتُ إلى شواطئ دجلة.
وبأمر من الإلهين سين وشمش أرباب الرصيف،
دفعت قواتي لتقفز وتعبر دجلة العريض، مثل عبور الساقية.
في شهر أدار (آذار)، الشهر الملائم، وفي الثامن عشر منه،
وهو عيد إله نابو،
دخلت فرحاً وسط نينوى مدينة جلالتي،
وجلست على عرش أبي بسعادة، وهبّ نسيم الجنوب،
ريح الإله آيا، الريح ذات النسيم الحسن لممارسة نظام الملكية،
انتظرتني العلامات الملائمة في السماء وعلى الأرض،
وأيضاً النبوءة ورسالة الآلهة والآلهات،
كانت تشير إليّ بدون توقف، وتعمل لطمأنة قلبي." 1

حسب اعتقادهم، كانت رياح الجنوب تشير إلى الفأل الحسن وذات النسيم العذب ملائمة للإله "آيا"، إله المياه النقية والحكمة والسحر، لأنه هو الذي ينمي العشب والنباتات والزهور ويُبهج ويُحي. لقد سهّل وأيد هذا الاله نظام الملكية في عملها.

وأخيراً انتهت الحرب الأهلية وتم تتويج أسرحدون في مدينة آشور. وأسدى عقوبة قاسية للمتمردين.

بعدئذ، أصبحت الإمبراطورية الآشورية كاملة تحت سيادة أسرحدون بعد أن مرّت بظروف مأساوية. فما هي يا ترى الأحاسيس التي شعر بها الملك، هل هي الانفراج والفخر والنشوة، أم الخشية والألم والشعور بالذنب؟

قضى أسرحدون جزءاً من حكمه في شن الحملات العسكرية، للسيطرة على الاضطرابات التي كانت تهدد إمبراطوريته.

في عام 679، غزت أقوام السقيط Scythes الشبه بدوية التي قدمت ربما من مناطق الفولكا، واختلطت بالأقوام الكيميرية Cimmeriens القاطنين في آسيا الصغرى، على الطرف الجنوبي من طوروس. ولكن أسرحدون أجبرها على التراجع والتقهقر.

وشن بعد سنتين من هذا الغزو، في عام 677 حملة عسكرية باتجاه الغرب ضد فينيقيا وتمكن من الاستيلاء على صيدا، وقام بقطع رأس ملكها "عبدي ـ ميلكوتي" الذي كان قد تمرد عليه. كما قام بسبي سكانها إلى بلاد آشور حسب رواية حولياته:

"إن عبدي ـ ميلكوتي، ملك صيدا الذي لم يعترف بسلطتي والذي لم يسمع الكلام الصادر من فمي، إذ وضع ثقته في البحر الكبير ورفض الخضوع إلى آشور. قمت بتدمير صيدا المدينة المحصنة الواقعة وسط البحر تدميراً كاملاً. بل حطمت ورميت في البحر أسوارها وبيوتها وقمت بالقضاء على المكان الذي تم تشييدها فيه.

" وبفضل ربي إله آشور، اصطدت ملكها عبد ـ ميلكوتي في البحر مثل السمكة، وكان قد تراجع أمام أسلحتي هارباً إلى وسط البحر، فقمت بقطع رأسه." 2

قبض أسرحدون على زوجة وأبناء وبنات ملك صيدا وسباهم إلى بلاد آشور مع العديد من رعايا المدينة. واستولى على الكثير من الحيوانات والأبقار والعجول والحمير. وأُخذتْ كميات كبيرة من الأموال النادرة والثمينة من القصر، ومنها الذهب والفضة والأسلحة والأحجار الثمينة. وأيضاً الأقمشة والصوف والكتان وعاج الفيل

وأخشاب الأبنوس والجبنوس. وهكذا تم ضم شمال مملكة صيدا إلى الأراضي الآشورية وتحويلها إلى مقاطعة خاضعة لها.

أما ملك صور الجديد، فقد أُجبر على دفع جزية إلى أسرحدون واضطر إلى إبرام معاهدة معه لتنظيم التجارة بين البلدين.

بعد ذلك اضطر ملك آشور إلى مواجهة غزوات أقوام المانيين Manéeens القادمين من جنوب أورميه، والسقيط الذين كانوا يسكنون في شمال البحر الأسود. أراد ملك آشور تهدئة الأمور، وبعدما طاب رضا الإله شمش، منح إحدى بناته زوجة إلى رئيس السقيط، المسمى "بارتاتوا" (بروتوتيس عند اليونانين) آملاً أن يجعل منه حليفاً لمملكته.

ثم شنّ أسرحدون حرباً ضد العرب وأخضع ملكهم المدعو هازايل لسلطته.

يقول الملك أسرحدون:

"مدينة أدومو (هي) حصن في بلاد العرب،

التي كان قد استولى عليها سنحاريب ملك آشور، الأب الذي أنجبني

وكان قد أخذ آلهة العرب، كغنيمة وجلبها إلى آشور،

فجاء هازايل ملك العرب، مع هدية كبيرة إلى نينوى مدينة الأرباب،

قبّل قدماي. وتوسل مني أن أرجع إليه آلهته وأشفقت عليه." 3

أعاد أسرحدون إلى هازايل آلهته العربية، بعد أن قام بتجديد هيئتها.

وقاد أيضاً حملة في منطقة ميديا، الواقعة في الشمال الشرقي من آشور وهي المنطقة التي لم يكن قد وصل إليها آباؤه الملوك أبداً، وأخضع عدة مدن مثل بارتاكا وأوراكازابارنا وبارتوكا إلى سيطرته وأبرم اتفاقية مع حكامها.

كان حلم أسرحدون الكبير فتح مصر. قام بمحاولة أولى عام 674 وأرسل جيشاً إليها، لكنه تعرض إلى الهزيمة على يد فرعون مصر المدعو "تارقا" (690-667 قبل الميلاد) الذي كانت سلالته تنحدر من منطقة كوش (النوبة العليا، في السودان).

وفي عام 671، حشد مجموعة كبيرة من الجنود وضم إلى جيشه قوات الدويلات الخاضعة له. واصطدم القائد الآشوري شا ـ نابو ـ شو بقوة مقاومة المصريين، لكن انتهت المعركة بعد قتال عنيف مع القوات المصرية بهروب الفرعون المصري تارقا. واستولى عندئذ على مدينة ممفيس الواقعة في دلتا النيل وأسر ونفى إلى بلاد آشور العائلة المالكة المصرية واستحوذ على كنز البلاد وجعل من مصر السفلى مقاطعة آشورية:

"من مدينة أيشوبري ولغاية ميمفي (ممفيس)، حيث المقر الملكي الواقع على مسافة خمسة عشر يوماً (سيراً)، قمت كل يوم بشن قتال دموي عنيف وبدون استثناء ضد ترقو (تاهركا) ملك مصر وكوش الملعون من قبل كافة الآلهة... وحاصرت ممفيس مقره الملكي واستوليت عليه في مدة نصف نهار، باستعمال الخنادق والفتحات وسلالم الهجوم. وجلبت معي إلى بلاد آشور كغنيمة حرب ملكته ونساء قصره وأرشانابورو و"وريثه المنتظر" وأطفاله الآخرين وأملاكه وخيوله العديدة وماشيته الكبيرة والصغيرة." 4

فرض سنحاريب جزية سنوية على المصريين وعلى الملوك والحكام والموظفين المُعينين في كل مكان من تلك البلاد المحتلة.

هناك مسلة جميلة تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، تم العثور عليها داخل برج سور في زنجيرلي (سمأل)، تلك المقاطعة الآشورية التي تعود إلى العصر الآشوري الجديد، تقع اليوم في تركيا على مسافة

70 كيلومتراً غرب مدينة غازي عنتاب. إنّها المسلة التي تمثل أسرحدون العارم، مرتدياً بدلة كهنوتية. وتُظهر فوق وجهه الموشح بالجلال، نقوشَ رموز الآلهة. وتُظهر المسلةُ الملك وهو يمسك في يده حزاماً مربوطاً بشفاه عدوين اثنين خاضعين تحت قدميه، ربما يتمثلان في عبدي ـ ميلكوتي، ملك صيدا و تارقو أو ابنه أرشاناهورو. وفي الجانب الثاني تعرض المسلة مظهر ابنيه، الأمير الوريث آشور بانيبال و شاماش شام أوكين، ملك بابل القادم.

إصلاحات أسرحدون

الأعمال الأولى التي قام أسرحدون بإنجازها بعد توليه العرش، هي إعادة تعمير بابل التي كان والده قد دمرها، وتوسيعها وجعلها مدينة رائعة. نقش الملك على لوح مصنوع من الحجر الأسود، قصة هذا الترميم والبناء.

استطاع أسرحدون، بفضل الغنائم التي استولى عليها أثناء الحملات العسكرية من ترميم مدن أخرى في مقاطعة بابل مثل أكد وبورسيبا ودير ونيبور وأورك. وأعاد تعمير وتجديد العديد من المعابد وأماكن الصلاة وكساها بالذهب والفضة وجعلها تزهو في رونق النهار.

وشيد أيضاً في آشور معبداً للإله آشور في مدينته وبنى قصر كالح. وأنشأ في نينوى "القصر الذي يقود كل شيء".

وقص أعماله هذه التي أنجزها خلال حكمه، في قصة تدور أحداثها بصيغة المتكلم. وإليكم مقطعاً منها:

"في تلك الأيام، أصبح القصر الداخلي في نينوى ضيقاً جداً بالنسبة لي، كان قد شيده آبائي الملوك ليضعوا فيه الأسلحة والفرس والبغال والعربات والمعدات الحربية، وللعناية بالخيول والتدريب على استعمال العربات.

لذلك طلبت من سكان البلدان التي انتصر عليهم قوسي، بأن يحملوا المجرفة وقوالب الطابوق، فقاموا بصنع الطابوق.

هدمت تماماً ذاك القصر الصغير القديم. وأخذت جزءاً من أراضي الحقول المحيطة به وأضفتها إلى القصر. وبنيت أساساته من حجر الكلس والأحجار المتينة من الجبال. وشيدت شرفة".

يفتخر أسرحدون في نصه هذا بأن اثنين وعشرين ملكاً من ملوك سوريا الشمالية وفينيقيا وقبرص قاموا بنقل عوارض وألواح من الصنوبر والأرز الفواحة بالعطور الطيبة والأحجار والطابوق المشوي والرخام إلى نينوى. جلب أيضاً الذهب والفضة والنحاس والبرونز والحديد من البلدان التي كان قد فتحها، واستخدمها في تزيين عوارض ونوافذ وسقوف وملطات البلاط الملكي ولصنع تماثيل الحيوانات وثيران مجنحة لحماية القصر:

"في الشهر الملائم وفي اليوم المناسب، شيدت على هذه الأرض قصوراً فخمة لسكني الملكي.

إن المسكن الملكي الحالي يبلغ طوله 96 ذراعاً وعرضه 31 أيضاً، لم يتم تشييد مسكن مثله من قبل أسلافي.

وكسوت جدرانه بألواح الرخام وأكملت السقف بعوارض من أشجار الأرز.

بنيتُ أيضاً قصراً من الأحجار الجيرية والعاج ومن خشب الأرز والصنوبر والقيقب والتوت، لسكني الملكي ولاستمتاعي الطيب، وقمت بتشييده بطريقة فنية.

أبواب من خشب الأرز ذات الرائحة الزكية، كسيتها بالفضة والنحاس.

ثيران مجنحة وعملاقة من الحجر "اشنان" التي تبعد الشياطين وثيران مجنحة كبيرة

وأسود وكائنات حسنة مجنحة مصنوعة من الأحجار الكلسية، نصبتها على جانبي الأبواب... لعظمة آشور ربي.

والأعمال التي أنجزتها في البلدان المعادية، قمت بنقشها بشكل المنحوتات واعتنيت بزرع منتزه كبير مماثل لمنحدرات جبل أمانوس.

أنهيت العمل بالفرح والاغتباط تحت أصوات الموسيقى.

نبلاء وشعب بلدي، كلهم سوية،

دعوتهم إلى حفلة وإلى مأدبة وأجلستهم أمام مناضد مليئة بالأطباق الشهية وبالنبيذ..." 5

بعد إنجازه هذه الأعمال الباهرة، قدم أسرحدون لآلهة آشور القرابين والهبات والشكر. ولم يبخل بتطبيق الأعراف الآشورية، بدعوته كما فعل سابقاً آشور ناصربال، نبلاء وأبناء شعب بلده إلى وليمة كبرى أثناء الاحتفال بذكرى تشييد قصره الرائع.

2- أسرحدون وحاشيته

الحكيم أبا . إينليل . داري (أحيقار)

كانت العرافة تحتل مكانة كبيرة في حياة الآشوريين والبابليين. ترتكز على تأويل علامات السماء عن طريق وسائل متنوعة منها: علم التنجيم والتنظير (فحص رئتي وكبد الحيوان) وتفسير الأحلام وتفسير ظواهر الطبيعة.

ولم يكن هدفها الرئيس متمثلاً في تنبؤ أحداث المستقبل فقط، ولكنها كانت أيضاً نوعاً من الدراية المتيقظة. بدأت اعتباراً من القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد وتطورت أكثر فأكثر وأنتجت مؤلفات هامة. كانوا يظنون أنه من الممكن إبعاد الفأل المشؤوم باللجوء إلى التعزيم وإقامة الصلوات والتعويذة.

وكانت حاشية أسرحدون الشهيرة مؤلفة من الإداريين والموظفين والكتاب، تحيط بعاهل يتقن القراءة ويجمع الألواح المسمارية ويهتم

بعلوم زمانه. لعب الأطباء والعرافون والمتنبؤون والمنجمون والعزّامون دورا هاماً في الحياة العامة. وكان الملك رمز البلاد، يلجأ إلى الاستفادة منهم في مكافحة العوامل الشريرة ولمساعدته على تفسير العلامات وسبر الأسرار واتخاذ القرارات الرسمية.

"أبا ـ إينليل ـ داري" أو أحيقار باللغة الآرامية، كان من أكثر العقلاء المعروفين في تلك الأمور. كان حكيماً (إيمانو) وعالماً يمتلك معارف خاصة، تجمع في نفس الوقت بين الحكمة والعلم. شغل هذا الحكيم والعارف منصب المستشار الأكبر للملك أسرحدون، ودبّر شؤون الدولة بحنكة مشهودة. ألف سفراً روى في صفحاته أعماله وقدم فيه أمثلة ووصايا مفيدة. وقد عرف هذا الكتاب نجاحاً كبيراً في الشرق الأدنى القديم.

يمكننا العثور على اسم أحيقار، تلك الشخصية التاريخية، في قائمة قديمة بأسماء مؤلفي بلاد الرافدين. وهناك نسخة من مصنف حمل عنوان *"حكمة أحيقار"* الذي يعود تاريخ تأليفه إلى العصر اليوناني القديم، تروي بأنه في زمن الملك أسرحدون كان أبا ـ إينهيل ـ داري حكيماً بين حاشيته، وهو الحكيم الذي أطلق عليه الآراميون اسم أحيقار، واسمه في اليونانية: نيكاركوز." 6

توسل أحيقار بدون جدوى من الآلهة أن تمنحه ولداً، ثم انتهى الأمر به إلى أن يتبنى ابن أخيه نادان. وقام عندئذ بتعليمه مهنة الكاتب وأغدق عليه وصايا الحكمة:

"عليك يابني ألا تكون من هؤلاء الذين يقول لهم سيدهم: اذهبْ من أمام وجهي، ولكن من هؤلاء الذين يقول لهم، اقتربْ وابق بالقرب مني." 7

كانت رغبة أحيقار الرئيسة، كبقية رجال العلم والأدب في تلك الفترة، أن ينال موقعاً مهماً في المملكة، بحيث يتيح له أن يأخذ مكانة هامة أمام الملك ورؤية وجهه المحبوب.

على أن أحيقار تعرض للحرمان من حقوقه والحكم عليه بالإعدام، بسبب المؤامرات التي حاكها منافسوه ضده ووشايات ابن اخته نادان الغدار. تمكن هذا الأخير من إقناع أسرحدون بأن مستشاره أحيقار كان يخونه لدى ملك مصر. لكن بعد فترة تمت تبرئة أحيقار وإعفاؤه من حكم الإعدام. فرجع مكرّماً في بلاط عاهله الذي استعاد بصيرته وعرف غلطته.

عندئذٍ كتب أحيقار والسعادة تملأ قلبه: "يا سيدي، الآن أرى وجهك، وللحال زال الألم مني."

أظهرت قصة أحيقار وأقاويله الحكيمة، أنه رجل يعرف الأسرار ويحل الألغاز. وهكذا استوحى منه كل من ديموقريطس و ايزوب وسفري طوبيا ودانيال من الكتاب المقدس وكتاب تلمود بابل.

وقد انتشرت نسخ عديدة من كتاب هذا المؤلف الحكيم الكبير. وبعد صدور الترجمة الآرامية، وعلى أساسها تمت ترجمات عديدة: وهي الأرمنية والرومانية والعربية والسلافية، جميعها مأخوذة من النسخة الآرامية.

اكتشفت بعثة ألمانية عام 1906 في "اليفانتين" الواقعة مقابل مدينة أسوان في أعالي مصر، مجموعة غزيرة من أوراق البردي المكتوبة باللغة الآرامية تحتوي على قسم من تاريخ وأحكام أحيقار.

ها هو مقطع منها يمدح بالحكمة:

"هناك شيئان جيدان،

وشيء آخر يثير إعجاب شمش (إله شمش):

عند احتساء النبيذ، يجب عليك مشاركته،

وعند امتلاك الحكمة، يجب مطابقتها،

وعند سماع الكلام، يجب عدم إفشائه.

هذا هو الشيء الذي يثير إعجاب شمش.

ولكن الشخص الذي يحتسي النبيذ

دون أن يشارك به الآخرين،
والذي تبقى حكمته بدون جدوى،
فهل يا ترى يُنظر إليهما؟
إن البشر محظوظون من قبل السماء،
إذ إن الحكمة تأتي من السماء.
إنّها قيّمة عند الآلهة، وهيبتها أبدية.
لأن مسكنها هو في السماوات،
نعم، رب القداسة هو الذي مجّدها." 8

هكذا كانت تعاليم هذا الرجل الحكيم الذي تعرض إلى الاتهام غير العادل والذي شاءت الأقدار أن يُعاد له اعتباره وتم تكريمه.

الملك البديل

كان أسرحدون يعاني من مرض مزمن، لأنه كان يُصاب بالحمى في بعض فترات حياته، ويتعرض إلى الضعف وعدم الثقة في نفسه وإلى الخشية والقلق من المستقبل إضافة إلى الوهم والكآبة. وقد لجأ من أجل علاج نفسه إلى خدمات الأطباء والعرافيين والمنجمين وطاردي الأرواح الشريرة.

وكان يعتقد – كما رعاياه – بأن كل مرض لا يمكن أن يأتي إلا بسبب ارتكاب خطأ تجاه الآلهة.

وفي يوم من الأيام، ولما كان بحاجة إلى الاطمئنان، سلمه أحد المتنبئين رسالة من الآلهة الكبيرة عشتار الأربيلية، وهي الآلهة التي كانت قد آزرته في بداية حكمه، خلال الحرب الأهلية، تقول الرسالة:

"أسرحدون، ملك البلدان، لا تخشَ شيئاً! أولم أقم بقطع أجنحة الريح التي هبت ضدك؟

سوف يتدحرج أعداؤك تحت قدميك، مثل التفاحات في شهر حزيران.

أنا الملكة الكبرى، أنا عشتار الأربيلية، تلك التي قلّبت أعداءك أمامك!

هل يا ترى وجهت لك رسالة، ولم تكن تثق بها؟

أنا عشتار الأربيلية. سأنتظر أعداءك وسأسلمهم لك.

أنا عشتار الأربيلية، سأسير أمامك وخلفك.

لا تخشَ شيئاً! سأكون تعيسة إذا تعرضت للأرهاط.

ها أنذا أبدأ بالهجوم، ابق أنت جالساً!

(كلام) من فم "عشتار ـ لا ـ تاشيات"، سيدة أربيل." 9

كلما كانت تظهر علامات مشؤومة راقبها المنجمون وكلما كان يحدث خسوف للقمر أو كسوف للشمس، كان أسرحدون يحس بعلامات المرض ويقلق. كانت الأفكار القاتمة تحاصر قلعة نفسه كما لو كان هناك جنود مصريون يحاصرونه.

فكان يختار ملكاً "بديلاً" يُتعوض عنه في تلك الفترة الخطرة، وكان هذا الأخير يأخذ على عاتقه خطورة التنبؤ بظواهر السماء والأرض. وينصّبه أسرحدون على العرش بدون أن يسمح له بممارسة السلطة ممارسة فعلية. وكان أسرحدون يحمل في تلك الفترة تسمية "المزارع" فيعيش عندئذ عيشة منزوية. وإذا استمرت في الظهور علامات الفأل المشؤومة مهددة الملك، حينذاك كان يحكم على الملك البديل بالموت، ويتم ذلك بعد مائة يوم، بغية إرضاء الآلهة. وهكذا، فقد احتل العرش دامقي، ابن معتمد مدينة أكد، وبعدما انتهت الحاجة منه، تم قتله هو وزوجته، وعرض جثمانهما أمام الجمهور الذي سكب الدموع عليهما ألماً وتم تقديم مراسيم دينية لهما.

وبعد ذلك، كان أسرحدون الملك الحقيقي، يعود إلى إدارة البلاد بقلب مطمئن بعد أن انتهى الخطر ومرت أيام الشر.

مارس أسرحدون سياسة جيدة بالرغم من صحته العليلة وقلقه الكبير، وكان يستعمل القوة والدبلوماسية على التناوب في إدارة البلاد، وكشفت الأحداث بأنه كان رجلاً إدارياً جيداً. بحث عن السلام في الداخل والاستقرار خارج إمبراطوريته. وأبرم عدة معاهدات مع الأمراء الخاضعين له مثل المعاهدة التي أبرمها مع ملك صور، "بعال" عام 676 الذي وافق على أن تخضع بلاده لمراقبة آشورية بما يخص تجارة مدينته، وكما هو حال ملك عيلام، أورتاكو عام 674.

استدعى الملك عام 672 في مدينة كالح داخل معبد نابو إله الكتابة كبار رجال بلاد آشور والأمراء الخاضعين له، بناء على إيحاء وإيعاز من الملكة زاكوتو والدته، التي كانت تمارس عليه تأثيراً كبيراً. كان هدف هذه الدعوة فرض قسَم الإخلاص عليهم لصالح ابنه آشور بانيبال، الذي عينه من بعده أميراً وريثاً على بلاد آشور، وأراد أن يكون ابنه الآخر شمش ـ شوم ـ أوكين، أميراً وريثاً على بلاد بابل. وكان أسرحدون متضايقاً جداً من الاضطرابات المأساوية والعنيفة التي حلت بوالده سنحاريب والتمرد الذي مارسه أخوته بحقه. فبحث عن حل يؤدي إلى تفادي حدوث مؤامرات بعد وفاته من قبل أفراد عائلته الملكية أو حصول تمرد أو ثورة في القصر أو في الجيش. وأراد تحقيق وراثة طبيعية بدون اضطرابات لابنيه رغبة منه بتثبيت وحدة الإمبراطورية حول الحاكم الشرعي.

قام الملك بتحرير ميثاق الإخلاص الذي احتوى على ديباجة، تعترف وتشهد لها آلهة النجوم والسماء. كما احتوى هذه الميثاق على تعيين آشور بانيبال أميراً كبيراً وريثاً على بلاد آشور. ويشمل القسم على خضوع الرعايا وعلى لعنة رسمية طويلة لكافة الأشخاص الذين ينكثون هذا الميثاق.

تُبلغ وتُعرف بنود هذا الميثاق بواسطة ألواح كبيرة تحتوي على أربعة أعمدة مهيأة للأمراء الخاضعين. وتم العثور عليها بشكل قطع متكسرة أثناء التنقيبات الأثرية التي جرت في معبد نابو في مدينة كالح، وهي محفوظة اليوم في متحف بغداد في العراق.

وحُفظ نص هذه الميثاق الطويل على ثمانية نسخ. هوذا مقطع منه باسم هماريش قائد مدينة ناهشيمارتي:

"ميثاق أسرحدون ملك العالم، ملك آشور ابن سنحاريب ملك العالم، ملك العالم وملك آشور مع همباريش قائد مدينة نابشيمارتي، وأولاده وأحفاده [...].

الميثاق الذي أبرمه أسرحدون ملك آشور معك، بحضور آلهة السماء والأرض الكبرى، لصالح آشوربانيبال الأمير العظيم الوريث، ابن أسرحدون ملك آشور سيدك، لقد عينه ونصبه أميراً وريثاً. عندما يغادر أسرحدون ملك آشور إلى مصيره، عندئذ تضع آشوربانيبال الأمير الوريث العظيم على العرش الملكي، ويمارس السلطة الملكية والسيادة على بلاد آشور وعليك. تقوم بحمايته في الأرياف والمدن، بحيث تقع وتموت من أجله. تتحدث معه بالحقيقة من كل قلبك. امنحه بإخلاص النصائح الحسنة وعبّد طريق خطواته.

لن تقوم بخلعه وجلوس شخص آخر من إخوته الأكبر أو الأصغر منه سنّاً، على عرش آشور في مكانه [...].

عليك أن تُحب آشور بانيبال الأمير الوريث الكبير ابن أسرحدون، كما تحبني." 10

أدى نبلاء آشور والملوك التابعين له هذا القسم أمام الملك وأمام الأميرين الوريثين أثناء احتفال شعائري جرى بحضرة تماثيل الآلهة. وأعلنوا التزامهم ببنود الميثاق والبقاء مخلصين إخلاصاً مطلقاً لآشور بانيبال سيدهم. وبخدمته بإخلاص وحمايته وإعلامه بأي خطر، كيلا يطالهم مصير سيئ.

ولم ينس أسرحدون أبناءه الآخرين الذين منحهم منازل وحدائق وتجهيزات وخيول وقطيع حيوانات.

في الواقع، إن ميثاق الوراثة هذا الذي عين آشور بانيبال أميراً وريثاً على بلاد آشور وعين شمش ـ شوم ـ أوكين أميراً وريثاً على بلاد بابل، أدى للأسف الشديد إلى تجزئة الإمبراطورية، وبرزت بذور التجزئة والحرب الأهلية في البلاد.

ولم يكن الميثاق شيئاً حسناً لبلاد آشور كما كتب ذلك أحد كبار الموظفين في رسالة وجهها إلى الملك قائلاً فيها: "لقد وضع سيدي الملك خطة رديئة، وأصبح واهناً...". وقد أعطته الأحداث التي حصلت فيما بعد الحق فيما قاله الموظف بعد بضع سنوات فقط.

نهاية أسرحدون

تردت صحة أسرحدون في نهاية سنة 670، إذ يذكر نص تاريخي يعود إلى العصر البابلي الحديث بأنه قد توفي في شهر تشرين الثاني سنة 669 بينما كان متوجهاً إلى مصر لمجابهة الفرعون "تارقا" الذي استعاد سيطرته على البلاد. لقد حكم الإمبراطورية الآشورية اثنتي عشرة سنة.

توفي أسرحدون المحارب الباسل الذي تنقل وحكم كسيد من المشرق حتى المغرب. وسّع بلاده أبعد من تخوم بلاد آشور، الملك المغرم بإنشاء معبد آشور وقصر نينوى. العاهل الماهر والذكي والمنتبه إلى علامات السماء والأرض والحكيم المتيقظ.

هوامش الفصل الخامس:

1- "الموشور أس للملك اسرحدون" ترجمة شيل (V. Scheil)، باريس 1913، ص 9-10

2- خلاصة من حوليات آشور بانيبال، أس موسكاتي (S. Moscati) (L'épopée des Phéniciens)، فايارد (Fayard)، باريس 1971، ص 43

3- "الموشور أس للملك أسرحدون" ترجمة شيل (V. Scheil)، باريس 1913، ص 13

4- بريتشارد (J. B. Pritchard)، (Abcient. Near Eastern Texts Relating to the Old Testament)، دار برنس تاون (Prncetown) N.J 1969 ص 293

5- انظر: موريس فيرا (Maurice Vieyra)، الآشوريون (Les Assyriens)، منشورات دي سوي(Seuil) ص 172-173

6- انظر: فرانسيس جوانيس (Francis Joanès)، قاموس حضارة بلاد الرافدين (Dictionnaire de la civilisation mésopotamienne)، منشورات روبير لافونس، (Robert Laffon) ص 748

7- تاريخ وحكمة أحيقار الآشوري (Histoire et sagesse d'Ahiqar l'Assyrien)، (Berg International Editeurs)، الجزء الثالث، 42 و XXII, 1

8- دفاتر الإنجيل (Cahiers Evangile)، حكمة بلاد الرافدين (Sagesse de Mésopotamie)، ملحق لدفاتر الإنجيل، 85، باريس، éd du Cerf، ص 117

9- نبوءات ووسطاء روحيون (Prophéties et oracles I)، في الشرق الأدنى القديم (le Proche Orient Ancien)، كي

4210، ترجمة جيسوس أسرمندي و أليي (Jésus Assurmendi et alii)، ، منشورات سيرف (Cerf) ملحق دفتر الإنجيل، رقم 88، ص 1994

10- المعاهدات والقسم في الشرق الأدنى القديم (Traités et Serments dans le Proche-Orient ancien)، تقديم جاك بريند، منشورات سيرف (Cerf) ملحق دفتر الإنجيل، رقم 81، ص 67-83

الفصل السادس

آشور بانيبال البديع

في موقع نينوى يتربع تل قوينجق البالغ ارتفاعه ثلاثين متراً، بدأتُ بتسلقه في إحدى زياراتي بالرغم من أنه ملتحف بالأعشاب الكثيفة في فصل الربيع. هنا وفي هذا المكان، كانت أطلال القصر والمعابد وهي الأطلال التي اكتشفها علماء الآثار في القرن التاسع عشر. لقد تم إنشاء قصر آشور بانيبال الشهير في هذا المكان.

ترك آشور بانيبال الذي حكم من (669-627 قبل الميلاد) - وريث سلالة سرجون الثاني المهيبة - أثراً كبيراً في الإمبراطورية الآشورية في عصرها الحديث. هنا فوق هذا التل، يتحرك الماضي ويحيا من جديد مثل جندي قديم جاهز لاستئناف خدمته.

1- الملك المتعلم

تم تعيين آشور بانيبال وريثاً اعتباراً من عام 672 قبل الميلاد بعد اختفاء أخيه البكر، فعاش في بيت ريدوتي "بيت الوراثة". وكانت الملكة نقية زاقوتو قد نظمت ما يسمى بعادي adé (مراسيم أداء القسم) لصالح حفيدها الصغير آشور بانيبال قبل وفاة والده الملك أسرحدون، نظراً لخشيتها من حدوث حرب أهلية بعد وفاته. وعملت باهتمام

على أن يؤدي الأمراء وكبار المملكة وحكامها وكافة مواطني آشور قسم الولاء لحفيدها:

"معاهدة زاقوتو ملكة سنحاريب ملك آشور، والدة أسرحدون ملك آشور، مع شمش ـ شوم ـ أوكين أخيه وموازيه، ومع شمش ـ ميتو ـ أوباليت وباقي أخوته. ومع السلالة الملكية وكبار الدولة والحكام والمحظيين والخصيان والحاشية الملكية. وأيضاً مع المكرمين وكل من يشكل جزءاً من القصر، ومع الآشوريين الكبار والصغار [...]،

إذا سمعتم، اعتباراً من هذا اليوم، كلاماً رديئاً يدور حول ثورة أو تمرد ضد سيدكم آشور بانيبال ملك آشور، يجب عليكم أن تأتوا لتُخبروا بذلك زاقوتو أمه وآشور بانيبال ملك آشور سيدكم." [1]

والحقّ أنّ الملكة المسنة زاقوتو لعبت دوراً سياسياً هاماً في حياة المملكة.

وكما كان يأمل أسرحدون، تمت مراسيم التوريث بدون مصادمات. وتعلم آشور بانيبال الذي أشركه والده في ممارسة السلطة وهو بعد في عمر الشباب، في أداء الأعمال الإدارية التي أتاحت له لعب دور العاهل وتطبيق فن الحكم والاحتفالات. وهكذا صعد بسرعة إلى سدة الحكم في نهاية شهر تشرين الثاني من سنة 669 وتُوِّجَ ملكاً على بلاد آشور.

أمير متكامل

اعتقد آشور بانيبال، مثل ملك أور شولجي السومري الشهير الذي حكم في نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد، بأن الآلهة وهبته إدراكاً واسعاً ونال تربية عالية.

يقدم نفسه قائلاً:

"لقد منحني الإله مردوك، الإله الحكيم بين الآلهة، موهبة تمثلت في إدراك واسع وفكر خارق. وقد قدم لي الإله نابو كاتب الكون، هدية

تمثلت في نصائح الحكمة. ومنح الإلهان نينورتا ونيركال لجسدي قدرة فائقة وقوة بدنية لا مثيل لها (...) أعرف علامات السماء والأرض. وأنا قادر على النقاش في محفل العلماء. " 2

تتوفر كتابات ملكية وحوليات وأناشيد إضافة إلى العديد من الرسائل التي تعطينا فكرة عن التربية التي تمتع بها آشور بانيبال. إن مراسلات نابو ـ آحي ـ إريبا، الكاتب الذي أصبح منجماً مشهوراً في بلاط الملك أسرحدون، يذكر الدروس التي تعلمها آشور بانيبال: الكتابة والقراءة والرياضيات وطرد الأرواح الشريرة والتنجيم. وتعلم أيضاً كيف يحل المشاكل المعقدة في موضوع القسمة والضرب. وكان يستمتع لسماع دروس المنجم المشهور "بالاسي"، الذي عُين لخدمته.

يفتخر آشور بانيبال بكونه يتقن قراءة الألواح النفيسة المكتوبة باللغتين السومرية والأكّادية ويتمتع بحل رموز "الكتابات المنقوشة" على الحجر التي يعود تاريخها إلى ما قبل للطوفان. لقد مدح بعض أفراد حاشية الملك مثل رئيس الكتاب عشتار ـ شوما ـ إيريش ذكاءه وثقافته.

ويروي آشور بانيبال في وثيقة أخرى، (موشور محفوظ في متحف اللوفر)، كيف حصل على التربية في الرياضة البدنية المفيدة لكل أمير، والتي أدت إلى تنمية قوته البدنية وبراعته وشجاعته:

"تعلمت فن الرمي بالقوس وامتطاء الخيل وقيادة العربة. ولم يتمكن أي ملك بين البشر ولا أي أسد من بين الحيوانات المتوحشة بأن يتعاظم أمام قوسي. أعرف ممارسة القتال والمعارك وقد حصلت على علم (فن) التدريب على القتال والاشتباك. " 3

ويظهر آشور بانيبال في إحدى اللوحات في قصر نينوى ماسكاً في يده القوس وحاملاً في حزامه قصبة الكتابة.

كان صياداً محنكاً يصيد من فوق عربته أو على قدميه، وهكذا كان يسيطر على الأسود ومختلف أنواع الحيوانات المتوحشة إضافة إلى قدرته في التغلب على أعدائه.

بقيت اللوحات التي تعرض آشور بانيبال وهو يمارس فن الصيد مشهورة في بلاد آشور، لأنها تبين كيف يقوم الملك باستعمال السهم ومداولة الحربة أو السيف وممارسة فن القتال والظفر على الأسود. وتعرض إحدى اللوحات الملك وهو واقف أمام هيكل يمارس شعائر التكريم فوق جثة ملك الحيوانات. وقد نقش فنانون ماهرون هذه اللوحات لتزيين القصر الملكي بها، وعرفوا بإحساسهم المرهف كيف ينحتون الأسود بطريقة فنية وأيضاً الخيول والكلاب والغزلان والخنازير البرية.

ألم يظهر آشور بانيبال راكباً دوماً على حصانه أو على عربته وهو يرمي قوسه ويمارس صيد الأسد، إنه عاهل جسور وباسل؟

مكتبة آشور بانيبال

بدون شك، يعود تاريخ تكوين المكتبات الملكية إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. فقد جلب توكولتي نينورتا (1244 – 1208 قبل الميلاد)، أثناء حملة كبرى شنها ضدّ البابليين، ألواحاً إلى بلاد آشور واستحوذ على المؤلفات القديمة التي كان قد نسخها الكتاب بعناية تامة .وأيضاً سنحاريب بعد تدمير بابل عام 689، قام بإغراء المثقفين بالمجيء إلى نينوى. ولا ننسَ ابنه أسرحدون الذي كان يعاني من وهن صحته، حيث جمع في عاصمته ألواحاً تحتوي على معاهدات وشعائر دينية.

وحول مكتبة آشور بانيبال، في بادئ الأمر تم اكتشاف مكتبته التي كانت تمثل نموذجاً، من قبل الرحالة ومنقب الآثار البريطاني المعروف هنري لايارد Henri Layard عام 1849 ، وجدها في قصر الجنوب الغربي لمدينة نينوى. وفي عام 1853، عثر المسيحي الكلداني هرمز رسام أخو القنصل المساعد لإنكلترا في الموصل الذي كان

قد التحق بفريق عالم الآثار لايارد، على ألواح أخرى في القصر الشمالي. وفي عام 1927 تمت اكتشافات أخرى من قبل المنقب كامبيل Campbell عندما كان ينقب عن الآثار في معبد الإله نابو، إله الكتبة والكتابة.

كانت مكتبة آشور بانيبال تحتوي على أكثر من 30000 لوحٍ وقطع ألواح مصنفة في أغلب الأحيان، وكانت هذه الألواح تشكل جزءاً هاماً من المكتبة الأصلية. وهي تتضمن رسائل ونصوصاً لاهوتية وإدارية وقانونية وأدبية مثل ملحمة جلجامش وملحمة الخلق وغيرها من النصوص التي تتطرق إلى شعائر دينية وصلوات وممارسات للسحر والتنجيم والفأل.

كما توفرت فيها ألواح، من الممكن أن تكون واردة من المكتبات الخاصة التي أنشأها بعض رجال الأدب في تلك الفترة مثل الكاتب "نابو ـ زكوب ـ كينا" في مدينة كالح أو من أخ الملك أو من مكتبات كهنة بلاد آشور. ووُجدت فيها ألواح قد تم اقتراضها أو منحها أو الاستيلاء عليها في بابل، وهي الألواح التي ربما تم الاستحواذ عليها بعد تمرد الملك شمش ـ شوم ـ أوكين ضد أخيه آشوربانيبال أو بعد الحرب التي تلت ذلك التمرد والتي استمرت من عام 652 إلى 648.

أعطى الملك آشور بانيبال تعليمات في رسالة موجهة إلى أحد موظفي بورسيبا المدينة الواقعة في جنوب بابل، نصت على جمع أكبر عدد ممكن من الألواح، حيث يقول:

"ابحثْ عن جميع الألواح ولا سيما الموجودة في بيوتهم (المثقفين) إضافة إلى كافة الألواح الموضوعة في أزيدا (معبد نابو إله الكتابة): ألواح تعويذات الملك...

ومن ناحية أخرى، اجمعوا لي الألواح النادرة المعروفة من عندكم وغير المتوفرة في بلاد آشور وأرسلوها إلي. لقد كتبت إلى المفوض والمراقب، كيلا يرفض أي شخص إعطاءكم الألواح المطلوبة من أي

منزل تدخلونه. وإذا وجدتم لوحاً عن الشعائر الدينية أو ألواحاً أخرى قد ترونها مفيدة للقصر، خذوها وأرسلوها لي، وإن لم أكن قد ذكرتها في رسالتي."[4]

تمكن آشور بانيبال بتكوين مكتبته الواسعة بعناية خاصة. وطلب من كتابه أن يقوموا بنسخ نصوص عديدة على ألواح من الصلصال، وأحياناً على أوراق البردي وعلى قطع من الخشب أو العاج المغطى بالشمع وعلى وسائل غير صلبة تعرضت اليوم إلى التلف.

هكذا ساهم الكتبة والناسخون بنقش الألواح والمحافظة على التراث الثقافي لبلاد سومر وأكد وبابل.

أتاحت المكتبة الملكية بجمع معارف ذاك العصر بمختلف فروعها؛ الطب وعلم الفلك والرياضيات والتنجيم، ولكن لم يكن لديها أي هدف موسوعي بالمعنى العصري. لقد كانت موضوعة تحت تصرف الأطباء والمنجمين والناسخين والمرتلين العاملين في القصر والعرّافين وطاردي الأرواح الشريرة لمساعدتهم على إنجاز المهام الموكلة إليهم.

كان عمل هؤلاء المثقفين الأتقياء يتمثل في المحافظة عليها والعناية بالأمور الدينية الخاصة بالملك وعائلته وبالدولة، وحمايتهم من الأخطاء ومن سوء الحظ والأمراض. في بداية الأمر، لم يكن الأمر يتعلق بالنسبة لهم وبالنسبة للملك في إرواء عطشهم المعرفي، بل كان هدفهم الرئيسُ النجاح والحكمة والاتزان في الحياة اليومية.

لم يكن أبناء بلاد الرافدين مثل اليونانيين الذين كانوا يهدفون إلى "إدراك ومعرفة" الأرض التي يعيشون فوقها واكتشاف قوانينها الفيزيائية وتنظيم نتائج اكتشافاتهم بصورة عقلانية ومنهجية. أما الرافديون فكانوا يبغون مراقبة العالم والتمعن بأسراره والتأمل بأموره الغريبة واحترامها. وكانوا يؤكدون على مراقبة الأحداث بدلاً من

التطرق إلى ماهيتها، لقد اعتنوا بالفنون وبالحكمة العملية أكثر من عنايتهم بالعلم المجرد.

يصرح كاتب رافدي في جانب من لوحه، يحمل نصاً صغيراً في خاتمة.

يقول:

"كتبتُ الألواح، بهدف تحقيق وجمع حكمة الإله "إيا "(إله الحكمة، وربّ طاردي الأرواح الشريرة والسحر)، الخاصة بعلم التعويذ وأسرار الحكماء، التي تؤدي إلى تهدئة قلب الآلهة الكبرى، وفق النسخ المستعملة في بلاد آشور. ولقد أودعتها في مكتبة "أزيدا"، معبد الإله "نابو" سيدي، داخل مدينة نينوى. " 5

وبقايا هذه المكتبة الشهيرة موجودة اليوم في المتحف البريطاني الذي يحتفظ بها منذ اكتشافها.

أنهى آشور بانيبال خلال مدة حكمه الطويلة تجديد المعابد في بابل التي كان والده قد بدأ بتعميرها.

هناك مسلة (في المتحف البريطاني) يعود تاريخها إلى سنة 600 تُظهر آشور بانيبال وهو يحمل سلة مليئة بالطابوق وتتطرق الكتابة المنحوتة عليها باللغة الأكّادية إلى إعادة تعمير "الإيساجيل "معبد إله مردوخ في بابل.

واصلَ آشور بانيبال أعمال تجميل مدينة نينوى. وقام بإعادة تعمير قصر الشمال الواسع والواقع في تل قوينجيق، اعتباراً من عام 646 وزيّن جدرانه بالألواح المحفورة والمنقوشة مثل لوحات صيد الأسد المشهورة.

ولم يهمل القيام بتصليح وتشييد معابد عديدة في بلاد آشور ومدينة آشور نفسها وفي أربيل وحاران.

2- حروب وفتوحات آشور بانيبال

فتح مصر الوقتي

كان اهتمام آشور بانيبال بالحرب أقل من اهتمام أسلافه من الملوك الآخرين. وحتى وإن كان قد ذكر في حولياته التي كتبها بصيغة المتكلم بأنه كان يقوم بإدارتها الفعلية عند نشوبها، فإنه غالباً ما كان يترك لقواده مسؤولية قيادة حملاته العسكرية. وتعرف حملاته بفضل موشور التأسيس الذي يحمل اسم الحرف ألفاء، (الوثيقة المطمورة تحت جدران القصر لتأمين الحماية) المنقوش بكتابات. تمكن منقبو آثار نينوى من استخراجه (في متحف اللوفر الآن)، ويروي هذا الموشور سير الحملات الأولى ضد مصر وصور وبلاد عيلام، ويتطرق إلى تشييد قصر نينوى.

واصل آشور بانيبال سياسة والده فيما يتعلق بالسيطرة على مصر. غادر "ترتارو" قائد جيشه لمواجهة الفرعون "تارقو" (690-644 قبل الميلاد) وتعرض هذ الأخير إلى الهزيمة في "كاربانياتي" وهرب إلى أعالي مصر. وفي الوقت نفسه، قرر أمراء الدلتا الكبار الذين انضموا إلى تارقو التمرد على الآشوريين، لكنهم وقعوا في الأسر وتم إعدامهم أو نفيهم إلى بلاد آشور.

توفي تارقو في المهجر، وعاد فرعون الذي أتى بعده المدعو "تانوتامون" (664-657) إلى مدينة طيبة وقام بمحاصرة الحامية العسكرية الآشورية في مدينة ممفس قاعدتهم عام 664. عندئذ أرسل آشور بانيبال جيشاً إلى مصر، فتمكن من استعادة مدينة ممفيس المصرية وتقدم نحو مدينة طيبة الفاخرة واستولى عليها ونهبها. واستحوذ الآشوريون على الذهب والفضة والأحجار الكريمة وكافة الأموال والكنوز التي لا يمكن تصور قيمتها الكبيرة وأيضاً الملابس

المطرزة وثياب الكتان. كما أنهم حملوا معهم مسلتين معمولتين من الذهب والفضة بلغ وزن كل منهما 37 طناً، وجلبوا هذه الغنيمة الهامة إلى نينوى بعد انتصارهم على قوات فرعون مصر.

انسحب آشور بانيبال من مصر بعد بضع سنوات من هاتين الحملتين، نظراً لبعدها الكبير عن بلاده وصعوبة إدارتها نتيجة تباعدها عن حكمه، لكن بقي ملوك هذا البلد خاضعين إلى بلاد آشور وكانوا يؤدون قسم الولاء له.

الاستيلاء على صور في فينيقيا

شن آشور بانيبال سنة 662 حملة ثالثة ضد صور في بلاد فينيقيا وهي الحملة التي قام بإدارتها شخصياً، إذ قام الملك "باعال" بالتمرد في مدينته المشيدة على جزيرة، والمشهورة بصعوبة اختراقها. لكن الآشوريين قاموا باختراقها وأجبروا الملك على الاستسلام. يتباهى الملك به ويشرح:

"خلال حملتي الثالثة، توجهتُ ضد "باعال" ملك صور المدينة الواقعة داخل البحر. لم يتقيد هذا الملك بالأمر الملكي ولم يُطع كلامي. قمت عندئذ ببناء تحصينات ضده وقطعت سبل مواصلاته عن طريق البرّ والبحر. وقهرت شعوبه وجعلت حياتهم بائسة. وأخضعتهم إلى سلطتي." 6

رغم ذلك، تصرف آشور بانيبال تجاه باعال ملك صور بنوع من التسامح لأنه كان راغباً في الاحتفاظ بالملك الفينيقي الذي خضع له.

قصة رأس

بعدئذ، شن آشور بانيبال حملة في الجنوب الشرقي من بلاد آشور ضد بلاد عيلام، المملكة القوية الواقعة في منطقة خوزستان الحالية، والتي كانت تشكل دولة معادية له منذ مدة طويلة.

وكان ملك عيلام المدعو "أورتاكو"، قد شن هجوماً عام 664 على شمال بابل. وحدث تمرد في قصر عيلام أدى إلى خلع أورتاكو عن العرش وأوتي بـ "تيومان" إلى السلطة بدلاً منه، والذي كان منافساً للسلالة الحاكمة. لجأ حينذاك أمراء عائلة أورتاكو إلى مدينة نينوى، فطلب تيومان من آشور بانيبال تسليم أفراد العائلة إليه، لكن عاهل نينوى رفض طلبه. دخل عندئذ ملك عيلام في حرب ضد الآشوريين بمساعدة "بيل ـ إيقيشا"، زعيم القبيلة الآرامية جومبولو. أصيب تيومان الذي كان يرتدي ملابسَ غنية أثناء معركة تل ـ توبا عام 653 قبل الميلاد، وجُرح نتيجة إصابته بسهم وسقط من عربته. دارت المعركة على ضفاف نهر أولاي الواقع في الجنوب الغربي من دولة عيلام. وتم بعدئذ قتله مع ابنه في هذه المعركة.

منحت هذه الحملة وهذا الانتصار دولة عيلام صدىً كبيراً في بلاد آشور، وعُرفت عبر عدة كتابات ملكية وألواح ولوحات رائعة منقوشة بالحفر التي روت قصصاً مدهشة عن المعارك التي زينت قصر الشمال في مدينة نينوى.

وتُظهر إحدى هذه اللوحات المنقوشة والمحفوظة اليوم في متحف اللوفر آشور بانيبال واقفاً على عربته يقود هذه الحملة ويوجه العمليات العسكرية. لكن الحقيقة، أنه لم يشترك شخصياً في هذه المعركة التي انطلقت بالتأكيد، بناء على رغبته وبمبادرة منه.

وبعد النصر، تم جلب رأس تيومان، ملك بلاد عيلام بسرعة عن طريق ساعي، وتم عرضه في نينوى كرمز للأنباء السارة وغنيمة للانتصار.

قام آشور بانيبال على مشارف باب نينوى الكبير، بتعليق رأس تيومان بعنق دونانو أحد رجاله الكبار، لكي يبين لكافة الناس قوة أرباب آشور وعشتار، ثم دخل إلى نينوى بأبهة منتصراً وسار في شوارعها أمام السكان الفرحين. وعزف الموسيقيون ابتهاجاً بهذا النصر.

ويمكن رؤية رأس ملك عيلام في إحدى اللوحات المنقوشة الشهيرة 7 الواردة من قصر الشمال في نينوى (اليوم في المتحف البريطاني). تلوح تلك اللوحة إلى يوم حار من أيام نينوى، وهوذا آشور بانيبال يستعيد علاقته بالطبيعة، وهو شبه راقد على فراش الراحة في حديقة فواحة تحيط بها أشجار النخيل والصنوبر. إنه يستريح تحت كرم ويحتسي شراباً من كأس معدني برفقة الملكة "آشور ـ شورات" الجالسة على دكة عالية، يحتفل بنصره على تيومان العدو الشرير الذي تم تعليق رأسه المقطوع على غصن شجرة. ويبدو في اللوحة آشوربانيبال ملكاً عادلاً وجيداً لأنه يمثل أداة العدالة الإلهية على الأرض، ولأن قوى الشر المعادية قد خضعت للهزيمة في نهاية الأمر. وهكذا استعاد النظام الكوني اطمئنانه وانبثق عهد جديد شبيه بمأدبة وحفلة موسيقية صيفية.

وفي ذلك الموقف يجلب الخدم عندئذ الأطباق الشهية ويعزف الموسيقيون بالقيثارات والأدوات الموسيقية الأخرى للاحتفال بنجاح عاهلهم في إحراز النصر. ويتم بعد ذلك تنصيب ابن من أبناء "أورتاكو" ملك بلاد عيلام السابق، ملكاً على عرش عيلام ليكلّل فصلاً من فصول انتصارات آشور بانيبال.

حرب أهلية قاسية

ينتظر أخو آشور بانيبال المدعو شمش ـ شوم ـ أوكين، سنة كاملة قبل أن يتبوأ عرش بابل، حيث تم تتويجه ملكاً في بداية سنة 668. وفي شهر أيار، أُعيدتْ أخيراً تماثيل الآلهة التي جُلبت إلى بلاد آشور من قبل سنحاريب والتي تعرضت إلى الإبعاد ولإقصاء عن موقعها بما في ذلك تمثال مردوك، فأخذت مكانها الطبيعي في بابل. وعندئذ

أصبح بإمكان الجميع الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة، الذي رجع العلاقة بين البشر والآلهة وأعاد التناغم إلى العالم.

حكم شمش ـ شوم ـ أوكين بابل، مدة بلغت خمسة عشر عاماً، ولكنه لم يتمتع بقدرة دبلوماسية أو عسكرية كبيرة، وبقي تأثيره محدوداً في الجزء الشمالي من بابل.

حاول تدريجياً أن يتخلص من وصاية أخيه آشور بانيبال الذي كان يتدخل في شؤونه الداخلية. تقرب إلى الأحزاب المعادية لبلاد آشور، وهم: العيلاميون وعرب الصحراء السورية والكلدانيون لبلاد البحر والعشائر الآرامية ومدن شمال بابل. مما أدّى إلى حدوث تمرد.

وكان يتوفر لدى آشور بانيبال عدد من المُخبرين المؤهلين، فيطلع على كامل ما يحدث في المنطقة، لذا أرسل رسالة إلى البابليين محذّراً إياهم من حدوث مثل هذا التمرد:

"كلام من الملك (آشور بانيبال) إلى سكان بابل: "أنا بخير. وآمل أن يكون كل شيء حسناً لكم أيضاً. لقد سمعت حديثاً عن آراء جوفاء أطلقها أخي (شمش ـ شوم ـ أوكين) أمامكم، واطلعت على كل ما قاله لكم، وهي ليست إلا ريحاً! فلا تصدقوه!" 8

واستمر الملك بتوجيه خطابه وهو يقسم بآلهة آشور وبابل الكبرى، معلناً أنه لم يحمل أبداً في قلبه نوايا شريرة تجاههم ولم يطلق ما يشبه ذلك. والواقع، أراد أن يبين للبابليين أن أخاه لم يبحث إلا عن شيء واحد، ألا وهو إطلاق الأقاويل المضللة وتشويه سمعة بابل.

وأخيراً انفجرت الحرب الأهلية عام 651 وأقام الآشوريون في شهري تموز وآب عام 650 الحصار أمام بابل بعدما شنوا عليها عمليات عسكرية مختلفة. وبقي شمش ـ شوم ـ أوكين مُحاصراً مع مناصريه داخل المدينة حيث انتشر الجوع والأسى في ربوع البلاد.

وتمكن الآشوريون في نهاية سنة 649 من إعادة فتح المنطقة الواقعة في جنوب بابل. ويروي لوح تم العثور عليه في نينوى (اليوم في المتحف

البريطاني) بأن القبائل الكلدانية في ضفاف الخليج التي كانت قد ساندت في بداية شمش ـ شوم ـ أوكين، التحقت أخيراً بآشور بانيبال وأقسمت بأن تكون خاضعة ومخلصة له:

"القسم ... بآلهة (آلهة آشور وبابل) و(بجميع) الآلهة الكبرى في السماء والأرض.

واعتباراً من هذا اليوم (وطالما بقينا على قيد الحياة، سوف نكون رعايا آشور بانيبال، ملك آشور)، وأن آشور بانيبال ملك آشور، سيكون ملكنا وسيدنا وسوف نكون مخلصين له إخلاصاً كاملاً. إن سيدنا هو ملك بلاد آشور.

لن نكتم أو نخفي (أية رسالة) أو مبعوث أرسله شمش ـ شوم ـ أوكين ملك بابل[...] أو التي تصلنا من أبناء شمش ـ شوم ـ أوكين أو من عدو آشور بانيبال ملك آشور سيدنا، وسنعلم بذلك آشور بانيبال ملك آشور، سيدنا.

أمّا الجرائم التي ارتكبناها بسبب شمش ـ شوم ـ أوكين ضد آشور بانيبال ملك آشور، سيدنا، فقد صفح عنها آشور بانيبال ملك آشور، سيدنا." 9

وسقطت بابل عام 648 بعد حصار طويل ورهيب. ولقي شمش ـ شوم ـ أوكين مصيره في حريق نشب فيها. وأدت وفاته إلى ولادة أسطورة "ساردانابال"، ذلك العاهل الضعيف والماجن الذي تشير الأسطورة إلى انتحاره، وتكلم عن ذاك الحدث كتّاب إغريقيون مثل تزيتياس و ديودوروس الصقلي. يشاهد المرء لوحة الرسام أيوجين دي لاكروا (في متحف اللوفر) التي تعرض بصورة دراماتيكية قوية، ملك بابل مسترخياً على سرير بلون أرجواني، ذلك اللون الذي يرمز إلى اللهب، وسط عشيقاته وثرواته.

اقتاد مناصرو شمش ـ شوم ـ أوكين إلى بلاد آشور، وقتلهم في المعبد الذي قتل فيه سنحاريب الملك.

وكان على البابليين أن يؤدوا قسم الولاء إلى آشور بانيبال، وتم تنصيب الموالي "كاندالانو"، نائبا للملك على عرش بابل.

تدمير سوسة عاصمة عيلام

بذل آشور بانيبال أثناء قيامه بالحملات الكبيرة، جهداً لمعاقبة حلفاء شمش ـ شوم ـ أوكين، ومنهم العرب والعيلاميين الذين ساندوا التمرد البابلي. وكان ملك سوسة الأخير "أومانالداش"، قد خسر المعركة ضد القوات الآشورية، فترك عرشه وهرب عارياً باتجاه الجبل. وتم القبض على عائلته وكبار الشخصيات المؤيدة له واقتيدوا إلى الأسر.

وفي فصل الخريف من سنة 646 دخلت قوات القائد الآشوري "بيلي ـ ابني" مدينة سوسة وقامت بنهبها. لقد حرر كاتب قصة طويلة تروي وقائع هذه الأحداث، إنّها منقوشة على موشور تأسيسي (يحمل الحرف ألفاء) عائداً لآشور بانيبال، ومحررة بصيغة المتكلم. وقد صرّح آشور بانيبال بأسلوب الحوليات عبارات تشير إلى سعادته بوضع حد لتمرد أعدائه: " لقد دخلت إلى القصور وسكنت فيها بابتهاج".

استحوذ الملك على ثروات سومر وأكد وكاراندونياش (بابل) التي كان ملوك عيلام السابقين قد نهبوها عدة مرات واستولوا على غنائمها. وخاصة تمثال الآلهة "نانا"، الذي نُهب في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وبقي في بلاد عيلام وجلبه ملك آشور إلى معبد "إيانا" في أوروك.

يستمر الموشور الفخاري بعرض تفاصيل هذه الأحداث:

"دمرتُ البرج ذي الطوابق لمعبد سوسة الذي كان مبنياً بالطابوق المزجج. كما كسّرت قببه المعمولة على شكل قرون والمصنوعة من البرونز البراق... وجلبت معي اثنين وثلاثين تمثالاً لمختلف الملوك،

تماثيل ذهبية وفضية وبرونزية ورخامية، إضافة إلى تماثيل ضخمة لحراسة المعبد والثيران التي كانت عند الأبواب، لقد أخذت كل شيء. دمرت معابد عيلام تدميراً كاملاً وقضيت عليها قضاء تاماً، ثم شتّت آلهتها باتجاه الرياح الأربع. ودخل جنودي الجنائن المقدسة التي كان من غير المكن عبور حدودها والتي لم يكن مسموحاً لأي غريب أن يدخل إليها أبداً، فعرفوا أسرارها وحرقوها. ودُمرت أضرحة ملوكهم السابقين واللاحقين، الذين لم يخشوا آشور وعشتار ساداتي واستهزؤوا بآبائي، وقمت بتحطيمها وجعلتها خاوية مفتوحة للشمس.

وأخذت عظامهم إلى بلاد آشور تاركاً ظلهم إلى الأبد دون راحة، حارماً إياهم القرابين الجنائزية من الأغذية والماء" 10

بابتهاج كبير، جمع الجنود الآشوريون في مدينة سوسة خلال أكثر من شهر غنيمة طائلة، تمثلت في الأسلحة والشارات الملكية والأثاث والأطباق وأطقم المجوهرات والخيول والبغال. ونشروا الملح والزوان في الريف.

إن تدمير سوسة كان أمراً طبيعياً، وفق رؤية الشرق الأوسط القديم لأن حلقة الزمن الدائرة لمملكة سوسة كانت قد وصلت إلى أجلها، ولأن المدينة كانت قد تعرضت في جزء كبير منها إلى الدمار. إلا أنها تمكنت من النهوض ثانية من تحت أنقاض رمادها.

اختارها الملك الأخميني داريوش الأول (521 ـ 486 قبل الميلاد) عاصمة لحكمه واستعادت تألقها ثانية بكافة أنوارها.

متعة العيش والحياة

كان أبناء بلاد الرافدين يعتقدون بأن الزمن الأفقي مرهون بالزمن الدائري. وبإرادة صلبة، كانوا يستجوبون الماضي الذي عاش فيه أبطال مثل جلجامش ملك أوروك 11 المشهور وأيضاً الملوك الذين تركوا وراءهم آثاراً رائعة من الأعمال والمنجزات البطولية، لشرح

حاضرهم وتفسير مساراته. أجل، كانت صاحبة الحانة سيدوري قد نصحت جلجامش عندما التقى بها على ضفاف البحر، بأن يترك بحثه غير المجدي عن الخلود، وأشارت إليه بأن يملأ جوف بطنه بما لذ وطاب، وإقامة الاحتفال يومياً، وضم زوجته وأولاده إلى صدره، وأن يسلك حياة حافلة وغنية.

عندما شن الحملة الأخيرة ضد بلاد عيلام، سمع أحد الكهنة في حلمه آشور بانيبال وهو يتحاور مع الآلهة عشتار الأربيلية. إذ قالت له إنها تحرص على إدامة سلام الإمبراطورية وأوصته بأن يتمتع بالحياة وأن يأكل خبزه ويحتسي جعته وأن يكون سعيدا وأن ينشر السعادة على شعبه، لأن الكلام الحسن يخرج من شفتيه ولأنه يقوم بإشباع بطونهم وآذانهم.

لا بد أنّ آشور بانيبال قد شعر بالمتعة عند قراءة ملحمة جلجامش البطل الشهير، وربما طلب من كتّابه بوضعها مع نصوص أدبية أخرى على رفوف مكتبته. إن الوصايا الطيبة للآلهة عشتار التي علمته فيها فن السعادة، قد ذكّرته بالدرس المليء حكمةً لحافظة النبيذ سيدوري. بالتأكيد كان معروفاً منذ الألفية الثالثة في بلاد الرافدين، أن الواجب المفروض على الملوك رعاة شعوبهم يكمن في تحسين شروط حياة شعوبهم وتطوير ازدهار البلد وأن يبذلوا كل جهد لتحقيق ذلك.

نهاية حياة غير معروفة إلا قليلاً

كانت حياة آشور بانيبال معروفة إلى حد ما، لأن الكتابات التي وصلتنا عنه تروي أعماله إلى عام 639. ونعلم من بعض المصادر بأنه منذ عام 653 ، كان الملك يقيم مراراً في مدينة أربيل.

لقد تمتع الملك بخبرة واسعة في معرفة "العالم" الذي كان يجثي تحت نفوذه وسلطته. لقد تقدّم في السِنّ وبلغ الشيخوخة، وبدأ

يشعر أحياناً بالقلق. فهل كان يفكر بواقع الأمراء والبشر الهش رغم ظهورهم أقوياء، لان الجميع يسير نحو نهاية حتمية؟ أو هل كان يتأمل بتفاهة الأشياء، وبانعدام الأمل بما وراء الحياة ؟ ذكر آشور بانيبال في إحدى صلواته أمام الإله بحسن تصرفه تجاه الآخرين متضرعاً له وهو يقول: "لقد أنجزت أعمالاً حسنة للآلهة وللبشر وأيضاً للأموات كما للأحياء!".

سنة 630 ، سلم آشور بانيبال بعد حكم طويل دام حوالي أربعين عاماً، السلطة لابنه آشور ـ إيتيل ـ إيلاني. وغادر الحياة عام 627 قبل الميلاد.

وهكذا ترك آشور بانيبال القائد الاستراتيجي الكبير إمبراطورية آشورية واسعة. مدّ قوس حكمه القوي الذي سلمه له الإله آشور من البحر العالي والبحر الأبيض المتوسط إلى البحر المنخفض والخليج. فشملت إمبراطوريته حينذاك بلاد الرافدين وسوريا وجزءاً من مصر وبلاد الأناضول وعيلام. لكن بقي البابليون مليئين بالحقد عليه بعد الحرب الطويلة التي خاضها مع ملكهم شمش ـ شوم ـ أوكين.

هوامش الفصل السادس:

1- المعاهدات والقسم في الشرق الادنى القديم (Traités et Serments dans le Proche-Orient ancien)، تقديم جاك بريند، منشورات سيرف (Cerf) ملحق دفتر الإنجيل، رقم 81، ص 83-84

2- ماكسيميليان ستريك (Maximilien Streck)، (Assurbanipal und die letzten assyrischen König bis zum Untergange Niniveh's,)، لا يبزج ، جي سي هنريك، 1916، مقطع مذكور في كتاب غراند بيار، "تاريخ بلاد الرافدين" ، منشورات غاليمارد Gallimard، 2010، ص 160

3- انظر: جان ماري أينارد (Jeanne-marieAynard)، منشور متحف اللوفر(Le Prisme du Louvre)، باريس، شامبيون، 1957، ص 30

4- ترجمة دومينيك شاربان (Dominque Charpin)، الأستاذة في جامعة باريس 1

5- نفس المرجع أعلاه

6- مقطع من حوليات آشور بانيبال ، موسكاتي (S. Moscati) (L'épopée des Phéniciens)، منشورات فايارد (Fayard)، باريس 1971، ص 45-46

7- الوليمة تحت المسند

8- فرانسيس جوانيس (Francis Joanès)، الأستاذ في جامعة باريس الثامنة

9- المعاهدات والقسم في الشرق الادنى القديم (Traités et Serments dans le Proche-Orient ancien)، تقديم جاك

بريند، منشورات سيرف (Cerf) ملحق دفتر الإنجيل، رقم 81، ص 86-85

10= انظر: كونتنو (G. Contenau)، الحياة اليومية في بابل وفي آشور (La vie quotidienne à Babylone et en Assyrie)، دار النشر هاشيت (Hachette) 1950، ص 162

11= حكم جلجامش حوالي سنة 2650 قبل الميلاد

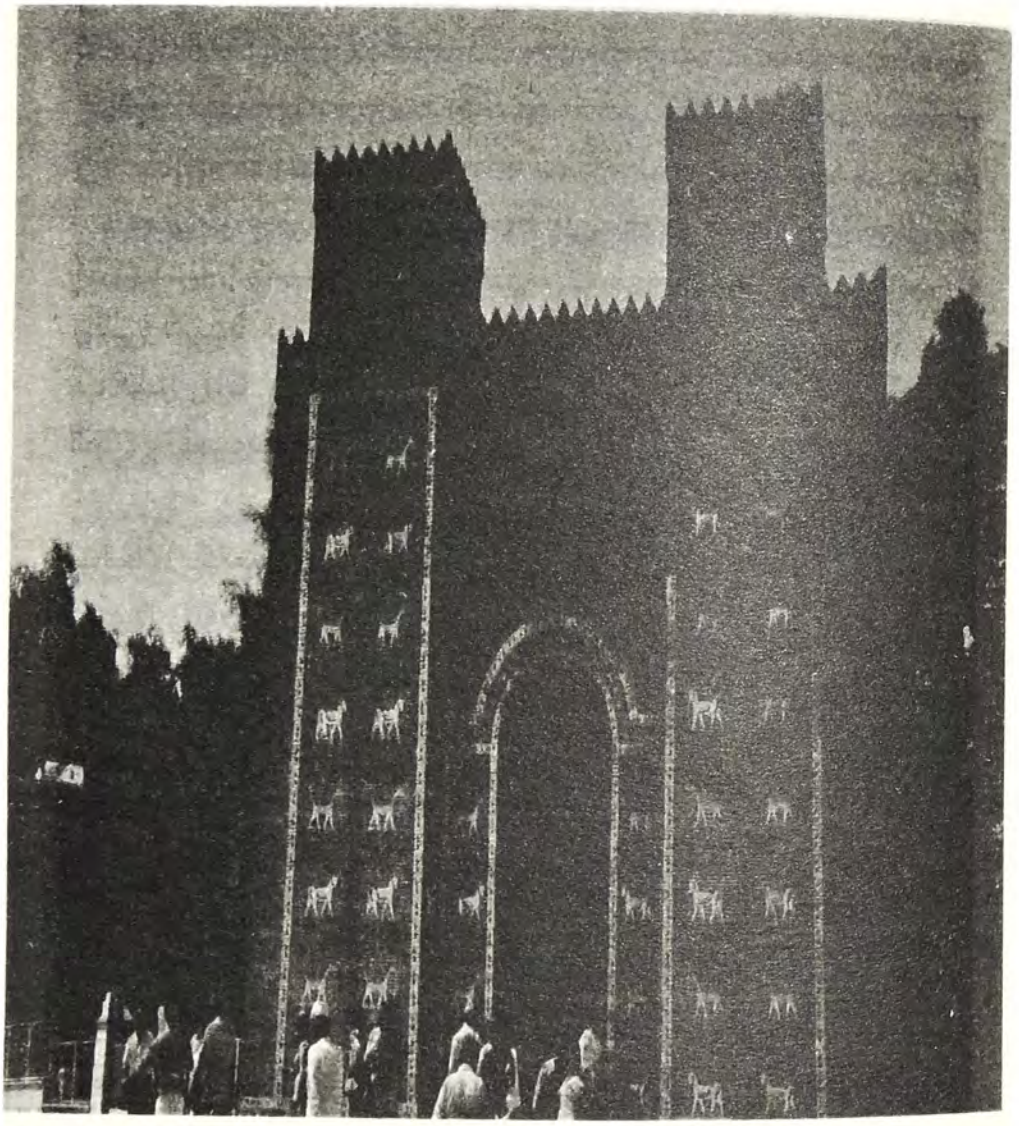

الفصل السابع

نبوخذ نصر ملك الدولة الكلدانية

كيف يمكن للمرء أن يقفز مرة أخرى خارج هذا الزمن ويغوص في إشراق الإمبراطورية البابلية وهوائها المتوهّج، ويعود إلى القرن السادس قبل عصرنا.

عيَّن الآشوريون نبوبولاصار حاكماً على بابل وهي مقاطعة الجنوب وتشمل جنوب العراق الحالي. نشبت حروب وراثية بعد وفاة آشور بانيبال عام 627، أدت إلى هزّ كيان الإمبراطورية الآشورية. ودخل أحد أبنائه، سين ـ شار ـ إيشكون، الذي كان مقيماً في بابل، في صراع مع شقيقه، آشور ـ إتيل ـ إيلاني وتحالف مع نبوبولاصار الذي انتهز فرصة هذه الاضطرابات الداخلية في الدولة بين ورثتها، لكي يُتوج ملكاً على بابل سنة 626. وبعد وفاة آشور ـ إيتيل ـ إيلاني عاهل بلاد آشور (623) انقلب على حليفه السابق سين ـ شار ـ إيشكون.

وفي تلك الفترة، تمكن الميديون خصوم رهيبون في الشمال الشرقي من بلاد آشور، من تطوير قوتهم العسكرية.

هكذا استطاع الميديون والبابليون الذين اتحدوا معاً، عام 612، الاستيلاء على نينوى وألقوا بالإمبراطورية الآشورية الشهيرة أرضاً.

انسحب الميديون بعد المعركة، أما البابليون الذين تمكنوا من تدمير بلاد آشور، فلم يقيموا بها بعد تدمير نينوى. بل أسس نبوبولاصار في

بابل الدولة التي حملت اسم الدولة الكلدانية، وشهدت فيما بعد وصول ابنه نبوخذ نصر الذي نال شهرة باهرة فيما بعد.

"أنا نبوخذ نصر، ملك بابل المتواضع والخاضع والتقي المتعبد لرب الأرباب، ومتعهد الإيزاجيل والإيزيدا (معبدي بابل وبورسيبا)، الوريث الشرعي لنبوبولاصار، ملك بابل. " 1

قدم الملك نفسه على لوحة آجر مكتوبة، تحت اسم "نابو ـ خدوري ـ إوصور" (أو نابو، حامي ولي العهد)، المعروف في الكتاب المقدس باسم نبوخذ نصر (605ـ562 قبل الميلاد). وكان نبوخذ نصر هذا الذي ارتبط اسمه بعرش والده، قائداً للجيوش البابلية عند تدمير نينوى.

وحكم بابل ثلاثة وأربعين عاماً وتمكن في نهاية حياته أن يهيمن على كامل منطقة الشرق الأدنى الغربية. وكان نبوخذ نصر فاتحاً فخوراً ومشيداً كبيراً ورجل دولة مستنير. أولم يمنحه الإله مردوخ اسماً خالداً، كما صرح بذلك هو شخصياً على لوحة أسطوانية الشكل؟

1- الفاتح

والساحل السوري والفلسطيني ومصر

شن نبوخذ نصر خلال الفترة الأولى من حكمه، عدة حملات عسكرية. وكان راغباً من خلال تلك الحملات توسيع قدرة بابل لبسط نفوذها في الشرق الأدنى.

تروي مدونة تاريخية تعود إلى العصر البابلي الحديث كيف اتخذ نبوخذ نصر موقعه على رأس قواته العسكرية وانتصر عام 605 بصفته القائد الأول على فرعون مصر "نيخو"، الذي كان قد أقام حامية عسكرية في كاركميش الواقعة على شاطئ نهر الفرات، فتقهقر جيش مصر وتعرض للإبادة.

وبينما كان نبوخذ نصر يشن الحرب في الغرب، علم عام 605 بوفاة والده نبوبولاصار. عندئذ باشر بترتيب الأمور الإدارية في مصر واخترق الصحراء ملتحقاً بسرعة بمدينة بابل حيث ورث عرش والده وتم تتويجه ملكاً على بابل.

وقام خلال السنوات التالية بشن عدة حملات في سوريا وفلسطين واستولى على عسقلان عام 604 وعلى صيدا عام 602 وأخضع مملكة يهوذا التي أرغمها على دفع ضريبة له.

وفي عام 598، رفض ملك دولة يهوذا "يهوياقيم" الخضوع لسلطة البابليين وامتنع من دفع الضريبة لهم، لكنه توفي بعد فترة تاركاً السلطة لابنه يهوياقين. وتوجه نبوخذ نصر عندئذ إلى أورشليم واستولى عليها في شهر آذار من سنة 597 وسبى يهوياكين إلى بابل مع جميع أعيان وكبار حاشيته إضافة إلى الرجال البواسل والحرفيين:

"في ذلك الزمن، صعد رجال نبوخذ نصر ملك بابل باتجاه أورشليم، فأصبحت المدينة تحت الحصار. وجاء نبوخذ نصر ملك بابل إلى المدينة وكان رجاله يحاصرونها.

فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه، فقبض عليه ملك بابل وأخذه في السنة الثامنة من ملكه. وأخرج جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسّر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب.

وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف مسبي وجميع الصنّاع والإقبان. ولم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض. وسبى يهوياكين إلى بابل وأمّ الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض" 2

وكان النبي حزقيال من بين الأسرى، ومرّ عبر مدينة بابل وأقام في ضواحي مدينة نيبور، استمر في التنبؤ. عاشر الفينيقيين الذين

تعرضوا إلى السبي مع سبايا السوريين والفلسطينيين والعرب والمصريين واهتموا بزراعة الأراضي الخصبة. وكان يعيش الجميع بشكل طبيعي ويديرون شؤونهم بأنفسهم. ولم يكن هناك أية كراهية للغرباء لدى البابليين. أجل كان البابليون يقودون ويديرون إمبراطورية واسعة ولكنهم كانوا يتركون الشعوب الخاضعة لسلطتهم يعيشون بحرية وفق عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم.

ثم عاد نبوخذ نصر عام 588 وحاصر مدينة صور، تلك المدينة التجارية الهامة التي تمردت عليه. كما تمردت مدينة أورشليم التي كان يحكمها "صيديقيا" عم الملك يهوياكين، والذي انضم إلى العمونيين المقيمين في الأردن والفينيقيين في تحالف مخطط من قبل المصريين ضد بابل وعاهلها.

قاومت صور ثلاث عشرة سنة ولكن أورشليم سقطت في شهر آب سنة 587 وتم سلبها وحرقها وتفكيكها. وانتهى الأمر بالملك صيديقيا الذي حاول الهروب، إلى الوقوع في الأسر، فوصل إلى بابل بعد تعرضه إلى العمى ومقيداً بسلاسل مصنوعة من البرونز، وتبعه إلى السبي جزء من سكان بلاده.

بالنسبة إلى البابليين لم تنل الحملة ضد مملكة يهوذا التي تم ضمها ودمجها بالإمبراطورية، الأهمية التي منحها لها الكتاب المقدس الذي أعطى صورة رهيبة عن الملك نبوخذ نصر. لقد تطرق البابليون في مدوناتهم التاريخية إلى سقوط أورشليم (تحت اسم يهودو) عام 597 ببعض من السطور الموجزة.

وهكذا استولى نبوخذ نصر شيئاً فشيئاً على سوريا الشمالية وعلى فلسطين وتمكن من درء تأثير المصريين الذين كانوا مسيطرين على تلك البلاد.

نبوخذ نصر في وادي بريسا، لبنان

كان لبنان قد تمرد أو ربما تعرض إلى غزو متمرد أجنبي. وجاء نبوخذ نصر إليه لكي يعيد الأمور إلى نصابها مع جيش عبّأه لهذا الغرض، وقضى على أعدائه وأعاد السكان الذين كانوا قد هربوا إلى أماكنهم. وأصدر عندئذ أمراً بنحت كتابات في وادي بريسا الواقع على السفح الشرقي لجبل لبنان. وتطرق في هذه الكتابات إلى حملته وأعماله التي أنجزها، مثل إنشاء طريق وقطع ونقل أخشاب الصنوبر نحو السهل ومن ثم نقلها إلى بابل.

يقول:

"بصدد لبنان.
قاتلتُ أعداءه من الأعلى ومن الأسفل.
وشتتهم في البلد.
أما سكانه المشردون...
جعلتهم يستقرون في مكانهم.
أنجزت ما لم يفعله أي ملك سابق،
لقد اجتزت الجبال المرتفعة
وشطرت صخور الجبال
وفتحت الطرق.
أنشأت طريقاً لنقل أخشاب أشجار الصنوبر
برعاية "الملك" مردوخ(الإله)،
أخشاب الصنوبر المتينة والباسقة والضخمة،
ذات القيمة العالية، والتي تزن وزناً كبيراً،
إنتاج لبنان. ناس في لبنان... جعلتهم يستقرون.
ولم أسمح لأي شخص أن يضايقهم." 3

توجد هناك لوحات صخرية تمثل نبوخذ نصر حاملاً تاجاً مخروطي الشكل، وومرتدياً الثوب المزركش، وهو يقطع شجرة صنوبر أو شجرة أرز، أو يطرح أسداً على الأرض. وقد تمكن من نشر السلام في الشرق الأدنى الغربي الذي سادت الرفاهية في ربوعه. وامتدت إمبراطورية نبوخذ نصر في عهده من بلاد الرافدين العليا لغاية الشمال في زغروس ومن سوريا إلى فلسطين.

2- نبوخذ نصر، المشيد الذي لا يعرف الإرهاق

إعادة ترميم المعابد

بعد أن تمكن نبوخذ نصر من تعزيز سلطته، توفر له الوقت للاهتمام بتزيين إمبراطوريته بفضل الغنائم التي استولى عليها من المدن التي قام بفتحها والأيدي العاملة الواردة من الحملات العسكرية التي شنها في مختلف البلدان.

ترك لنا كتابات تتعلق بنشاطه كمشيد للمعالم لا يعرف الإرهاق في حياته ومخلص للآلهة، مثل الكتابة التي تم العثور عليها على أسطوانة.

تروي الكتابة:

"نبوخذ نصر ملك بابل، الحكيم، الكفؤ، المحبوب من الإله مردوخ. مدبّر سومر وأكد ومعزّز أسس البلاد، الأمير المنتبه الذي استحضره مردوخ الرب الكبير إلى حضرته للاعتناء بشؤون المدن وترميم حرم المعبد." 4

أنجز نبوخذ نصر واجبه المتمثل في بذل أقصى جهد للمحافظة على النظام العام، مصغياً للتعليمات التي كان يعتقد بأنها صادرة عن الآلهة. في الشمال قام بإعادة إنشاء المعابد مع التقيد بالتقاليد المتبعة في

الماضي وفي الوسط زين المعابد التي كانت قد تعرضت في بعض الأحيان إلى التلف في بابل و أكد وسيبار وأيضاً بورسيبا وكيش وكوثا، ثم لارسا وأروك وأور في الجنوب. ومنح هذه المدن ثروات وجهزها بحاجاتها وأمّن القرابين المقامة في معابدها.

هذه المعابد التي مثلت نوعاً من الوحدات الاقتصادية، قد أصبحت مراكز هامة للموارد الاقتصادية في الإمبراطورية البابلية.

ولم يهمل نبوخذ نصر ترميم عشرات الأماكن المقدسة في بابل، تلك المدينة المقدسة التي كانت مفتوحة أمام الدعوات الروحية للإنسان بمعابدها العديدة المكرسة للآلهة الكبرى، مثل معبد نابو إله الكتابة الذي زوقه بالذهب البهي.

وباشر الملك بتجميل معبد مردوخ إله بابل الكبير "معبد القمة العالية" أو معبد الإيزاجيل، الذي كان مُكرساً له، وأعطاه هيئة رائعة، وهو المعبد الذي كان واقعاً في مركز المدينة وبالقرب من النهر. وزوق جدران هذا المعبد بالذهب البراق مثل بريق الشمس وبالفضة والأحجار الكريمة، وزين آثاثه للمراسيم الدينية بالذهب الرفيع. وزيّن السفينة "هوسيكوا"، لنقل إله مردوخ أثناء الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة، لكي يصل إلى معبد آكيتو الذي كان خارج جدران المدينة:

"لقد غطيت واجهة سفينة [مردوخ] باليتا... سفينته البراقة، سواء من الجانب الأمامي أو الخلفي، وتماثيلها العملاقة زينتها بالأحجار [؟] وجعلتها تلمع فوق مياه الفرات الدافقة مثل نجوم السماء، لإثارة إعجاب الناس بها وملأتها بالجمال.

في فصل اعتدال بداية السنة، وضعت فوقها الإله مردوخ، رب الآلهة بمناسبة عيد المحاصيل ورأس السنة، جعلت هذا الإله يتجول بأبهة في السفينة." 5

أعاد نبوخذ نصر إعمار كافة مدن بابل القديمة. كان يريد إنجاز طموحات فنية ويحلم في تحقيق مآثر معمارية كبيرة لعاصمته. بابل التي امتدت لتشمل جانبي نهر الفرات. وجعل من هذه المدينة مركزاً فريداً وحاضرة مشهودة وملأها بمعالم فخمة:

إنه محق بالقول عندما يعلن:

"لم أجعل أية مدينة أخرى من بين كافة الأماكن المأهولة، أكثر بهاء منك يا مدينة بابل!" 7

كما أن سلفه الملك نبوخذ نصر الأول (1126-1105 قبل الميلاد) كان قد عظّم هو الآخر بابل، وجعلها في مصاف عاصمته الدينية والكونية، وجعل من الإله مردوخ رئيس مجمع الآلهة.

وبغية تجميل بابل، التمس نبوخذ نصر رأي الآلهة واستشار جواب الآلهة والعرافين. قام مثل بقية ملوك بلاد الرافدين الذين همهم الأكبر كان الاهتمام بالمياه وتنظيمها، شرع بتوسيع قنوات مياه بابل وشيد لها أحواضاً مطلية بالقار وبالآجر المشوي.

وقام الملك بتعزيز نظامها الدفاعي وبتصليح وتوسيع محيط الأسوار. فأصبحت واسعة جداً، بحيث كان من الممكن أن تمر فوقها عربتان. وكانت تحتوي تلك الأسوار على ثمانية بوابات تنفتح على سور مزدوج، وكانت كل بوابة من بواباتها مكرسة لأحد الآلهة. وبدون شك كانت أشهر البوابات، هي بوابة عشتار آلهة الحب والحرب. أعاد تجديد هذه البوابة التي ترمز إلى عظمة بابل عدة مرات أثناء حكمه، كما هو مذكور في إحدى كتابات نبوخذ نصر المنقوشة على لوح حجري كبير.

يقول:

"لقد كسوتها بالآجر المطعم بالمينا الأزرق، ورُسمت عليها الثيران الوحشية وحيوانات التنين. وركّبت فوقها عوارض من خشب

الصنوبر لتغطيتها. ووضعتُ في أبوابها مصاريع من خشب أشجار الصنوبر مغطاة بالبرونز وحيوانات التنين الرهيبة التي رتبتها في المدخل. وجملتُ البوابة لكي تُثير إعجاب كافة الشعوب. "

كان ارتفاع بوابة عشتار يتراوح بين 25 و30 متراً، وهي ترمز إلى اتحاد وتناغم بين العناصر الأربعة وهي الأرض والماء والهواء والنار. وكانت بوابة عشتار مجهزة ببابين محصنين بأربعة أبراج وجدران مغطاة بالآجر وبالخزف البرّاق المائل إلى اللون الأزرق العميق. وكانت تحمل تسعة صفوف مزينة من الثيران بأجسام غامقة اللون ووبر سماوي اللون، إنّها ذات العيون الكبيرة الحالمة (رمز إله العواصف، حداد) وبحيوانات التنين- الأفعى الرمادية المائلة للزرقة ذات المظهر الخيالي العجيب (رموز إله مردوخ). وكانت كافة هذه الحيوانات تصدر ألواناً براقة منبثقة من لون البوابة.

وكانت البوابة تحمل في أعلاها على إفريز من سعف النخيل الأبيض ومزين في وسطه بلون أصفر لإنجاز الديكور. فهل كانت هذه الألوان تعبر عن روح وذاكرة المدينة؟

كان الطريق الداخلي يشكل طريقاً مقدساً محاطاً بثمانية جدران عالية ومغطى بحجر وردي اللون المعروف بالمسننات التي كان نبوخذ نصر قد ترك اسمه مختوماً عليها. وكان الملك يمر تحت بوابة عشتار وصولاً إلى مركز المدينة الديني وهو معبد مردوخ الإيتيمينانكي، وكان الطريق يلتف حوله ثم يصل إلى جسر فوق نهر الفرات. كان عرض هذا الطريق الرئيسي يبلغ 22 متراً، يُستخدم للاحتفال بمسيرة فوقه، فتمر منه أولاً عربة الرب الكبير مردوخ ويليه موكب الملك المنتصر ثم الكهنة. يتم ذلك خصوصاً عند الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة في بداية الربيع، الذي كان يرمز إلى تجديد الطبيعة ويؤمن الرفاهية لبابل.

كان هذا الطريق الهام محاطاً، بمسافة ما يقرب من 180 متراً، بالألواح المعمولة من الآجر الرائعة، وعلى شكل رسوم تعرض كلٌ منها

60 أسداً مزوداً بعرف وحشي وبفم مفتوح، تظهر من خلاله الأسنان البارزة وذيل ممتد ضارب في الهواء. وكانت الرسوم تُظهر الأسود مارة بين ورود دائرية وأشكال هندسية متناوبة ومزيّنة أعلى وأسفل الجدران. تبدو وكأنها ترافق المسيرة وتترك لحناً سمفونياً، إنّها متعددة الألوان وعلى خلفية آزوردية، وكانت أنغامها اللذيذة تنشر قشعة أحمر خافت وأبيض ساطع.

كانت تلك الحيوانات تعبر عن النبل والعزّ في آن واحد، وكانت تلعب دوراً لحماية ولتخويف للعدو.

قصر أدهش الشعب

إذا كان مردوخ يقيم في معبد الإيزاجيل الشهير، فالملك أيضاً كان يسكن في قصر فاخر. في البداية، أعاد الملك تعمير القصر الذي كان والده نبوبولاصار قد شيده والواقع على الضفة اليسرى من نهر الفرات. إلا أن هذا القصر المشيد من الآجر العادي تعرض إلى التلف بعد أن غمرت مياه فيضانات النهر أساساته التي بدأت في التآكل.

قام نبوخذ نصر بتشييد قصره الملكي الخاص في الجنوب باستعمال القرميد والقار وأخشاب أشجار الصنوبر والأرز، وباشر بتزيين جدرانه وفق الأعراف السومرية بلوحات كانت تشكل ملامح بارزة ومقعرة، وهكذا كانت تفضي إلى نوع من الظلال والأنوار. كما قام بإحاطة القصر بجدار كبير، ونصب في علوه إفريزاً بلون آزوردي.

كان هذا القصر يحوي أكثر من مئتي غرفة، تم ترتيبها حول خمس ساحات واسعة. وأُقيمت في وسطه قاعة العرش البالغ عرضها 50 متراً، مزينة بالآجر المطعم بالمينا الأزرق والأصفر. ترمز هذه القاعة إلى "شجرة الحياة" لأن أغصانها تنحني وتتدلل كأعمدة وترتفع فوقها أقواس من الأطواق الحلزونية، وتغطيها تشكيلات من سعف النخيل

المعكوسة. وكانت قاعة عرش القصر هذه، مزينة بإفريز من تماثيل الأسود التي تمر عبر الأشجار رافعة ذيلها للدلالة على قوتها. كما كان القصر بالنسبة إلى نبوخذ يمثل قاعدة لملكته ونقطة اجتماع كافة الناس ومحل إقامة الفرح والمرح، ويمثل مركز الحياة السياسية والاقتصادية حيث تصدر الأوامر والتعليمات الملكية. وكان الشعب يأتي إليه لدفع الضرائب.

وشيد العاهل أيضاً في الشمال، خلال النصف الثاني من حكمه، قصراً آخر هو "القصر الكبير" الذي كان يحتوي على متحف ومكتبة ملكية.

كما أقام أخيراً "جدار الميديين" بين نهري دجلة والفرات، شمال مدينة سيبار، لتعزيز دفاعات بابل. وكان شولجي، ملك سلالة أور الثالثة، قد شيد قبل 1500 من ذلك جداراً في هذه المنطقة لاحتواء العموريين.

ويسرد نبوخذ نصر:

"من شاطئ نهر دجلة ولغاية شاطئ نهر الفرات، طلبتُ برفع التربة بطول بلغ [4] كاشبو قاقار. (وحوطت البلد) بالمياه الغزيرة مثل سعة البحر على (مسافة) تبلغ 20 كاشبو قاقار.

ولكي (لا ينجرف دفق المنحدر، رفعتُ) كتلة من التربة. وشيدت جدارها الواقي بالقار والآجر..." 9

حدائق بابل المعلقة

"لقد أمضيت طفولتي في حدائق بابل المعلقة"، هذا ما تأوه به الكاتب الفرنسي المعروف بليز سندرارس Blaise Cendrars (1887-1961). أفضت هذه الحدائق البديعة إلى أن يحلم بها الكثير من الأجيال الشابة في كافة أنحاء العالم.

ويبدو أن نبوخذ نصر كان قد شيدها لزوجته أميتيس من أصل ميديي، التي كانت تحن إلى مناظر بلاد ولادتها الخضراء. كانت حدائق بابل المعلقة تتكون من شرفات مسنودة بواسطة أعمدة أو أروقة مرتفعة. وقد تكلم عن هذه الحدائق بعض الرحالة الإغريق مثل ديودوروس الصقلي وسترابون ومن اللاتين مثل كوينت كورس. وعبروا عن إعجابهم بجمال هذه الحدائق البابلية، التي مثلت إحدى عجائب الدنيا السبع؛ قسم منها يقع بالقرب من القصر وقسمٌ في أعلى القلعة التي كانت مزروعة بالأشجار، وكانت الرياح تهزها مثل الغابات في قمم الجبال الشاهقة.

للأسف الشديد، تعرضت هذه الحدائق إلى الذبول والوهن وعدم إروائها جيداً. لأن النصوص العائدة إلى العصر البابلي الحديث لم تتكلم عنها، كما أن التنقيبات الأثرية التي أجراها عالم الآثار الألماني كولديواي Koldwey في بداية القرن العشرين، لا تشير هي الأخرى إلى اكتشاف أي أثر لها. فهل اختلط الأمر على المؤلفين القدماء ولم يميزوا بين العاصمتين الفخمتين بابل ونينوى، حيث أنشأ الملوك الآشوريون في نينوى مثل هذه الحدائق العجيبة؟

مع ذلك يجب الاعتراف بحقيقة وجود جنائن مزروعة بالكروم والأشجار المثمرة مثل التفاح والتين والرمان والنخيل، التي كانت تزين القصور الملكية وبيوت البابليين القدماء.

الملك العالم والعادل والمستنير

نبوخذ نصر ذاك العاهل المعروف بحسن الإدارة وتنظيم الزراعة، والاهتمام بتطوير التجارة تطويراً واسعاً مع الشرق الهندي وإيران والبحر الأبيض المتوسط.

تروي كتابات وادي بريشا (في العمود الأول) بأنه تباهى بكونه عالماً وعليماً وعارفاً بالعلوم ومشجعاً على تعلمها كما فعل مع العلماء الكلدانيين. لقد بذل جهداً في تشجيع مختلف أنواع الفنون والمعارف.

استوحى نبوخذ نصر في الأمور القضائية من نصوص حمورابي، ذاك النموذج البابلي العريق. وأراد أن يسود حكم القانون في إمبراطوريته وأن يأمن حل النزاعات عن طريق القانون وتطبيق بنوده في كافة المدن.

وبصفته القاضي الأعلى كان باستطاعته العفو عن المحكومين أو إصدار الحكم بإعدامهم. ويشهد على ذلك أحد النصوص الجميلة الذي يتطرق إلى هذا الجانب:

"لم يكن(الملك) مهملاً فيما يتعلق بالعدالة الصحيحة والمستقيمة، ولم يسترح لا في النهار ولا في الليل، بل كان يدوّن الأحكام والقرارات المنصوص عليها، بغية إرضاء مردوخ الرب الكبير، وتحسين راحة كافة الشعوب، ونشر السلام في بلاد أكد (بابل)." [10]

حافظ الملك، كراعي مخلص على السلام والرفاهية في بلده الذي منحه الاستقرار. فقضى على الفساد وشرّع قوانين وأنشأ محكمة لنشر العدالة.

وطوّر الشعور الوطني في بابل عاصمة إمبراطوريته الواسعة صاحبة الماضي العريق وصاحبة الآلهة العديدة المعبودة من قبل الجميع. إنّها حقاً أرض لحضارة متأصلة.

السنوات الأخيرة

السنوات الأخيرة من حياة نبوخذ نصر غير معروفة معرفة جيدة. تشير إحدى الوثائق التي تروي احتفالاً بإعادة ترميم أحد المعابد، بأنه رجا من الإله شمش منحه حياة طويلة:

" بناء على أمرك المستتب،
تمتعتُ بعمر طويل جداً،
والآن، حصلتُ على عمر مديد، وعلى استقرار العرش،
ولتكون سنوات حكمي طويلة ومزدهرة وخالدة،
وأن أمتلك صولجاناً عادلاً وعناية حسنة وعصاً ملكية شرعية لحماية الناس..
ولتكن هذه الأمور نصيب ملوكيتي إلى الأبد" 11

لقد استجيبت صلاته، لأنه بالرغم من كونه عاهلاً مطلقاً، إلا أنه لم يكن طاغية، بل كان رجل دولة كبيراً ومخلصاً، ولم يتوف إلا في سنة 562 بعد أن تمتع بسنوات حكم طويلة وبمجد كبير، وبعد أن حكم بلاده وشعبه بجو من السلام والرفاهية لمدة 43 عاماً.

وترك نبوخذ نصر لخلفه عرشاً متيناً وإمبراطورية امتدت حدودها من بلاد الرافدين العليا ومن سلسلة جبال زغروس إلى حوض البحر الأبيض المتوسط.

بطل خالد

أدت التنقيبات الأثرية الألمانية التي قام بها عالم الآثار الألماني كولديوي Koldwey من سنة 1899 إلى سنة 1917 في موقع بابل، إلى اكتشاف مدينة نبوخذ نصر. وإلى التعرف على العديد من الآثار، وتحديد موقع السور المزدوج وباب عشتار والقصر الصيفي وقصر الجنوب وغيرها من المعالم المدهشة. على أنه لم يبق من برج بابل المشهور الذي ألهم الكثير من الرسامين العالميين، غير حفرة على شكل مربع مليئة بالمياه، إن البرج خال من الحياة. فقد تعرضت آجره وزخارفه إلى النهب والسرقة، وقام فلاحو الجنوب باستعمال الكثير منها في بناء منازلهم في المنطقة.

عثر علماء الآثار على قطع من آجر مختومة باسم نبوخذ نصر، وعلى ألواح تحمل نصوصاً إدارية واقتصادية. ولقوا وثائق وألواحاً أخرى كانت محفوظة في أحد من أحياء معبد الإيزاجيل. وحسب آراء علماء الآثار، إن قيمة تلك الألواح تساوي قيمة مكتبة آشور بانيبال في نينوى.

لكنهم لم يعثروا على أية لوحة منقوشة بالحفر تمجد الملك، ولكن بقيت لنا اللوحة الصخرية في وادي بريشا وبعض المسلات. إن ملامحه وحياته الشخصية تبقى معروفة لنا قليلاً .

ان شخصية وشهرة نبوخذ نصر قد جعلت منه بطلاً خالداً لدى اليونانيين مثل هيرودوت وستزياس من كنيد (القرن الخامس قبل الميلاد)، وإن لم يقوموا بتحديد اسمه الحقيقي.

في عهد أنطيوقس سوتير (262 ـ281) قام بيروسوس كاهن مردوخ في مدينة بابل، مستنداً إلى وثائق محفوظة لدى كهنة المدينة الكبار بكتابة تاريخ بابل الذي حمل اسم (Babyloniac أو Chaldaica) "والذي تطرق فيه إلى موضوع خلق العالم وتجميل مدينة بابل من قبل نبوخذ نصر الثاني وإلى البرج المتعدد الطوابق. ويعرض في كتابه الثالث تاريخ ملوك بابل منذ تقلات بلاصر الثالث (745-727 قبل الميلاد) ولغاية إسكندر الكبير (356-323 قبل الميلاد). ولكن لم يبق للأسف الشديد من هذا الكتاب سوى مقاطع، استخدمها في القرن الأول من عصرنا المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيف Flavius Josephe.

كما أن عالم الرياضيات الإغريقي بطليموس (حوالي 90 ـ 168) عرض في كتابه المعروف Canon Basileon قائمة بملوك بابل القديمة، اعتباراً من نبو ـ ناصير (747-734 قبل الميلاد).

واستلهم المؤرخ اليوناني أوسابيوس القيصري (القرن الرابع الميلادي) كتاباته من مؤلفات بيروسوس في مؤلفه المعنون التاريخ العام" Chronique universelle» وذكر اسم الملك الكلداني نبو خذنصر.

اشتهر هذا الملك من خلال إنجازاته الكبرى في تجميل مدينة بابل عاصمته التي أصبحت رمزا للجميع، لقد شُيدت فيها الزقورة، وكان برجها يمس السماء بارتفاعه العالي والذي منح بداية أسطورة برج بابل المذكورة في الكتاب المقدس.

كما أن شهرة بابل ألهمت رحالة القرون الوسطى مثل بنجامين توديل Benjamin Tudèle (القرن الثاني عشر الميلادي) والفنانين في الزخرفة مثل بروجيل القديم Bruegel l'Ancien (نحو عام 1563 ميلادية) وغوستاف دوريه Gustave Doré (+ 1883) في القرون الحديثة.

اهتم العديد من الناس بالتاريخ البابلي العريق، فرُسمت لوحات وأُلّفت كتب ومثّلت أفلام سينمائية مثل فلم اللاتسامح Intolérance المشهور للمخرج جيفيت Giffith عام 1916. من منا لا يعرف الأوبرا المشهورة نبوكو Nabucco (1842) لجوزيف فيردي، المؤلفة بروح وطنية لاهبة والتي لازال عرضها يثير الحماس؟

في التواريخ العربية، حاول العالم الفلكي والمؤرخ البيروني (973–1048) في كتابه "تاريخ البلدان القديمة" أن يستعيد تاريخ بابل وفق التسلسل الزمني.

كما تتوفر لنا لوحة صغيرة تعود إلى القرن السادس عشر الميلادي مستوحاة من بابل، تمثل نبوخذ نصر (باسم بخت ناصار) وهو يأمر بتدمير أورشليم (المكتبة الوطنية لفرنسا).

هوامش الفصل السابع:

1- آجرة تم العثور عليها في أطلال مدينة لارسا.

2- الكتاب المقدس، الجزء الثاني، الملوك، 24، 10، 15، الترجمة الفرنسية، لويس سيغوند (Louis Segond)، شركة الكتاب المقدس الفرنسية (Société biblique française)، باريس، ص 1966.

3- تواريخ آشور وبابل (Chroniques d'Assyrie et de Babylonie)، كتابات وادي بريسا، ترجمة بونيون (H. Pognon)، منشورات باليو (Paleo) 2011، BEHE, fasc 71 العمود التاسع، ص 69.

4- بارتيل هرودا (Bartel Hrouda)، الشرق القديم (L'Orient ancien)، باريس، فرانس لوازير، ص 312.

5- تواريخ آشور وبابل (Chroniques d'Assyrie et de Babylonie)، كتابات وادي بريسا، ترجمة بونيون (H. Pognon)، منشورات باليو (Paleo) 2011، BEHE, fasc 71 العمود التاسع، ص 61.

6- كتابة نبوخذ نصر

7- طريق المسيرة الحافلة La voie processionnelle.

8- تواريخ آشور وبابل (Chroniques d'Assyrie et de Babylonie)، كتابات وادي بريسا، ترجمة بونيون (H. Pognon)، منشورات باليو (Paleo) 2011، BEHE, fasc 71 العمود التاسع، ص 65.

9- بياتريس أندريه- سالفيني (Béatrice André-Salvini)، بابل، باريس، منشورات : Presse Universitaire de France، 2001، مجموعة ? Que sais-je، ص 43.

10- وثائق عن الكتاب المدس، صلوات الشرق القـديم (Prières de l'Ancien Orient)، منشورات سيرف (Cerf)، 1989، ص 37.

11- وثائق عن الكتاب المدس، صلوات الشرق القـديم (Prières de l'Ancien Orient)، منشورات سيرف (Cerf)، 1989، ص 37.

الفصل الثامن

نبونيد

آخر ملوك بابل

أسفرت الوراثة على العرش بعد وفاة نبوخذ نصر، إلى حدوث اضطرابات كبيرة في البلاد، لقد ورث الحكم ابنه "أويل ـ مردوخ" ولكنه خُلع عن العرش سنة 560 بسبب عدم كفاءته، وتم ذلك على يد زوج أخته "نيريكليسار"، وأخيراً اغتيل. ولم يحكم نيريكليسار"، الذي تزوج بنت نبوخذ نصر "كاشايا" إلا أربع سنوات فقط (559–556 قبل الميلاد)، وفي تلك الفترة القصيرة، شن حملة على شمال قيليقية، وأنجز إنشاءات عمرانية مدنية في بابل.

وبعد وفاة نيريكليسار، تم تنصيب أخوه الصغير "أباشي ـ مردوخ" على العرش، لكنه تعرض إلى القتل بعد أربعة أشهر من الحكم عندما أحيكتْ مؤامرة ضده في القصر.

وفي عام 556، أوصل المتآمرون إلى العرش موظفاً كبيراً حمل اسم نبونيد، الذي كان رجلاً مسناً، وعمل سابقاً تحت خدمة نبوخذ نصر.

بهذه الطريقة، جاء نبونيد (556–539 قبل الميلاد) إلى الحكم وكان آخر ملك لدولة بابل الحديثة، ودام حكمه سبعة عشر عاماً.

أصول نبونيد

لا تتوفر لنا إلا القليل من المعلومات عن والد نبونيد الذي لم يكن سليل عائلة مالكة. أما والدته "عداد ـ كوبي" كانت تنحدر ربما من أصل آرامي، وهي معروفة بفضل قصة تروي حياتها المنقوشة على مسلة تم نصبها داخل معبد الإله سين (القمر) في مدينة حران الواقعة في شمال نهر الفرات. لقد صارت حران مدينة تجارية ودينية هامة. وكانت هذه المرأة من مواليد عام 649 (قبل الميلاد) "عابدة تقية" لإله سين (القمر). وعندما سقطت حران، العاصمة الآشورية الأخيرة بيد نبوخذ نصر والميديين عام 610، دُعيت هذه المرأة العابدة إلى بابل. وعاشت في رحاب القصر، وأخذت فيه مرتبة عالية واسماً كبيراً، وكان لها تأثير كبير في البلاط. استطاعت أن توجه الأمور لصالح ابنها نبونيد فأصبح يمثل الوريث الرابع لنبوخذ نصر.

مُشيد ومُرمم المعابد القديمة

اعتلى نبونيد العرش في وضع مضطرب وتمكن من إعادة النظام والسلام إلى بابل. أنجز فيها أعمال إعمار مدنية كبرى وشن في نفس الوقت حملتين عسكريتين في قيليقية.

وكان مثل الملوك الذين سبقوه في الحكم، مغرماً بإعادة ترميم المعابد القديمة مع التقيد بالتقليد العمراني خصوصاً في مدن بابل. وأيضاً مدينة: أكد في الوسط وأوروك ولارسا في الشرق وأور في الجنوب، ترك فيها عدة كتابات تشير إلى أعماله. أولى نبوميد اهتماماً بالتقوى تجاه إله القمر، متأثراً دينياً بأمه أدادا كوبي. قام منذ السنة الثانية من

حكمه بإحياء تقاليد قديمة تعود إلى عهد سرجون ملك أكد، (2335-2279 قبل الميلاد)، إذ عيّن ابنته "إينيغالدي ـ نانا" تحت اسم سومري كاهنة عظمى لمعبد الإله نانا (سين) في مدينة أور. وأعاد بناء معبد "إي ـ جيبار" المبنى الفخم الذي كانت تسكن فيه ابنته. وأدت هذه الأعمال إلى تعزيز سلطته السياسية.

في مدينة سيبار الواقعة في شمال بابل، "كأثري" أراد نبونيد المتمسك بالماضي والذي يستمد منه شرعيته وأيضاً لأسباب دينية، أن يعيد تعمير معبد شمش الفخم إله الشمس. وسابقاً كان نبوخذ نصر قد حاول إعادة ترميمه في زمانه. فجمع المهندسين المدنيين والمهندسين المعماريين والعلماء والكتبة والعمال وعقد مجلساً لهذا الغرض، وأمرهم بحفر الخنادق والبحث عن وثائق تأسيس المعالم العمرانية التابعة للملوك السابقين وعن أهداف مراسيم عبادتهم. كما ذكرت إحدى الوثائق الرافدية، شعر نبونيد بفرح كبير وأشرق وجهه عندما تم العثور على المعبد المشيد من قبل الملك نارام ـ سين وعلى تمثال والده الكبير سرجون الأكدي (بالرغم من كسر نصف رأسه)، على عمق ثمانية أمتار والعائد إلى عصر أكد (2335 – نحو 2193 قبل الميلاد). ووضع كالعادة كتابته الشخصية بجانب كتابة الملك السابق. وقام بترميم رأس التمثال ونصبه في المعبد حيث نال التكريم والقرابين المستحقة للملوك السابقين. 1

وهكذا تم البناء على قاعدة الأساسات القديمة لملك نارام ـ سين، معبد "الإيبابار" إله شمش.

والتزم نبونيد أيضاً بإعادة تشييد معبد سين "ايهلهول" في مدينة حران. ويروي في مسلة تم العثور عليها في هذه المدينة عام 1956 كيف ظهر له إله مردوخ في حلم وطلب منه أن يقوم في حقبة حكمه، بتجديد هذا المعبد المهمل. عام 610 قبل الميلاد كانت مدينة حران

قد وقعت بيد الميديين الذين اقتحموها ودمروها. ويُروى أن الإله صرح له " بأن الميديين وأرضهم وكافة الملوك الذين ساندوهم لن تقوم لهم قائمة. وسأطردهم من قبل قورش خلال السنوات الثلاث القادمة".

أجل، إن ملك الميديين "أشتياج" تعرض عام 549 إلى انقلاب قائده ملك الفرس قورش واضطر إلى إخلاء منطقة حران. وتمكن نبونيد الذي ربما كان متحالفاً في ذلك الوقت مع قورش الدخول إلى المدينة. وباشر عندئذ بإعادة تشييد معبد أيهلهول آلهة القمر. وجاء بنفسه لتدشينه باحتفال كبير عام 542.

وهناك مسلة أخرى مصنوعة من حجر البازلت تم العثور عليها في حران؛ تُظهر نبونيد وهو يرتدي تاج العرش المخروطي وثوباً مزركشاً ممسكاً في يده صولجاناً كبيراً. وتعرض هذه المسلة أيضاً كتابات منقوشة تشير إلى رموز للآلهة الشمس (شمش) والقمر (سين) وعشتار.

واحة تيماء

غادر نبونيد في السنة الخامسة من حكمه مدينة بابل وتوجه مع قواته نحو شمال الجزيرة العربية واقتحم عدداً من المدن تتخللها واحة تيماء الواقعة في الغرب من شبه جزيرة العرب. واستقر فيها وبقي هناك لمدة زادت عن ثماني سنوات، مستمراً بمراسلات مع العوائل البابلية الكبيرة. وتشير الاكتشافات الأخيرة للآثار والمسلات الحجرية والمنقوشات، إلى الوجود الفعلي للملك نبونيد في ذاك المكان. وترك لابنه بيل ـ شار ـ أوزور (في الكتاب المقدس تحت اسم بلتصر)، الذي تعاون معه لفترة طويلة في السلطة، مهمة إدارة شؤون الدولة في بابل.

حُررت لوحة بعد سقوط نبونيد في العصر الأخميني، تبرّر سبب سقوط الدولة البابلية وتتهم الملك بالإهمال وبقلة العبادة. أو لم يتخل عن إله "مردوخ" وعوضه بإله القمر "سين"، كقوة إلهية كبرى؟ كما

تلومه اللوحة أيضاً بأنه شيد في واحة تيماء قصراً مماثلاً لقصر نبوخذ نصر في بابل.

تقول اللوحة:

"أما بالنسبة إلى نبونيد، فإن إلهه الذي كان يحميه أصبح معادياً له. وها هو الملك الذي كان محبوباً لدى الآلهة، ينجز عملاً مخالفاً. لقد طلب صنع (تمثال) إله، لم يراه أحد في البلد وأدخله في المعبد ووضعه فوق قاعدة ومنحه اسم القمر (سين). وكان مزيناً بطوق من حجر اللازورد ومتوجاً بقلنسوة. يرمز مظهره إلى خسوف القمر... وموضوع أمامه تنين العاصفة والثور المتوحش.

وعندما وصل المكان...قضى على أمير تيماء في المعركة وذبح قطعان المواطنين وسكان الريف، واقام مسكنا له في تيماء، حيث (تقيم) أيضاً قوات أكد. وجعل من تلك المدينة شيئاً بديعاً، وشيد فيها (قصره) شبيهاً بشوانا (بابل)..." 2

أجل، هناك غموض وتناقضات في سيرة حياته... تساءل المؤرخون عن أسباب إقامة نبونيد في تيماء، ولم يجدوا جواباً مقنعاً. فهل تعرض إلى الإقصاء من قبل ابنه الطموح بيل ـ شار ـ أوزور؟ أو بسبب عداء كهنة الإله مردوخ، الذين رأوا فيه شخصاً متعلقاً تعلقاً مفرطاً بالإله القمر؟

وهل جرى ذلك لأسباب اقتصادية؟ إذ كانت تيماء واقعة في طريق رئيسي هام للقوافل، يتحكم في تجارة منطقة الجزيرة العربية الشمالية، وكان من الضروري تأمين طرق المواصلات في تلك المنطقة الحيوية.

يتطرق أيضاً مصدر تاريخي يعود إلى العصر السلوقي المعروف "بتاريخ نبونيد"، بأنه كان من المستحيل في شهر نيسان، الاحتفال في بابل بعيد رأس السنة الجديدة أكيتو خلال مدة إقامة نبونيد في تيماء، التي دامت سنوات عديدة. فقد كان أكيتو يمثل عيد الإله مردوخ وابنه

نابو الذي كان يأتي عن طريق السفينة من مدينة بورسيبا. وكانت مشاركة الملك خادم الإله مردوخ لا غنى عنها في هذا العيد، لقد كان يلعب دوراً رئيساً في احتفالات العيد، إذ تعتمد عليها رفاهية الإمبراطورية. وبعدم حضور العاهل، كان تُقدم القرابين والصلوات في معابد الآلهة إيزاجيل وإيزيدا.

في تلك الفترة توفيت أدادا ـ كوبي، أم الملك على ضفاف نهر الفرات في أعالي مدينة سيبار، بعمر زاد عن مائة سنة في شهر نيسان سنة 547. ومن الغريب أن نبونيد الذي كان متعلقاً تعلقاً كبيراً بأمه التي لعبت دوراً مهماً في حياته، ترك لابنه الأمير بيل ـ شار ـ أوزور "التصر"، إقامة مراسيم الدفن ولم يشارك فيها. وقد تم إعلان الحداد على وفاتها لمدة ثلاثة أيام.

وأخيراً، عاد نبونيد إلى بلاد الرافدين نحو عام 542 وتوجه للاحتفال بتدشين معبد سين الفخم في حران.

عاد فيما بعد إلى بابل لأسباب ربما كانت سياسية. وبحضوره الفعلي في بابل، تمكن الشعب من إقامة الاحتفال من جديد بعيد رأس السنة الجديدة. واستعاد الملك السيطرة على مقاليد الإدارة، وأقال عدداً كبيراً من الموظفين الذين كان قد عينهم بيل ـ شار ـ أوزور. باشر بإنجاز إصلاح ديني حيث أصبح الإله سين يمثل السلطة الإلهية العليا وتم فرض تمثاله في كافة المعابد، وهو ما أدى إلى نشوب معارضة لدى رجال دين الإله مردوخ. تعرض سكان بابل إلى مآزق اقتصادية وانتشار الأوبئة والجوع. وأخذ الناس يلقون باللوم على الملك إضافة إلى امتعاض رجال الدين الذين عبروا عن عدم رضاهم عن غياب الملك الطويل وتقصيره الكبير تجاه الإله مردوخ. وهكذا تعقدت الأمور تدريجياً حيث نمت في المدينة مجموعة مؤيدة للفرس.

غير أن خطراً كبيراً كان يترصد بابل، فعندما كان نبونيد يقيم في الجزيرة العربية، باشر قورش ملك الفرس والميديين (نحو 540 – 530 قبل الميلاد) بعد سلسلة من الانتصارات بوضع ركائز إمبراطورية أخمينية جديدة.

رفض نبونيد سياسة قورش التوسعية باتجاه الغرب رغم كونه حليفه في السابق. لذلك عقد تحالفات مع دول الشرق الأدنى مثل ليديا في الأناضول، لكن عاهل هذه الدولة "كريسوس" تعرض إلى الهزيمة ووقع في الأسر بيد قورش عام 546.

تروي القصة المذكورة في الكتاب المقدس تحت عنوان "وليمة بالتصر" بأن سقوط بابل كان قد تم الإعلان عنه خلال فترة وصاية بالتصر (بيل – شار – أوزور). إذ ظهرت أصابع يد رجل أثناء وليمة كبرى كان قد أعدها الأمير لرجاله الكبار ولزوجاتهم، ورسمت كلمات معينة على جبس جدار القصر. أسرع بالتصر الذي أصابه نوع من الاضطراب بأن يطلب من المتنبئين ومنجمي القصر أن يقرؤوا محتوى هذه الكتابة لأنها كانت مبهمة بالنسبة له، ولم ينجح أيا منهم في قراءتها. طُلب عندئذ من دانيال، أحد الأسرى الذين كان نبوخذ نصر قد جلبهم من دولة يهوذا أن يفسر لهم معنى الكتابة، فقام بشرح معنى الكلمات. إنها تنبئ وتدل على أن زمن بقاء الإمبراطورية البابلية أصبح معدوداً، ووُزن الملك في الميزان فظهر خفيفاً، وبسبب انقسامات المملكة أصبحت بمتناول يد الميديين والفرس. 3

فهل يا ترى خُتم مصير الإمبراطورية؟ باشر نبونيد اعتباراً من سنة 540 وبأسرع وقت ممكن بجمع تماثيل آلهة بابل في عاصمته لحمايتها في معبد مردوخ بعيدة عن يد الفرس، لكن لم يتوفر له الوقت الكافي لتحضير الدفاع عن المدينة.

وفي خريف سنة 539، تمكن قورش على رأس جيشه الذي كان قد وصل إلى أعلى قدرة هجومية بعبور وادي نهر ديإلى أحد روافد نهر دجلة، واخترق منطقة بابل التي أراد إخضاعها لسلطته. وتروي قصة نبونيد تسلسل الأحداث ومعركة أوبيس حيث انتصر فيها الفرس على الجيش البابلي، كما تروي كيفية الاستيلاء على مدينة سيبار بتاريخ 14 تشرين عام 539 وهروب نبونيد.

وفي الوقت الذي كان جيش قورش يواجه الجيش البابلي الذي حاول أن يقطع طريقه نحو الجنوب، توجهت قوات فارسية صغيرة بجرأة نحو مدينة بابل وتقدمت باتجاه المدينة، فلاحظ جنود الفرس من مسافة بعيدة وهم مندهشون، أسوار بابل الشاهقة وزقورتها العالية التي بدت وكأنها تداعب شمس الشرق الساطعة. كانت هذه الاسوار وزقورتها التي يصل ارتفاعها إلى ما يزيد عن 80 متراً والمتوجة بمعبد ملتحف بالآجر المطعم بميناء أزرق لامع. تعرضُ الزقورة منظراً بديعاً وكأنها تؤطر السماء بطوابقها السبعة المتتالية. ظهرت أمام هؤلاء الجنود قرى المدينة المحيطة بها ممتلئة بغابات نخيلها وحقولها الخضراء وحدائقها المغروسة بأشجار النخيل والتين والرمان والخضروات. وشاهدوا نباتات البصل والكراث والشجر واللفت والبطيخ وغيرها من النباتات العارمة التي لم تألفها عيونهم وجعلتهم منبهرين بها غير مصدقين أعينهم.

كان من المفترض أن يقوم "أكبارو"، قائد منطقة غوتيوم إحدى مقاطعات الإمبراطورية البابلية في شرق نهر دجلة، بقيادة الجناح الأيسر للجيش البابلي، لكنه اتخذ موقفاً معارضاً على رأس الممتعضين من سياسة نبونيد، ولم يتردد من الانضمام والخضوع إلى قورش. وكما تذكر التقاليد، فقد اجتاح أكبارو والجنود الفرس مدينة بابل عبر حوض نهر الفرات واستولوا عليها مباغتة بدون أي قتال ولا سفك

للدماء. وبعد يومين تم احتلال مدينة سيبار أيضاً، بتاريخ 16 تشرين الأول سنة 539.

فهل يا ترى تعرض بيل — شار — أوزور إلى القتل من قبل الفاتحين الجدد في قصره الذي لم يتمكن من الدفاع عنه وعن نفسه؟ علم نبونيد بسقوط بابل، فتقدم نحوها لحمايتها، ولكن تم القبض عليه ووضع في الأسر. وبعد أسبوعين من الاحتلال وفي اليوم الثالث من شهر أرامسمانو (29 تشرين الأول) استقبل البابليون وكهنتها الذين كان تعلقهم بنبونيد ضعيفاً، الملك قورش بنوع من التعاطف، ونُصب أكبارو حاكماً على المدينة.

فهل تم تنفيذ حكم الإعدام بنبونيد أو هل - حسب الروايات اللاحقة - تم إرساله إلى المنفى في منطقة كارميني الواقعة في شرق الإمبراطورية الإخمينية للقيام بإدارة إحدى مدنها؟

يا نبونيد ملك بابل، مهما كان مجدك كبيراً ومهماً وأعمالك وإنجازاتك رائعة؛ لا تنتحب عليها، إذ إن الفرح والانتصار لا يدومان طويلاً على الأرض. ها هي ثروتك قد تهاوت وها هي طموحاتك السياسية والدينية قد أصابتها الخيبة. سقطت مدينتك البديعة التي فاقت عظمتها كافة المدن الأخرى.

تسقط أسيراً في أيدي الفرس ولم تعد سوى رجل مسن مخذول مهزوم، مرهق ومغمور في هول مصابك وفي شدتك المؤلمة. لم يبق لكَ سوى شجاعتك. فما هو مصيرك المنتظر؟

هل علمت بأن قورش سيكون رؤوفاً بحقك. فما عليك إلا أن تتصرف تصرف العاهل الفخور بنفسه. ولا يجوز لك، قبل أن تقضي مصيرك أو تغادر إلى المنفى أن تنتحب، بل عليك أن تلقي نظرة الوداع على مدينة بابل وتسلم عليها.

من سوف يحتفل بذكراك؟ لقد كنت عاهلاً أصيلا، مستقلاً، تقياً، زاهداً ومتعلقاً بالماضي. لأنه حسب المصادر التاريخية

والجغرافية البابلية، كنت ملكاً عادلاً، لكن هناك مصادر أخرى تعود إلى عصر الإخمينيين، تقول إنك كنت عاهلاً غير جيد، قليل التقوة وبدون اتّزان.

بابل في زمن الإخمينيين والهيلينين

هناك كتابة مسمارية طويلة منقوشة على أسطوانة من الصلصال، تروي بأن قورش صرح قائلاً: إن الإله مردوخ هو الذي أمره بالتوجه نحو بابل ولهذا السبب قام بمسح صورة واسم نبونيد من كافة المعابد. وحافظ على معبد مردوخ المشهور "إيزاجيل" وعبّر عن احترامه لآلهة بابل التي كان الملك المخلوع قد جمعها في معبد مردوخ للحفاض عليها، حيث مكثت سالمة قبل أن تعود إلى مدنها الأصلية. كما أن قورش أصدر أمراً بالسماح لليهود الذين كان نبوخذ نصر قد سباهم بالعودة إلى أرض أجدادهم، بعد أن اكتشفوا حضارة بلاد الرافدين ومدنها وثرواتها وأعمالها المتقدمة وحتى ملائكتها وشياطينها.

بقي أمام قورش الذي حافظ على بابل، أن يكتشف الجمال الأخاذ الذي حملته مدينة نبوخذ نصر ونبونيد الفرية، لكنها فقدت مكانتها كعاصمة للإمبراطورية البابلية. أمر قورش بالحفاظ على كامل فخامتها المشهودة، وقام بتشييد قصر في ربوعها وترسانة أسلحة.

وهكذا خضعت إمبراطورية نبونيد للحكم الفارسي، ولكنها احتفظت بنظامها الإداري وقوانينها الخاصة بها، وبأعمالها التجارية وطريقة عيشها ومعتقداتها الدينية.

ولم يخمد بريق الثقافة البابلية بالرغم من خضوعها للسيطرة الفارسية، فقد نشر الفرس الإخمينيون باتجاه الشرق معارف الكلدانيين ومبادئ التنجيم.

وقد استعار الإخمينيون من البابليين منذ عام 500 قبل الميلاد، فنّ تشييد المباني الفاخرة وتزيينها، واستعملوها لمنح عاصمتهم سوسة وقصر الملك داريوش أبهة.

مرت عجلة الزمن، توجه الإسكندر المقدوني (356 – 323 قبل الميلاد) بعد أن احتل سوريا وفينيقيا ومصر نحو بلاد الرافدين واجتاز نهري الفرات ودجلة وانتصر على داريوش الثالث، ملك الفرس في منطقة غوغاميليس (بالقرب من أربيل) عام 331. واستمر في تقدمه الخارق الذي أوصله إلى بابل، فأخضعها لسيطرته ودخل إليها منتصراً عبر طريق مزين بمعابد ومفروش بتيجان من الزهور. ويروي مؤرخ سِيَر الشخصيات التاريخية، اليوناني المشهور بلوتارك (حوالي 46 – 125ميلادية) في كتابه المعروف *"حياة إسكندر الكبير"* وهو جزء من موسوعته المشهورة *"حياة الرجال المشهورين"*، كيف نشر سكان بلاد بابل النفط لإضاءة الشارع الذي مرّ به إسكندر الكبير، وكان مقرراً أن يسكن في أحد قصور المدينة. فقاموا بإضاءته وأناروا أرجاءه بالنيران التي أعطت مشهداً منيراً ومستمراً، فانبهر الفاتح الشاب.

مكث إسكندر في بابل شهراً كاملاً قبل أن يتوجه إلى مدينة سوسة في بلاد فارس "برسيبوليس" وإلى الهند. اصطحب معه في جولاته الحربية الكهنة البابليين لممارسة أعمال التطهير، وكان معجباً بهم (حياة الإكسندر الكبير، LXIV, XCVI).

عاد إسكندر الكبير إلى بلاد الرافدين في ربيع سنة 323، عازماً على جعل بابل عاصمة لإمبراطوريته، وعلى إعادة تعمير معابدها والعيش كملوكها في حكمهم الزاهي. ولكن الكهنة الكلدانيين نصحوه عندما اقترب من أبواب المدينة بعدم الدخول إليها ثانية لكنه رفض النصح، وتروي المصادر التاريخية بأنه توفي في بابل بشكل مبكر بتاريخ 13 حزيران من تلك السنة.

في نهايـة العهـد الهيلـيني، تطـرق المـؤرخ اليونـاني المعـروف ديودوروس الصقلي (حوالي سنة 90 – 20 قبـل المـيلاد) في تأليفـه الشهير "مكتبة التاريخ" إلى أحداث تاريخ العالم منذ بدايته لغاية فتح بلاد الغول من قبل يوليوس قيصر الروماني. وتكلم في كتابه عن علمـاء الفلك والمنجمين الكلدانيين قائلاً، إنهم لا زالوا يزهون في معارفهم.

لنترك الكلام لمؤرخنا:

"إن الكلدانيين الذين هم من أقدم البابليين، لهم مكانتهم في تنظـيم الدولة، مثل المكانة الـتي يزاولهـا الكهنـة المصـريون. إنهـم في خدمـة الآلهة.

أجل، يكرسون حياتهم للفلسفة، ويتمتعـون بشـهرة كيـبرة في علـم الفلك" 4

استمرّ الكتّاب البابليون في ممارسة مهنة تعليم لغات بلاد الرافدين في العديد من مراكز البلـد وفي نشـر الكتابـة المسـمارية. يحمـل الـنص الأخير للكتابة المسمارية، تاريخ فجر عصرنا.

هوامش الفصل الثامن:

1- انظر: غلاسنير (J. J. Glasner تواريخ بلاد الرافدين (Chroniques mésopotamiennes).

2- ترجمة ليو أوبينهايم (A. Leo Oppenheim) من كتابة، (Ancient Near eastern Texts relating to the Old testament، Press، 1950، مذكورة من قبل غراند بيار (V. Grandpierre)، تاريخ بلاد الرافدين (Histoire de la Mésopotamie)، دار غاليمار، ص 171.

3-انظر: الكتاب المقدس، كتاب دانيال، القرن الثاني قبل الميلاد، الفصل 5، 26- 28.

4- ديودوروس الصقلي، ولادة الآلهة والرجال (Naissance des dieux et des hommes)، ترجمة أم كاسفيتس (M. Casevittz)، باريس، منشورات الآداب الجميلة، (Les Belles Lettres)، 1991، الجزء XXIV، ص 154-155.

الفصل التاسع

نساء شهيرات

أردتُ أحياناً كثيرة الغوص في أعماق النصوص القديمة لاكتساب شيء من المعرفة. لقد كانت عبادة الآلهة الكبرى في بلاد سومر وفي بابل ونينوى مألوفة للغاية. كان السومريون يكرِّمون خاصة "إنانا" آلهة الحب و"نينجال"، قرينة الإله القمر "نانا" ويعظمون أيضاً "نيسابا"، آلهة النباتات وفن الكتابة. وكان البابليون يعبدون أيضاً "غولا"، آلهة الشفاء، أما الأشوريون فكانوا يقدسون عشتار النجمة الشهيرة آلهة الحب والحرب.

في بلاد الرافدين، سواء أتعلَّق الأمر بآلهة أو بملكة أو كاهنة وحتى خادمة، فهنّ جميعاً يتمتّعنَ بتاريخ خاص بهن وبأمجادهنّ.

كان الزواج بالنسبة للملوك، يشكل تحالفاً سُلالياً يؤدي إلى توثيق العلاقات القائمة مع الممالك الأخرى. لقد كان الملوك يطبقون نظام تعدد الزوجات، فكانت تلك الزوجات العديدات هُنّ "نساء القصر". يسري هذا النظام خصوصاً على الملكة أُم وريث العرش، التي كانت تأتي بالدرجة الأسمى وتأتي بعدها زوجات الملك الأخريات، إنهنّ

سيدات القصر. جميعهنّ يعشن في القصر الملكي، حسب نظام متدرج في الرتبة ويخضعنَ لقوانين البلاط، موطن الأسرار الخاصة والدسائس.

لا يجوز القول إن مكانهن في البلاط كان شبيهاً بالحريم العثماني. إذ كانت النساء المهمات يتمتّعنَ بحرية الخروج من القصر لأداء خدمات العبادة أو بممارسة الشعائر الدينية السائدة، والاهتمام بطقوس الفأل والتكهن.

واصلتُ جولتي عبر حياة النساء المعروفات اللواتي لم يلعبن دوراً هاماً على المسرح السياسي في بلاد الرافدين، ووجدتُ أن البعض منهن شكلن استثناء من هذه القاعدة، مثل الملكة الآشورية سامورامات (زاقوتو) أو أدادا ـ كوبي والدة نبونيد.

سامورامت

كانت هذه الملكة الآشورية زوجة الملك شمشي ـ أدادا الخامس (823-811 قبل الميلاد) وأم الملك الآشوري أدادا ـ نيراري (810-783 قبل الميلاد)، قد مارست الوصاية على العرش خلال فترة شباب ابنها. وكان اسمها منقوشاً على واجهة مسلة قامت بنصبها هي شخصياً في بلاد آشور، وتم العثور عليها عام 1909 عند إنجار أعمال تنقيب قام بها عالم الآثار الألماني والتر أندراي Walter Andrae.

تقول المسلة:

"مسلة سامورامت، سيدة قصر شمشي ـ أدادا، ملك العالم وملك بلاد آشور، أم أدادا ـ نيراري، ملك العالم وملك بلاد آشور، زوجة ابن شلمنصر، ملك الجهات الأربعة." 1

ألهمت شخصية سامورامت الكتاب الإغريق، تأليفَ أسطورة سميراميس المشهورة، التي جمع فصولها الطبيب اليوناني المعروف كتزياس والتي نقلها بعدئذ المؤرخ اليوناني ديودوروس الصقلي.

ملكات نمرود المغطاة بالحلي

عثر العلماء العراقيون للآثار في مدينة نمرود (كالح) في شهر نيسان من سنة 1989 على تابوت منسوب إلى أميرة آشورية احتوى على حلي من الذهب: نجوم ورود وأختام أسطوانية وأوعية مزينة ومطعمة بكتابات تذكر اسم "يابايا" زوجة الملك تقلات ـ فالاصار الثالث، واسم "بانيتو" زوجة الملك شالمنصر الرابع، واسم "تاليا" زوجة الملك سرجون الذين حكموا بلاد آشور من سنة 745 إلى سنة 705 قبل الميلاد.

كما عُثِرَ على قبر آخر بعد فترة قصيرة من الاكتشاف الأول، وهو القبر الذي ربما كان عائداً إلى الملكة "موليسو"، زوجة آشور ناصربال الثاني (883–859 قبل الميلاد). ولم يضم هذا القبر هيكلها العظمي، ولكنه احتوى ثلاثة توابيت من البرونز والعديد من الحلي والأدوات الذهبية.

زاكوتو، زوجة الملك سنحاريب

لعبت امرأة معروفة، تحت اسم "نقية" باللغة الآرامية و "زاكوتو" باللغة الآشورية، دوراً سياسياً هاماً في بلاط نينوى. كانت زاكوتو هذه زوجة ثانية لسنحاريب، سيدة قصر سنحاريب (704–681 قبل الميلاد) وأم أسرحدون (680–669 قبل الميلاد) لفترة طويلة. ولكنها حازت مكانةً هامة عندما تم اختيار ابنها، بفضل تأثيرها القوي، ليصبح الأمير الوريث للمملكة. لعبت عندئذ دوراً أساسياً إلى جانب أسرحدون الذي أصبح ملكاً فيما بعد. لقد منحها اهتماماً خاصاً وكان يصغي إليها بانتباه كبير، ومن مدينة نينوى كانت تنبهه بقراءة مجرى الأحداث.

ثمة تمثال يعرض صورة زاكوتو وكان قد تم نصبه لها في أحد المعابد، ويحمل كتابة منقوشة تشير إلى أحد أمراضها.

كما يمكن رؤية زاكوتو، منقوشة مع ابنها على صُفيحة برونزية (آتية من هيكل معبد أو عرش) وهي تحتفل بإعادة تعمير مدينة بابل. تظهر الملكة وهي تسير خلف الملك، حاملة مرآة في يدها، ويُخفض بواسطة عود كل منهما أنفه بتواضع (في متحف اللوفر).

عند وفاة الملك أسرحدون، أصبح الموقف غير مستقر في بلاد آشور، وتمكنت زاكوتو بفضل شخصيتها القوية، من فرض حفيدها آشور بانيبال (668–627 قبل الميلاد) على رجال الدولة الكبار، وهو الذي اختاره أسرحدون سابقاً ملكاً ووريثاً من بعده، وطلبت منهم أن يؤدوا القسم أمام الملك الجديد، لمواجهة احتمال تمرد الأمراء المبعدين عن السلطة:

"معاهدة زاكوتو، ملكة سنحاريب ملك آشور، أم أسرحدون ملك آشور، مع: شمش ـ شوم ـ أوكين، أخيه ومساويه، ومع شمش ـ موتو ـ أوباليت وباقي أخوته، ومع النسل الملكي.

وأيضاً مع الرجال العظام والحكام والحاشية والخصيان والمقربين للملك، ومع الضباط وكافة الأشخاص الذين يدخلون إلى القصر مع الآشوريين، الكبار منهم والصغار:

كل شخص مذكور (تم ذكره) في هذه المعاهدة، التي أبرمتها الملكة زاكوتو مع كامل الأمة، المتعلقة بحفيدها المفضل آشوربانيبال، يقوم بعمل شنيع ورديء أو يشن تمرداً ضد سيدنا آشوربانيبال ملك آشور، وكل شخص يصمم في قلبه أو يخطط لمشروع أو مؤامرة شنيعة ضد سيدنا آشوربانيبال ملك آشور، وكل شخص يعتزم في قلبه ويصيغ اقتراحاً سيئاً ومخططاً رديئاً بهدف التمرد والثورة ضد سيدنا آشوربانيبال، ملك آشور، أو مؤامرة مع شخص آخر [...] عليه أن يخبر زاكوتو أمه وسيدكم آشور بانيبال ملك آشور." 2

حُفظت هذه المعاهدة على لوح عثر عليه في مدينة نينوى وهو موجود اليوم في المتحف البريطاني.

لعبت زاكوتو، بوصفها ملكة أمّاً، دوراً سياسياً هاماً في الإمبراطورية الآشورية.

كما أن الملكة آشور ـ شورات، زوجة آشوربانيبال، تظهر هي الأخرى مع زوجها في لوحة منحوتة مشهورة حملت اسم، "الاستراحة تحت الكرم."

أدادا - كوبي

مازال صوت أدادا ـ كوبي (649-547 قبل الميلاد)، أم نبونيد ملك بابل، يرتفع من مسلة مودعة في معبد الإله سين إله القمر في مدينة حران حيث نُقشت عليها الكتابة التالية:

"أنا أدادا ـ كوبي، أم نبونيد ملك بابل، عابدة الآلهة سين ونينجال ونوسكو وسادارنونا آلهتي، لقد التجأت دوماً إلى هذه الآلهة منذ طفولتي."

ولدت أدادا ـ كوبي عام 649، في السنة العشرين من حكم آشوربانيبال، وربما تنحدر من أصل آرامي. كانت "امرأة ورعة وتقية" تجاه الإله سين إله القمر، وكانت تمنحه عبادة وتقوى، كما أنها نقلت ورعها هذا إلى ابنها نبونيد. ويبدو أنها ذهبت إلى بابل، عندما سقطت مدينة حران عاصمة الآشوريين الأخيرة بيد الميديين عام 610، وأقامت في البلاط ونالت على رتبة عالية واسم كبير بالإضافة إلى ممارسة تأثير كبير فيها. وهكذا، ساعدت صعود ابنها لكي يصبح ملكاً، وتم تنصيبه على العرش عن طريق ثورة حصلت في القصر الملكي. ولا بد أنها رافقته في الحكم، مقدمة له نصائح قيمة لممارسة مهنته الصعبة.

توفيت أدادا ـ كوبي في اليوم الخامس من شهر نيسان حوالي سنة 547، بعمر بلغ حوالي مائة سنة في مدينة دور كاراشو الواقعة على

شاطئ نهر الفرات، في أعالي مدينة سيبار. وسبَّبت وفاتها وقعاً كبيراً على ابنها وجنوده الذين أعلنوا الحداد عليها مدة ثلاثة أيام كاملة.

وكان نبونيد – المعروف بتعلقه تعلقاً كبيراً بأُمه التي أثرت فيه تأثيراً هاماً– يقيم عند وفاتها في مدينة تيماء ولم يشارك في تشييع والدته، بل ترك الأمر لابنه الأمير بيل ـ شار أوزور، فقام الأمير بمراسيم الحداد عليها مع جنوده مدة ثلاثة أيام.

الكاهنات الكبيرات

بعض النساء المنتميات إلى الطبقة الملكية أو المنحدرات من أُسَر غنية كنّ مكرسات من قبل والدهنّ لأحد الآلهة، بغية جذب عطف السماء للدولة.

أين ـ هيدو ـ أنا:

عيّن سرجون الأكادي (2334 –2279 قبل الميلاد) ابنته للقيام بدور الكاهنة الكبرى لإله القمر "نانا" في مدينة أور. وقد اتخذت هذه المرأة الشابة الاسم السومري "أين ـ هيدو ـ أنا" وعاشت بعفة في باحة المعبد وأنجزت رسالتها بتلهف.

ويمكن رؤيتها مُصوّرة على قرص نذري مصنوع من حجر الكالسيت (في متحف مدينة فيلادليفيا الأمريكية)، تم العثور عليه في مدينة أور وهي تشارك في مراسيم تقدمة القرابين إلى الإله نانا. يعرض هذا القرص الكاهنة وهي واقفة مرتدية ثوباً عريضاً، رافعة يدها خلف الكاهن الذي يقيم شعائره الدينية في الهيكل، وتتبعها خادمتان. كما يعرض القرص في ظهره كتابة تبين الألقاب الراقية الممنوحة لها بصفتها الكاهنة الكبرى وقرينة الإله نانا وابنة الملك سرجون. ويسطع بين شفتي الكاهنة أين ـ هيدو ـ أنا، اسم الآلهة "إنانا ـ عشتار" ملكة السماء والآلهة الحامية لمدينة أكد، عاصمة الإمبراطورية الأكّادية.

وكُرّس لها نشيد ديني جميل. حررتْ كمؤلفة بارعة ست قصائد شعرية مكتوبة باللغة السومرية وألّفت مجموعة أناشيد لمعابد سومر، وقد أعيد نسخها مراراً.

أين ـ نيغالدي ـ نانا:

دامت العادة الطقسية المتمثلة في تخصيص بنت كاهنة لخدمة المعبد قروناً عديدة، ثم تعرضت إلى الإهمال تدريجياً. على أن نبونيد أعاد الحياة لهذا الطقس مجدداً، فقام في القرن السادس قبل الميلاد بتنصيب إحدى بناته باسم سومري، إين ـ نيغالدي ـ نانا، بصفة كاهنة كبرى لمعبد الإله نانا (سين) في مدينة أور.

كما أعاد نبونيد تعمير الزقورة التي كانت قد تعرضت إلى الخراب، وفي أعلى قمتها كان معبد "إي ـ جيبار"، حيث الغرفة المقدسة والمكان الذي كانت تجري فيه الطقوس الدينية. واكتشف عالم الآثار الإنجليزي ليونارد وولي Leonard Woolley أثناء إنجاز التنقيبات الأثرية في مدينة أور تحت معبد إي ـ جيبار، "متحفاً" صغيراً يحتوي بضعة أغراض قديمة، ومنها قطعة باقية من تمثال الملك السومري شولجي (2094-2047 قبل الميلاد) ومخروط من الصلصال لملك لارسا ونصب كيشي يعود تاريخه إلى سنة 1400 قبل الميلاد وكتابة نذرية تعود إلى ملك أور "أمار ـ سين" (2046-2038 قبل الميلاد).

نساء كاتبات

نظراً لانتشار الكتابة في مجتمع بلاد الرافدين، لجأت بعض من نساء البلد إلى ممارسة مهنة الكتابة. ويمكن أن نجد أن مجموعة من الألواح محررة من قبل النساء.

وصل عدد الكاتبات في مدينة سيبار، المدينة المكرسة إلى إله الشمس شماش، خلال النصف الأول الممتد من القرن التاسع عشر إلى

القرن السابع عشر قبل الميلاد، إلى حوالي عشرين كاتبة. ومن بينها "إينانا ـ أما ـ مو"، المرأة الكاتبة التي عملت في ذلك الزمن في مدينة سيبار، وعُثِر على تسعة عشر لوحاً مكتوباً على يدها، تتطرق إلى مواضيع الشراء أو تأجير الحقول.

وهناك لوح عثر عليه في نفس الموقع يعود تاريخه إلى سنة 1765 قبل الميلاد ينهي قائمته باسم سيدة كاتبة، وهي "أمات ـ بو".

كما أن الأميرة شيماتوم، ابنة الملك زيمري ـ ليم (1780-1759 قبل الميلاد) من مدينة ماري، كانت لديها كاتبة تعمل عندها وهي "شيما ـ إيلات".

وفي الوقت نفسه، تذكر ملفات أرشيف القصر الملكي في منطقة تل شاغار بازار اسم "آبي ـ ليبورا" التي عملت كاتبة في القصر هي الأخرى.

وهكذا احتفظت ليالي الأزمنة الغابرة بأسرار تلك النساء.

هوامش الفصل التاسع:

1-انظر: مقال (روو G. Roux)، سميراميس، ملكة الشرق الغامضة (Sémiramis)، la reine mystérieuse de l'Orient .
مجلة التاريخ (L'Histoire)، العدد 68، 1984، ص 28

2-المعاهدات والقسم في الشرق الأدنى القديم (Traité et Serments dans le Proche-Orient ancien)، تقديم جاك بريند، دار سيرف (Le Cerf)، ملحق من دفتر الإنجيل (Cahier de l'Évangile)، باريس العدد 81، ص 83، 84.

الفصل العاشر

التراث والآفاق

حضارة بلاد الرافدين

عرفتْ بلاد الرافدين على مرّ العصور تمازجاً واختلاطاً فريداً بين شعوب متعددة وثقافات متنوعة، فأغنتها بدون شك في مسيرتها الإنسانية.

ولطالما وجه أبناء بلاد الرافدين القدماء الأسئلة لأنفسهم للحصول على أجوبة: عن خلق الكون ودور الآلهة ومصير الإنسان وعن أسرار الحياة والموت. طوروا الزراعة والحياة المدنية وتنظيم الدولة واختراع الكتابة وممارسة القانون. وحرروا المؤلفات الأدبية الكبرى واهتموا بالفن، وفي الوقت عينه وسّعوا معارفهم في علم الفلك والطب وتبنوا تقنيات فكرية في العرافة لحماية الملك والدولة.

كانت شعوب الشرق تراقب العالم الذي تعيش فيه. وهي تنوي وترغب القيام بوضع نظام فيه، وباستيعاب أبعاده العميقة. أنتجت هذه الأقوام على امتداد الأزمنة "علماً" على شكل قوائم في مواد

النباتات والأمراض والتنجيم...الخ. وأنشات جداول في الحقل الفلكي والرياضي. وتمكنت شعوب بلاد الرافدين، بفضل قوة تفكيرها من إنجاز الخطوات الأولى في السياق العلمي وفي التنظيم العقلاني للفكر، الذي اقتبسته منها بلاد اليونان وطورته فيما بعد. على أن هذه الأقوام كانت تحاول منح الأولوية للأسطورة الساطعة كمصدر لبعض أجوبتها، ولخيالها. ومع ذلك، أنشأت حضارة مبنية على واقع الحياة والعالم كما هو، لأنها اقتنعت بعدم وجود شيء وراءه.

مجتمعات وملوك

بالنسبة لشعوب بلاد الرافدين، كانت الملكية النازلة من السماء، تشكل الطراز الوحيد للحكم في عالمهم. وكان الملوك يعتبرون أنفسهم وكلاء للآلهة على الأرض، ولهم مكانة رفيعة لدى رعاياهم وشعوبهم. وكان من واجبهم أيضاً، أن يتحملوا المسؤولية أمام الآلهة إن لم يتقيدوا باحترامهم ورعاية شعبهم.

عاش هؤلاء الملوك وسط مجتمعات أظهرت أن المعرفة لديهم كانت تشكل عاملاً أساسياً للتطور. إنها مجتمعات مبنية على نظام مدني وأبوي وتقليدي ورتبي، حافظوا على قواعدها الاجتماعية والاقتصادية التي يعود تاريخ إنشائها في بعض الأحيان إلى الألفية الثالثة. عاش ملوك بلاد الرافدين وترفهوا وهم محاطون بالحاشية والكتبة والخدم والجنود والنساء والأطفال، وتمثلت مهمتهم الأساسية في الحفاظ على النظام والتوازن الذي ترتكز عليه ممالكهم.

خضعت هذه المجتمعات مبكراً لنظام القوانين، ولكن هذه القوانين لم تشمل دائماً مجمل الحالات الموجودة على الواقع. في الكثير من الأحيان، تعرضت مصالح وحقوق الأفراد إلى الانتهاك أمام مصالح المجموعات الاجتماعية العالية.

ما المكانة التي احتلها الإنسان في مثل هذه النظم الملكية الشرقية؟ بصورة عامة، كان الإنسان يعيش خاضعاً وذليلاً تحت إرادة وسلطة الآلهة، ولم يكن إلا خادماً بسيطاً لها.

ووجد الإنسان نفسه أيضاً، مضطراً إلى أن يكون مطيعاً طاعة مطلقة للملك، وخاضعاً للتقاليد والعادات المتوارثة عبر الأزمنة.

وأخيراً جاء عهد الإغريق، فاقتبسوا كافة المعارف التي كانت سائدة آنذاك، من بلاد الرافدين ومن مصر، واعتنوا بها وطوروها بعبقريتهم الخاصة، وبحثوا عن أفكار جديدة خلف وخارج الأساطير القديمة والصور الشرقية. ونمت قدرتهم على الاستنباط والتحليل، وحاولوا شرح الظواهر الطبيعية وتقديم التفسير العقلاني والطبعي لها، بدون الرجوع إلى الطرق الروحانية وإلى الآلهة. وتساءلوا عن مصدر الأشياء وأسسها ومستقبلها.

وهكذا أخذ الفكر الهيليني الحديث واليافع مساراً جديداً، وارتقى شيئاً فشيئاً ليصل إلى العقل المطلق وجُعِلَ معياراً للبحث عن الحقيقة.

الخاتمة

وهكذا انتهت هذه الجولة الفاتنة التي نقلتني من سومر، حيث بدأت الإنسانية خطواتها الأولى نحو الحضارة وصولاً إلى بابل المدينة الراقية بمعالمها، ومروراً ببلاد آشور ومواقعها وأطلال آثارها الشامخة عبر السنين.

لقد اقتفيت طريق الماضي مع هذه الشخصيات الشهيرة التي صنعت تاريخ وحضارة بلاد الرافدين، رجال عظام شدّوا قبضاتهم على الحكم وسيطروا على زخم الأحداث وحاولوا إنشاء إمبراطوريات، وأرادوا توجيه مسار التاريخ وتغيير العالم. إنهم يشكلون اليوم جزءاً لا يتجزأ من ماضينا الكبير.

بدون شك، كان لكل عاهل طبيعته وأوضاعه وقصة تختلف عن قصص الآخرين، إلا أن ما يميزهم جميعاً، يتمثل في القريحة السياسية والعسكرية وبراعة إبراز ألقابهم وخصالهم وطموحهم وطاقتهم، وتعطشهم إلى الانتصارات والإيمان بنجمة تفاؤلهم.

لم يكن ملوك سومر وأكد وبابل وآشور الذين ذكرتهم المصادر المكتوبة وعرضت رسومهم المنحوتة، ملوكاً طغاةً أو مستبدين شرقيين، رغم قسوة بعضهم، بل كانت نيتهم أن يطيعوا بتواضع الآلهة التي منحتهم الملوكية والذين كانوا يمثلوها على الأرض. وكان يتم تنصيبهم وتكريسهم عبر شعائر التتويج واستلام العرش من يد الكهنة العظام ونيل شارات السلطة والصولجان وعصا الحكم. لم يكن هؤلاء الملوك

كهنة ولكنهم كانوا يشاركون في العديد من الاحتفالات الدينية وينجزون بعض شعائر التطهير والخصوبة. وكانوا يأخذون سلطة الكاهن بعين الاعتبار، لأنه في بعض الأحيان كان قادراً على التدخل في الحياة السياسية.

وبصفتهم العواهل العظام أو الإداريين العادلين أو الرعاة المسؤولين عن شعوبهم، كان أولئك الملوك يتفاخرون برغبتهم في تحسين ظروف الحياة ومنح شعوبهم السلام والرفاهية ونشر السعادة بينهم. لقد أنجز ملوك بلاد الرافدين الأشداء والقادة المنتصرون واجبهم بالحفاظ على أراضيهم من الغزوات الأجنبية وعملوا على توسيع حدودها وأغنوها بفضل غنائم الحروب والضرائب.

لعب هؤلاء الملوك المقاتلون والأتقياء، من العصر السومري إلى العصر الآشوري الجديد والعصر البابلي الحديث، دور ملوك مشيدين عملوا على ترميم أو بناء المعابد والقصور، ومنهم من أنشأ مدناً وإمبراطوريات.

ساروا بجرأة نحو المستقبل ولم ينسوا الماضي الذي ارتبطوا به خلال مراحل عديدة. ومن بينها الشعائر والطقوس والاحتفالات القديمة التي مارسوها وحافظوا عليها، مثل يوم عيد أنكيدو لرأس السنة الجديدة وغيرها من المناسبات والأعياد الدينية أو الاجتماعية. إذا كان التطور يعبر عن الانتقال من الحياة البدائية إلى الحياة الحضارية ومن البادية إلى المدينة، يمثل فكرة ولدت وازدهرت على أرض الرافدين، مثل قصة البطل أنكيدو أحد شخصيات أسطورة جلجامش المشهورة، فإن هذا التطور لابد وأن يبقى مع ذلك أميناً ومخلصاً للأعراف المتأصلة.

كان معظم قادة بلاد الرافدين يرغبون بنشر العدالة، وعملوا على توجيه التطور الاجتماعي والروحي لكي يكون منصفاً للسكان. أولم يقم أور- نامو، في نهاية الألفية الثانية، بسن وكتابة قانونه المشهور؟

كما أن حمورابي ملك بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، قام هو الآخر بتنظيم قواعد حياة المجتمع بمنحه قانوناً لشعبه، فوضع نفسه حارساً عليه وطُبق خلال عصور كاملة. وتمكن حمورابي من توحيد بلاد الرافدين التي كانت مجزأة، عن طريق الكتابة المسمارية الساحرة، التي استعملها الملوك والحكام لفرض القانون وسن الشرائع على الجميع، وليس عن طريق التخويف.

وقد اختارت بلاد آشور، في القرن الثامن قبل الميلاد، نمط دولة أكّاد الساطعة (2335-2155 قبل الميلاد). لأنه عندما وصل سرجون الثاني إلى السلطة في نهاية شتاء عام 722 قبل الميلاد، منح لنفسه اسم مؤسس هذه السلالة وشيد قصراً وعاصمة جديدة ووسع إمبراطوريته.

واستعاد حكام بلاد آشور الذي خلفوه في الحكم استعمال الألقاب التقليدية التي كان نارام سين ملك أكد (2254-2218 قبل الميلاد) قد منحها لنفسه والمتمثلة في "ملك المناطق الأربع في العالم" و "ملك العالم".

أصّل هؤلاء الملوك الذين اشتُهروا بالبسالة في الحروب، تطبيق برنامج الحملات العسكرية والفتوحَات التي أنجزها أسلافهم، لإبقاء السيادة الآشورية المطلقة على المقاطعات البعيدة عنها، كما تبين ذلك نصوص حوليات التواريخ الغزيرة واللوحات المنقوشة. كانوا مقتنعين من خلال حملاتهم، بأن حضارة بلاد الرافدين تسمو على الأعمال البربرية والفوضى السائدة في المنطقة. أرادوا توحيد مختلف بلدان الشرق الأدنى تحت إدارتهم الوحيدة، وكان الحكام الخاضعين لهم يتمتعون بحق حمايتهم. كما أن ملوك بلاد الرافدين لم يمارسوا قط سياسة التمييز العنصري ضد الأجانب والغرباء. بل سمحوا للشعوب الخاضعة لسلطتهم والمُبعدة إمكانية الاحتفاظ بلغاتهم وأديانهم وتقاليدهم وعاداتهم.

أشار هؤلاء الملوك القديرون والصناديد، وعلى الرغم من ممارستهم السلطة المطلقة والحكم الثابت، إلى خصائص حكمهم، وكانوا يعملون على أن تشارك شعوبهم في حلمهم بالعظمة. ولم يترددوا في مشاركة شعبهم الاستمتاع بنغم الموسيقى أثناء الاحتفال بالانتصارات والتباهي بإنجاز أعمالهم. كما أنهم منحوا مكانة هامة للطبيعة وجمالها التي التأموا معها، ومنحوا أهمية كبرى للقيم الفكرية والفنية والاجتماعية. كان هؤلاء الملوك يعشقون الزخرفة ويبتهجون في ارتداء الملابس الجميلة المزينة بالحلي، ويتمتعون بحس جمالي رفيع. لقد زينوا القصور المشيدة بالآجر المطعم بألوان رائعة، مزخرفين جدرانها باللوحات المنقوشة وبالفرائز المزركشة. وهكذا أدخلوا شعبهم في نظام العالم بمنحه المجد الخالد.

وقد أصبحت بابل بأسوارها الرائعة وآثارها العظمى أجمل مدينة في العالم، إذ أثارت في حينها إعجاب جميع الشعوب.

كان نبونيد، آخر ملوك بابل، يتمتع برغبة دفعته للبحث عن التاريخ والمعالم، وإقامة علاقات وطيدة مع الماضي، حيث كان يستمد من أسلافه شرعيته. أحب الافتخار بأسلافه، وببصيرة واضحة كان ينوّه ويتطرق إليهم رغبة منه بتكريمهم وتعظيمهم لإنجازاتهم. فرح وابتهج عندما اكتشف في مدينة سيبار تمثال سرجون ملك أكد، فطلب حالاً إعادة ترميمه. وسوّى فرحاً الباحة المقدسة التي كان قد شيدها نارام ـ سين حفيد سركون في نهاية الألفية الثالثة قبل عصرنا، أي حوالي ألفي سنة قبل نبونيد.

هكذا ختمتُ جولتي وانتهيت من إقفال منفذ الدائرة المضيئة التي دخلتُ من خلالها إلى سِيَر حياة الشخصيات التي سادت بلاد الرافدين لفترة طويلة، وحاولتُ رسم صورها وأحلامها وأعمالها الخالدة.

جدول التسلسل التاريخي

العصر السومري (2650-2342 قبل الميلاد)

في جنوب بلاد الرافدين، توفرت خمس عشرة مدينة – دولة كانت كل منها خاضعة للإدارة من قبل ملك.

أوروك: جلجامش (حوالي 2650)

لكش: إياناتوم (حوالي 2454 – 2425)

لكش: أوركاجينا (حوالي 2351 – 2342)

أوروك: لوكالزاجيزي (حوالي 2342)

العصر الأكدي (2335- حوالي 2155 قبل الميلاد)

سرجون: (حوالي 2335- 2279)

نارام – سين (2254 – 2218)

العصر السومري الجديد (2112-2004 قبل الميلاد)

لكش: كوديا (حوالي 2141 – 2122)

أور الثالثة: أور – نامو (2112 – 2095)

شولجي (2094 – 2047)

إبي – سين (2028 – 2004)

الدويلات الأمورية: إسين (2017 – 1794 قبل الميلاد)

لارسا (2025 – 1764 قبل الميلاد)

العصر البابلي القديم (1894-1959 قبل الميلاد)
حمورابي (1792 – 1750)

العصر الكيشي في بابل (1595-1155 قبل الميلاد)

الفترة الوسيطة الآشورية (1366-934 قبل الميلاد)
شلمنصر الأول (1366 – 934)
توكولتي – نينورتا الأول (1244 – 1208)

الإمبراطورية الآشورية الجديدة (934-612 قبل الميلاد)
آشوربانيبال الثاني (883 – 859)
شلمنصر الثالث (858 – 824)
تيقلات – فلصر الثالث (745 – 727)
سرجون الثاني (722 – 705)
سنحاريب (704 – 681)
آسدون (680-669)
آشوربانيبال (668 – 627)
612: سقوط نينوى

الإمبراطورية البابلية الجديدة (609-539 قبل الميلاد)
نبوبوبولصر (625 – 605)
نبوخذ نصر الثاني (605 – 562)
نبونيد (556 – 539)

السيطرة الفارسية (539 – 331 قبل الميلاد)

خلاصة بالمصادر

* أندريه – سالفيني بي (B. André-Salvini)، بابل (Babylone)، سلسة ماذا أعرف (Que sais-je)، باريس، دار P.U.F

* بوتيرو جي (J. Bottéro)، ملحمة جلجامش، الرجل الكبير الذي لم يريد أن يموت (L'épopée de Gilgamesh, Le grand homme qui ne voulait pas mourir)، فجر الشعوب (L'aube des peuples)، 1992

* بوتيرو (J. Bottéro) ، دعوة إلى الشرق القديم (Invitation à l'Orient ancien)، دار دي سيو (Seuil)، 1992

* بوتيرو جي (J. Bottéro) و كرامير أس أن (Kramer S.N.)، عندما عملت الآلهة الرجل، أساطير بلاد الرافدين (Lorsque les dieux faisaient l'homme, Mythologie mésopotamienne)، باريس، دار غاليمارد (Gallimard) 1989

* بريند جي (J. Briend)، المعاهدات والقسم في الشرق الأدنى القديم (Traités et serments dans le Proche-Orient ancien)، ملحق من دفتر الإنجيل (Cahier de l'Evangile)، العدد 81، دار لي سيرف (Le Cerf).

* ثم دفاتر الإنجيل (Cahierd de l'Evangile)، حكمة بلاد الرافدين (Sagesses de Mésopotamie)، ملحق من دفتر الإنجيل، العدد 85، باريس، دار لي سيرف (Le Cerf).

* شاربان دي(D. Charpin)، القراءة والكتابة في بابل (Lire et écrire à Babylone)، باريس، دار P.U.F

* تـواريخ آشـور وبابـل (Chroniques d'Assyrie et de Babylone)، ترجمـة فـي شـيل (V. Sceil)، بونيـون أتـش (H. Pognon)، نشر دار باليو (Paléo)، 2011
* ديزهـايس جـي (J . Deshayes)، حضـارات الشـرق القديم (Les Civilisations de l'Orient ancien)، دار آرتو (Arthaud)، 1969
* وثائق عن الكتاب المقدس، الصلوات في الشرق القديم (Prières de l'Orient ancien)، دار لي سيرف (Le Cerf)، باريس.
* غـاريلي بـي (P.Garelli)، علـم بـلاد آشـور (L'Assyriologie)، سلسـلة ماذا أعرف (Que sais-je)، باريس، دار P.U.F 1964
* غلاسـنيرجي جـي (J.J. Glassner)، تـواريخ بـلاد الرافـدين (Chroniques mésopotamiennes)، بـاريس، الآداب الجميلـة (Les Belles Lettres)، 1993
* غرانـد بيـار فـي (V.Grandpierre)، تـاريخ بـلاد الرافـدين (Histoire de la Mésopotamie)، بـاريس، نشـر دار غاليمـارد (Gallimard) مجلد التاريخ، 2010
* أي كـي غريسـون (A.K.Grayson)، الكتابـات الملكيـة لـبلاد آشـور (Asyrian Royal Inscriptions)، هاروسـويتز وايرسـبادن (Harrasowitz, Wiesbaden)، 1976-1972
* هرودا بارتيل (Hrouda Barthel)، الشرق القديم (L'Orient ancien)، فرانس لوازير (France Loisirs)، باريس 1992
* هوو جـي أل (J.-L. Huot)، السـومريون (Les Sumériens)، دار إيرانس (Errance)، 1989
* جـوانيس أف (F Joannès)، بـلاد الرافدين فـي الألفيـة الأولـى قبل الميلاد (La Mésopotamie au 1er millénaire avant J. C)، باريس، دار أرمان كولان (Armand Colin)، 2000

* جـوانيس أف (F.Joannès)، قـاموس حضـارة بـلاد الرافـدين (Dictionnaire de la civilisation mésopotamienne)، بـاريس، دار ر لافون (R. Laffont)، 2001
* كراميـر أس أن (S. N. Kramer)، التـاريخ يبـدأ فـي سـومر (L'Histoire commence à Sumer)، دار آرتو (Arthaud)، 1957
* بلاد الرافدين (La Mésopotamie)، نشر تـايمس لايف (Times-Life)، أمستردام (Amsterdam)، 1995
* قانون حمورابي (Le code de Hamourabi)، دار لـي سيرف (Le Cerf)، باريس 1996
* ليفيك جي (J. Lévêque)، حكم بـلاد الرافدين (Sagesses de Mésopotamie)، ملحق من دفتر الإنجيل (Cahier de l'Evangile)، العـدد 85، دار لـي سـيرف (Le Cerf)، دي دي لوكينبيـل (D. D. Luckenbill)، (Ancient Record of Assyria and Babylonia)، شيكاغو، 1926-1927
* مارجيرون جي سي (J.-C.Margeron)، أبناء بلاد الرافدين (Les Mésopotamiens)، دار أرمان كولان (Armand Colin)، 1991
أس موسـكاتي (S.Moscati)، ملحمـة الفينيقـين (L'Epopée des Phéniciens)، دار فايارد (Fayard)، باريس 1971
* نـوغـايرول جـي (J. Nougayrol)، وأينـارد جـي أم (Aynard J.-M)، بـلاد الرافـدين (La Mésopotamie)، بـاريس، دار بلـود و غـاي (Bloud et Gay)، 1965
* بـارو أي (A.Parrot)، سـومر (Sumer)، "عـالم الأشـكال" (L'Univers des formes)، دار غاليمارد (Gallimard) 2007
* بـارو أي (A. Parrot)، سـومر (Sumer)، "عـالم الأشـكال" (L'Univers des formes)، دار غاليمارد (Gallimard)

* بيشو أي (A. Pichot)، ولادة العلم، 1، بلاد الرافدين، مصر (La naissance de la science, 1, La Mésopotamie, l'Egypte)، فوليو (Folio essais)، دار غاليمارد (Gallimard)، 1991

* صلوات الشرق القديم (Prières de l'Orient ancien)، وثائق حول الكتاب المقدس (Documents autour de la Bible)، دار لي سيرف (Le Cerf)، 1989

* جي بي بريتشارد (J. B. Pritchard)، (Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament)، برينستاون (Princetown)، 1969

* راشيه جي (G.Rachet)، قاموس حضارات الشرق القديم (Dictionnaire des civilisations de l'Orient ancien)، دار لاروس (Larousse)، 1999

* راوف أم (M.Roaf)، أطلس بلاد الرافدين والشرق الأدنى القديم (Atlas de la Mésopotamie et du Proche -Orient ancien)، دار بريبولس (Brepols)

* رو جي (G.Roux)، بلاد الرافدين (La Mésopotamie)، دار دي سيو (Seuil)، 1985

* روتين أم (M. Rutten)، بابل (Babylone)، باريس دار P.U.F، 1966

* إي سولبيرجير و جي آر كوبير (E.Sollberger et J. R.Kupper)، الكتابات الملكية السومرية والأكّادية (Inscriptions royales sumériennes et akkadiennes)، باريس، دار لي سيرف (Le Cerf)، 1971

* سومر (Sumer)، نشر تايمس لايف (Times-Life)، أمستردام (Amsterdam)، 1993

* فييرا أم (M.Vieyra)، الآشوريون (Les Assyriens)، دار دي سيو (Seuil)، 1961

فهرس المحتويات

المقدمة 5

القسم الاول: سومر، أكد وبابل 9

الفصل الأول 13

جلجامش، ملك أوروك

الفصل الثاني 23

إياناتوم، ملك لكش

الفصل الثالث 28

أوركاجينا، المدافع عن الضعفاء

الفصل الرابع 32

لوكالزاجيزي، ملك لدوبلات سومر

الفصل الخامس 35

سرجون، قوس وخاتم أكد

الفصل السادس 45

نارام – سين الباهر

الفصل السابع 58

كوديا، أمير لكش

الفصل الثامن 65

أور . نامو وإمبراطورية أور الثالثة

الفصل التاسع 75

شولجى، ملك أور الموسيقى
الفصل العاشر 87
إبى – سين، الملك واللؤلؤة
الفصل الحادي عشر 95
حمورابى، ملك القانون فى بابل
القسم الثاني: بلاد آشور وبلاد الكلدان 107

الفصل الأول 111
حكم مجيد، توكولتى – نينورتا الأول
الفصل الثاني 117
وجها آشور ناصربال الثانى
الفصل الثالث 134
سرجون الثانى، الملك المقاتل
الفصل الرابع 152
حدائق وإنجازات سنحاريب
الفصل الخامس 174
أسرحدون، الملك المنتبه
لعلامات السماء
الفصل السادس 192
آشوربانيبال الرائع
الفصل السابع 212
نبوخذ نصر ملك الدولة الكلدانية
الفصل الثامن 213
نبونيد، آخر ملوك بابل
الفصل التاسع 245
نساء شهيرات

الفصل العاشر 254
التراث والآفاق
حضارة بلاد الرافدين
الخاتمة 257
جدول التسلسل التاريخى 261
خلاصة بالمصادر 263

1001101493

تميّز أبناء الرافدين بإبداعاتهم المختلفة، فكانوا أول من اخترع العجلة وفنون إرواء المدن، وتنظيم الدولة بمعناه الواسع، وإنشاء الأنظمة الإدارية الأولى. كما كانوا السباقين في إدراج الإنسان داخل صفحات التاريخ باختراعهم الكتابة قبل حوالي 3300 سنة قبل الميلاد. وهم الذين طوّروا بكفاءة التقنيات والفنون والتجارة. لقد سنّوا وطبقوا القوانين والشرائع الأولى، ودوّنوا مبكراً الأساطير والصلوات والأشعار البطولية والغنائية. إنّهم مبتكرو علوم الفلك والتنجيم والطب.

لقد أعاد مُنقِّبو الآثار والعلماء والمؤرخون الذين عملوا منذ قرن ونصف بحماس بالغ، الحياة إلى الماضي الباهر لبلاد الرافدين، واكتشفوا أجزاء عديدة من الفخاريات الزخرفية والنقوش المنحوتة والأعمال الفنية، وفكّوا رموز الآلاف من الألواح الطينية المغطاة بالكتابات المسمارية، وقرؤوا الوثائق المحفوظة، ونصوص الأشعار البطولية والغنائية.

في ذلك الزمن، زمن السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين، زمن بلاد الرافدين الزاهي، كانت تتموج سنابل القمح والشعير، وتتدفّق الجعّة والزيت والعسل بغزارة في ربوعها العامرة، والريح تعزف ألحانها على أوتار القيثارة الرافدية الممتدة على أزمنتها الجميلة. حينذاك، كانت مغامرات الإنسان ونباتات القصب وسعف النخيل كَمِثل الثيران والسنابل، تتحاذى مع الحلم والواقع والمأساة.

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ اللاذقية ـ ص.ب 1018 هاتف 422339